جواد علي

تاريخ العرب في الإسلام

السيرة النبوية





جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام

جواد علي

تاريخ العرب في الإسلام

السيرة النبوية



منشورات الجمل

ولد جواد علي في الكاظمية عام ١٩٠٧. تخرّج من دار المعلمين العالية عام ١٩٣١. حاز الدكتوراة من جامعة هامبورغ عام ١٩٣٩. تعرّض للاعتقال عام ١٩٤٢ لأسباب سياسية. مارس التدريس في المعاهد والجامعات العراقية والأجنبية. عيّن عضواً في المجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٨ وعضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٥٦. توفي عام ١٩٨٧. من أهم مؤلفاته: **صورة الأرض** (١٩٥١)؛ **أصنام العرب** (١٩٦٧)؛ **معجم ألفاظ الجاهليين** (١٩٦٨)؛ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (بغداد - بيروت ١٩٧٦)؛ **تاريخ الصلاة في الإسلام** (بغداد). توفي عام ١٩٨٧. صدر له عن منشورات الجمل: **تاريخ الصلاة في الإسلام** (٢٠٠٥)؛ **المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية** (٢٠٠٥).

جواد علي: **تاريخ العرب في الإسلام**، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ١ ٠٠٩٦١، ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

مقدمة

هذا كتاب في تأريخ العرب في الإسلام، جعلته صلة وتكملة لكتابي: تأريخ العرب قبل الإسلام. وهو مثله في أجزاء، سيتوقف عددها على الزمان الذي ستقف ضربات قلبي عنده، وعلى البحوث التي سأتطرق إليها.

وقد جعلته ـ كما جعلت الأجزاء السابقة المطبوعة ـ وسطاً بين الأطناب والإيجاز، وبين التفصيل والاختصار. خالياً من الهوى والغرض. لم أكتبه جبراً لخاطر ولا إرضاء لأحد. وكل ما أردته من كتابته أن يكون رأياً من الآراء، وصوتاً من الأصوات ولحناً من الألحان التي نسمعها عن تاريخ العرب والإسلام.

وقد حرصت في هذا الكتاب كذلك، على ألا أهتم إلا بالنواحي التي كان لها شأن وخطر في تأريخ العرب والإسلام، أما الأمور الثانوية والحوادث التي لم يكن لها شأن خطير في تغيير مجاري الحياة، فلن أتعرض لها إلا بقدر ما كان لها من صلة بحياة الناس في ذلك العهد.

وقد اضطررت في هذه المرة كما اضطررت في الماضي إلى

تركِ فهارس الأعلام إلى الجزء الأخير من الكتاب. أما الموارد التي اعتمدت عليها، واستقيت علمي منها، فسأذكرها تامة كاملة عند ورودها للمرة الأولى، ثم أشير إليها رمزاً واختصاراً إن تكرر ورودها، حرصاً مني على وقت القارئ من الضياع، وعلى مساحة الكتاب من الاتساع من غير داع ولا سبب مبرر.

ولما كان كتابي هذا كما قلت وذكرت تكملة لكتابي: تأريخ العرب قبل الإسلام، واستمراراً له. لذلك لم أجد في هذا الجزء أي مكان مناسب للبحث في الحياة السياسية أو الدينية أو الاقتصادية أو غير ذلك من نواحي الحياة في الجاهلية القريبة من الإسلام بحثاً مفصلاً مسترسلاً، فالاسترسال في هذا البحث وفي هذا الموضع معناه إعادة لما كتبته في تلك الأجزاء وتكرار لكلام سابق وإضاعة لوقت غال ثمين. ولهذا فسوف لا أتطرق في هذا الجزء إلى أمور الجاهلية إلا بقدر ما للجاهلية من صلة بالإسلام. وبقدر ما لها من علاقة بعصر النبوة وبأيام الرسول.

لذا فسأدخل في موضوع عصر النبوة رأساً، دون مقدمة ولا تمهيد. أما من يريد الوقوف على الجاهلية، وعلى أحوال الجاهليين، قبيل الإسلام وعند ظهوره، فعليه مقدماً بمراجعة تلك الأجزاء.

وبعد، فأنا في كتابي هذا، لست بداعية ولا بمبشر بدين من الأديان، ولا أعتقد أن باليهودية أو النصرانية أو الإسلام حاجة إلى رأيي أو مساعدتي وتأييدي. فالأديان كلها من منبع واحد، وهي متمم بعضها بعضاً، مكملة لما قبلها من نبوات ورسالات.

والإسلام لا يضيره ولا يثيره قول من يقول إنه مأخوذ عن يهودية أو عن نصرانية أو عن أية ديانة أخرى. إنه يرى أنه رسالة من رب العالمين إلى الناس أجمعين، وأن اليهودية ديانة سماوية وأن النصرانية ديانة سماوية كذلك. وأن الإسلام ديانة سماوية أيضاً جاءت متممة للديانتين المذكورتين وللأديان الأخرى مكملة لها، وإنها وحي من الله.

وما دامت هذه الأيان ديانات من الله ربّ العالمين، ومن منبع واحد، فلا بدَّ أن يكون في هذه الأديان ما تقتضيه طبيعة الوحي والإلهام من ذلك المصدر الذي ألهم هذه الأديان.

وأنا في هذا الكتاب لا أريد أن أسفه رأياً، أو أؤيد رأياً وأتعصب له. فنحن في زمن صارت هذه الطرق من البحث فيه عتيقة بالية، لا تفيد أصحابها شيئاً إن لم تسئ إليهم. وسبيلي كما قلت أن أذكر الآراء، وأن أوضح ما بلغه اجتهادي من غير تعصب أو تحيز. وآفة العلم الهوى والانحياز.

أما بعد، فلا بدَّ لي في هذه المقدمة من تقديم شكري وتقديري هنا إلى أستاذي السيد محمد بهجة الأثري نائب رئيس المجمع العلمي العراقي الأول ومدير الأوقاف العام، لمساعدته إياي في قراءة مسودات هذا الجزء كافة، وإبدائه ملاحظات عليها ثمينة وآراء قيمة، أفادتني كثيراً، ونفعتني نفعاً كبيراً. وقد كان، كما قلت في الأجزاء السابقة، صاحب الفضل الأول في إخراج كتابي هذا، كما كان وما زال حريصاً على أن يكون الكتاب في أحسن حالة ممكنة شكلاً وموضوعاً، وحريصاً أيضاً على متابعة طبع بقية

الأجزاء؛ فهو إذن حقيق بخالص شكري وجزيل تقديري. وأنا إذ أثبت هذا في هذا الجزء أيضاً على سبيل الإيجاز فإنما أثبته تقديراً للحقيقة، واعترافاً بالفضل لأصحابه.

وأنا في هذا الكتاب أيضاً طالب علم، مبتدئ في التأريخ لم آت فيه بشيء جديد، وكل ما ذكرته وأوردته فيه هو خلاصة علم غيري. وتأريخ الإسلام بحر واسع، لم يبتعد حتى الآن عن ساحله كثيراً، وسيظل كذلك ما شاء الله حتى تتهيأ للعلماء الباحثين فرص الوقوف على الموارد والمصادر، وهي كثيرة ولا شك، مبعثرة هنا وهناك، وحتى يدرس هذا الموجود وينسق وينظم ويرتب. فإذا تمّ مثل ذلك، كان من الممكن يومئذ كتابة تأريخ علمي عن الإسلام.

ورجل هذه منزلته وهذه درجته في العلم، لا بدَّ أن يكون كثير الزلات، كثير الهفوات. ولما كان الإنسان لا يدرك خطأه إلا بعد الوقوع فيه، ، فهو يرجو ممن سيوقعه حظه في قراءته، والوقوف عليه، أن يرشد مؤلفه إليها، ليستفيد منها وليتعلم. والعلم دراسة وتجارب.

ونقد الناس، مهما كانت أهدافه وأغراضه هو في نظر كاتب هذه الصفحات حكمة وتعليم وتقويم ودرس لمن اعتبر. أما المدح، فهو تنشيط للعاطفة مؤقت، لا يلبث أن يزول أثره، ولا يفيد منه العاقل، إن لم يكن في صميمه شبطاً وموقعاً للممدوح في الغرور، تاركاً إياه للخيلاء، والخيلاء من أمارات فراغ الرؤوس.

وختاماً لمقدمتي هذه، لا بدَّ من أن أشير إلى أن ما في هذا

الكتاب من صحيح أو فاسد، ومن صواب أو خطأ، هو مني وحدي، وأنا المسؤول عنه، لا يؤاخذ به غيري. إنه يمثل اجتهادي، ولكل مجتهد رأي. ونيتي فيه خالصة للعلم، وإنما الأعمال بالنيات.

جواد علي

بغداد

الفصل الأول

خطورة تأريخ الإسلام وكيفية تدوينه

يأتي الإسلام بعد النصرانية في عالم الأديان السماوية من حيث العدد، إذ يبلغ المسلمون عدة مئات من الملايين عدداً، وهم منتشرون في مختلف أنحاء الأرض، غير أن غالبيتهم في العالم القديم، ولا سيما آسيا مهد الأديان العالمية.

والمسلمون وإن اختلفوا لوناً ولغة، هم في نظر الإسلام أمة واحدة، أفرادها سواء كأسنان المشط، تجمع بينهم رابطة الإسلام، وهي رابطة فكرية وحسب، بمعنى أنها لا تقوم على العقيدة العنصرية التي تستند إليها بعض الديانات، مثل ديانة يهود.

وقد قرَّب الإسلام بين الشعوب التي دخلت فيه وألف بينها بخصائص وميزها بعلامات صارت كالعلامات التجارية الفارقة. حتى إذا دخل الغريب أرضاً فيها أكثرية إسلامية، شعر حالاً بأنه بين قوم دين غالبيتهم الإسلام.

والمآذن هي من أهم العلامات الدالة على وجود الإسلام في المكان الذي ترى فيه. و«الهلال» في نظر الغربيين علامة فارقة تعني الإسلام. وهي في نظرهم في مقابل الصليب، العلامة الفارقة التي تميز النصرانية عن غيرها من الأديان.

ولكن المئذنة مع هذا لم تكن معروفة في أيام الرسول. أما «الهلال»، فلم يكن أيضاً شعاراً للإسلام في صدر الإسلام.

وهكذا شأن كثير من السمات التي تميّز المسلمين عن غيرهم في هذا اليوم، هي لواحق، لحقت بالإسلام فيما بعد، ولم تكن موجودة في أيام الرسول.

ودراسة تأريخ الإسلام دراسة تحليلية تستند إلى النقد والتبصر وعمل الفكر والروية، توصلنا ولا جرم إلى نتائج قيمة مثمرة، تكفل لنا التفريق بين الأصول والفروع، بين الإسلام الصرف، وما لحق به من لواحق على مرّ الأيام.

ودراسة تحليلية دقيقة مثل هذه، تفيدنا اليوم كثيراً، بل هي ضرورية لازمة، لا سيما دراسة تأريخ أيام الرسول. فإن بين ما يشتكي منه الشرق الأدنى والأوسط لهذا العهد، وما تشكّى منه في القرنين السادس والسابع للميلاد صلة ورابطة وشبهاً في أشياء عديدة. ولتشخيص الشكاوى لا بدَّ من الرجوع إلى أسبابها وعواملها البعيدة. ومعنى هذا الرجوع إلى الماضي للاستفادة منه في مداواتها ومعرفة الأسباب التي أدّت إلى بقائها حية فعالة حتى الآن.

ويعم العالم الإسلامي اليوم جمود وركود في العقل وفي الجسم. والسواد الأعظم في جهالة عمياء وفي ظلام دامس: تعصب بغيض يشبه تعصب قريش في أيام الرسول. وكسل وأمراض، حتى وقع في روع الكثير من الغربيين والشرقيين، أن ذلك من الإسلام، وأن الإسلام معناه الكسل والاتكال والاستسلام، وأنه سبب تأخر المسلمين، وأن العالم الإسلامي لا يمكنه لذلك من مجاراة ركب الحضارة، إلا بابتعاده عن الإسلام، وبتخليصه من أصوله المسيطرة

على العقول، سيطرة تامة راسخة؛ وذلك بثورة كاسحة جامحة عليه، شبيهة بثورة العالم الغربي على الكنيسة وعلى كل ما كان لها من سلطان على عقول الناس.

ودراسة تاريخ الإسلام على الشكل المقترح، هي دراسة كفيلة بإيجاد الأجوبة الصحيحة المقبولة لمثل هذه المشكلات، وبإيجاد الحلول للمعضلات العويصة المتعلقة بتأريخ الإسلام. وهي ستساعد العالم الإسلامي كثيراً ولا شك في معالجة هذه الأمراض التي يتشكى منها، وهي أمراض مزمنة قديمة في الغالب، ورثها الشرق من عهود سبقت ظهور الإسلام، وليس للإسلام فيها دخل ولا يد.

ونحن في الوقت الذي ندعو فيه إلى وجوب دارسة تأريخ الإسلام دراسة نقد وتحليل، نعترف بأن تطبيق ما نقوله ليس بأمر سهل يسير. وآفة ذلك أن الإنسان مهما حاول تجريد نفسه من نزعات العواطف، فإنه لن يتمكن من التخلص منها تخلصاً تاماً كاملاً. فليست العواطف ملابس ترمى أو تستبدل، أو هي شيء يرى ويمكن إدراكه والتغلب عليه. إنها كامنة موروثة في بعض الأحيان، وحاصل جملة مؤثرات خفية، قد تستعبد بعض الناس فتستبد بأحكامهم، وقد تكون خفيفة يسيرة عند بعض آخر، وقد تكون في حكم العدم عند زمرة. ولكن هذه الزمرة هي أيضاً من لحم ودم، وهي معرضة مثل غيرها لظروف قد تسوقها إلى الخضوع لحكم العواطف من حيث تدري ولا تدري تبعاً للأحوال ولقوة المؤثرات.

ثم إن المؤرخ يجب أن يكون كرجل المختبر، ذا استعداد عظيم في التحليل، وذا حظ عظيم من العلم في المواد التي يريد تحليلها، وذا ذكاء خارق يمكنه من الاستنباط والاستنتاج، ومن إجراء

المقابلات والمطابقات والمفارقات والمقارنات، لتكون أحكامه منطقية سليمة، وآراؤه معقولة مقبولة، وإلا صار قاصاً من القصاص، ومؤرخاً من هذا الطراز القديم الذي يرى أن التاريخ حفظ ورواية وتسجيل لما يرويه الناس، فهو يسجل كل ما يسمعه ويدوِّن كل ما يقرأه ويعثر عليه في الموارد. يبدي رأياً في موضوع لمجرد اعتماده على خبر وجده في كتاب أو في جملة كتب، ويقول بأخذ أمة من أمة لمجرد وجود اشتراك في فكرة أو اسم أو أسماء أو تشابه ما. وأنا لا أريد هنا بالطبع أن أنكر وقوع الأخذ والاقتباس بين الأمم والأشخاص، ولكني أدعو إلى وجوب استعمال التبصر والرؤية في أمثال هذه الأحكام، لئلا نتورط في مزالق العجلة، والعجلة كما يقول المثل العربي من الشيطان.

ومن هنا أخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في إصدار الأحكام في تأريخ الإسلام، وتأثرهم بعواطفهم، لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان؛ وحكمهم بموجبه، ولإصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو التشابه مع قولهم بوجوب استعمال النقد، وباحتراسهم في الأمور، ووجوب التأكد من معرفة الآخذ قبل الحكم عليه، ولا سيما أن الساميين أسرة واحدة كما يدعي المستشرقون، يشتركون في كثير من الأمور، ويتفقون في كثير من الآراء، ومن الصعب تعيين الناقل عن الأصل الذي يرجع الكل إليه.

وآية ذلك أن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو من المتخرجين من كليات «اللاهوت». وأنهم إن تطرقوا إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام، حاولوا جهداً إمكانهم ردها إلى أصل نصراني. وطائفة المستشرقين من يهود، وخاصة بعد

تأسيس «إسرائيل» وتحكم الصهيونية في غالبيتهم، يجهدون أنفسهم لرد كل ما هو إسلامي وعربي إلى أصل يهودي. وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء.

لقد غالى كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السيرة النبوية، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة. وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول. ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي. وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشاذ والغريب، فقدموه على المعروف المشهور، استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوزه. تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ، هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك. ومهما قالوه في نسبة التأريخ الصحيح في سيرة الرسول، فإن سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء.

ومن هذه الطائفة «شبرنكر A. Sprenger»، والمستشرق الإيطالي «الأمير كيتاني». والأول هو مؤلف كتاب: das leben und die lehre des Mohammed في السيرة النبوية، وهو في ثلاثة مجلدات. وقد حاول جهد إمكانه الإحاطة بكل ما كان معروفاً في زمانه من موارد عن السيرة، ومناقشته وتدقيقه ونقده، على وفق طرق البحث الحديثة التي كانت معروفة في ذلك العهد، وهو مشكور على جهده هذا وعمله من هذه الناحية. كما يشكر كل مؤرخ وباحث يسير على هذا النهج ويتبع طريقة النقد الخالص، ولكنه ويا للأسف لم يتمسك بالنقد العلمي تمسكاً صحيحاً، بل جرى مع عاطفته وذهب مذهباً شاذاً جعله يأخذ بالخبر الغريب الضعيف، لمجرد أنه غريب غير مألوف. ثم يقدمه على الأخبار المشهورة أو المتواترة، ويبني عليه

أحكاماً. ويأتي بآراء تبدو لمن ليس له علم بالأخبار وبالروايات المتعددة في كتب السير والتواريخ والتفسير والحديث، أنها آراء جديدة حسنة، تشف عن عمق في البحث وتوسع في النقد وصبر على غربلة الأخبار عجيب مقدر فهو يذكر الآراء، ويدوِّن الروايات قديمها ومتأخرها، ثم يناقشها ويفندها ويصححها، ويطعن في هذا الراوي ويقوم هذا الخبر، ولكنه، وهذا هو الغريب فيه، أخذ في كثير من الأماكن بالخبر الغريب المتأخر الشاذ وبالروايات الإسرائيلية والأخبار المدسوسة، فأقام لها وزناً وجعل لها اعتباراً، ثم بنى عليها أحكامه، وكان عليه التفريق والتمييز بين المتأخر والمتقدم من الأخبار، ودراسة سند كل خبر ورواية، والتعرّف إلى آراء العلماء في أولئك الرواة وحملة الخبر من حيث صدقهم وكذبهم، ودراسة كل نص دراسة عميقة من الناحيتين: انطباق مضمون الرواية والخبر على روح الإسلام وأحكام القرآن والحديث وروح عصر الرسول، ودراسة النص من الناحية اللفظية، لينظر إذا كان صحيحاً ينطبق على أسلوب الزمن الذي ترجع الرواية إليه.

ومن هنا جاء بآراء مغلوطة، قد تكون سرته وأعجبته وأقنعته بأنه قد كشف هفوات وأغاليط في السيرة، وأنه قد نجح في إثارة كثير من الشكوك سيقف عليها الناس في تأريخ الرسول. ولكنه في الواقع لم يأتِ بشيء جديد، فإن ما ذكره وأورده لم يكن من لدنه ولا من ظفره به في موارد لم تكن معروفة، بل هو مسطور في كتب السير المطبوعة والمخطوطة، وقد قرأه الناس، لم يجدوا في ذلك حرجاً ولا غضاضة. وكل ما فعله هو أنه ـ كما قلت ـ اختصر تلك الأخبار ثم ناقشها ونقدها وبيّن ما فيها من قوة أو ضعف، إلا أنه بدلاً من أن

يستمر في نقده على وفق الأسلوب العلمي، ركبه هوس حب الخبر الغريب النادر، فقدمه على المشهور المتواتر، وأخذ بالروايات الضعيفة وبالقصص الإسرائيلي وبروايات الضعفاء، مع نص العلماء على فسادها فقواها وساندها وأقام لها وزناً، واستند إلى أخبار «السيرة الحلبية» كثيراً، وفي هذه السيرة كما هو معروف حشو وقصص إسرائيلي نبه عليه العلماء، فكان عليه أن يدرك ذلك، ولكنه لم ينتبه، ولم يأخذ بوجوب تطبيق أصول النقد عليها، فوقع ويا للأسف عمداً أو سهواً في أغاليط وفي أحكام فندها جماعة من المستشرقين.

وأما (كيتاني)، فقد سلك أيضاً مسلك (شبرنكر) في دراسة السيرة من ناحية الرجوع إلى موارد كثيرة ومن الإحاطة جهد إمكانه بكل ما ورد عن سيرة الرسول ومن دراسة كل خبر ونقده والبحث عن رواته، ووقع في مثل أغلاطه. فقد أولع بالخبر الغريب، وأخذ بالروايات المتأخرة الضعيفة التي لا نجد لها أصولاً في كتب السيرة القديمة وفي الموارد الأخرى، وأبدى فيها آراءه مبنية على العاطفة في الغالب، فوقع من ثم في تلك الأغلاط. وقد أثار (كيتاني) كثيراً من التحفظات والشكوك في الذي كتبه عن الرسول أعجبت المعجبين المولعين بطريقة المستشرقين في البحث وفي كتابة التأريخ، دون أن يطلعوا بالطبع على مواطن الضعف عند هؤلاء المستشرقين، كما أنه تهجم على بعض الرجال مثل (ابن عباس) فاتهمه بالكذب، لورود روايات يرجع سندها إليه، وهي متناقضة أو غير صحيحة، فحكم عليه حكمه القاسي من غير أن يفطن إلى أن كثيراً مما أسند إلى ابن عباس هو مما دس عليه، وليس له دخل فيه، لأنه أضيف إليه

فيما بعد لأسباب عديدة سياسية وغيرها لا مجال هنا للبحث فيها. وقد بحث فيها بعض العلماء وأشاروا إلى «سلسلة الكذب»، التي يصلها الرواة الضعفاء بابن عباس، كما بحثوا في الإسرائيليات التي أضيفت إليه؛ وقد أخذها «كيتاني» وغيره على أنها أخبار صحيحة وردت عنه حقاً!

وطريقة هذه الطائفة وتلك من المستشرقين في النقد جعلت بعض المؤرخين الإسلاميين يتهيبون أساليب أصحابها ويرمون الداعين إليها بتهمة الغرض والقصد السيئ وهم لا يقصدون من ذلك الأعراض البات عن النقد، وعدم تمحيص الروايات وجرحها بل هم ينكرونها لأنهم يرون في هذا النوع من النقد الذي يدعون إليه مخالفة لقواعد النقد وأصول البحث، لأنه تعد قائم على قصد معين، ورأي مقرر، وليس ذلك النقد إلا وسيلة مصطنعة لإثبات ذلك القصد.

والذين يؤاخذون المستشرقين على سلوكهم هذا المسلك من النقد، يؤاخذون كذلك كل من يحاول من المسلمين كتابة التأريخ متأثراً بعاطفته وهواه، فهم لا يريدون توجيه اللوم إلى المستشرقين وحدهم، لتأثرهم بعاطفتهم، ثم يتركون من يركب هذا المركب من الشرقيين دون لوم ولا تعنيف.

ومن هؤلاء كان الشيخ محمد الخضري رحمه الله، في صدر محاضرته الأولى التي ألقاها في الجامعة المصرية والمطبوعة بعنوان: «محاضرات في تأريخ الأمم الإسلامية». فقد انحى باللائمة على المؤرخين المندفعين في كتابة تواريخهم بحكم عواطفهم التي تتحكم فيهم، فيجعلون «كل ما ليس بحسن حسناً، ويجتهدون في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة، حتى ما أدى منها إلى سقوط

فاعله وخيبته، وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضد ذلك، فتجعل الحسن قبيحاً، وتستنبط من الخير شراً، ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التأريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جداً». إلى أن قال: «فلا بدَّ أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تأريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها، فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء. وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه، وإن كانت أصابت المحجة، فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم؛ لذلك يحتاج دارس التأريخ إلى سعة صدر يحتمل كل ما يرد على تأريخ قومه من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض»[1].

ويجب علينا أن نعترف أن هنالك سلطاناً آخر يخضع المؤرخ في كثير من الأحيان إليه، هو سلطان الرأي العام. فالمؤرخ مضطر بحكم مقامه بين مواطنيه أن يراعي شعورهم وإلا عرض نفسه للمكروه من قول أو أذى، ولهذا يضطر أن يمر بالقضايا الحساسة مراً خفيفاً. أو دون نقد ولا إبداء رأي.

ومادة المؤرخ وعلمه من الموارد التي تتوفر لديه، والوثائق التي تكون قد تكدست بين يديه. ولما كان موضوع هذا الجزء هو تأريخ أيام الرسالة، فقد وجب علينا البحث عن الوثائق التي تتصل بتلك الأيام، والموارد التي يرجع تأريخها إلى أيام الرسول أولاً، لنستمد منها علمنا بأحوال العرب في عهد الرسالة ولنقف منها على كيفية انتشار الإسلام.

---

(١) الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الجزء الأول «الطبعة السابعة» ص ٣ وما بعدها.

وقد أجهد المؤرخون أنفسهم في البحث عن نصوص مكتوبة تعود إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين، فلم يعثروا على نص مدوّن بأية لغة له علاقة بسيرة الرسول وبكيفية انتشار الإسلام في زمنه، وكل ما وصل إلينا هو مما يعود عهده إلى ما بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى. فهو إذن من النوع المتأخر.

حتى أرض اليمن، وهي أرض كريمة سمحة أغنت المؤرخين بآلاف من الكتابات، بخلت علينا هذه المرة بخلاً شديداً، فلم تتكرم علينا بنص عن هذا العهد، أو عن العهد الذي يلي عهد استيلاء الحبشة على اليمن. فكان عهد احتلال الحبش لتلك البلاد، هو آخر عهد، تفضل فأكرمنا بعدد من الكتابات.

أما مكة والمدينة، وطنا الإسلام؛ فقد لاذا ويا للأسف بالصمت وما زالتا عليه، مع وجود الكتابة فيهما في أيام الرسول، ووقوع حوادث الإسلام فيهما. وكتابة واحدة من ذلك العهد، يعدها المؤرخ ثروة قيمة. وليس لنا تجاه هذا الوضع إلا الانتظار، فلعل الأيام تجود على عشاق التأريخ بنص مدوّن أو نصوص مدونة تعود إلى أيام الرسول.

حتى القراطيس والألواح التي دوّن كتاب الوحي عليها آيات الله، لم يبقَ منها شيء، مع أهميتها وقدسيتها. أما نسخة القرآن الكريم التي كانت لدى حفصة بنت الخليفة عمر بن الخطاب، أو نسخة عثمان وبقية النسخ التي أمر بتوزيعها على الأمصار: فلم يبقَ منها شيء كذلك. ولم يبقَ كذلك أي أثر لنسخ المصاحف الأخرى التي كان الصحابة قد كتبوها لأنفسهم ومنها نسخ كتبت في أيام الرسول. وأما ما يُقال عن وجود نسخة أو نسخ مكتوبة بخط الإمام

علي أو نسخة عثمان، فكلام يحتاج إلى دليل مقنع، وإلى حجة دامغة تقوم على أساس من الإقناع والبرهان.

وليس في يد أحد هذا اليوم أصل من أصول كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء وإلى القبائل والعمال الذين بعثهم إلى اليمن أو الأماكن الأخرى، ولا نملك كذلك أصلاً لكتابة من الكتابات المدوّنة في أيام النبي أو خلفائه؛ وهو أمر يبعث الأسف حقاً. ولو كان للناس في ذلك الزمن علم بقيمة ما كان لديهم، وبأهميته بالقياس إلى من سيأتي بعدهم، لحافظوا عليه ولا شك، ولساعدوا في وصوله إلينا سالماً. وإذا أردنا لومهم على تساهل ظهر منهم؛ فعلينا لوم أنفسنا أولاً، فإننا ونحن في القرن العشرين لم نزل في جهل عميق أصيل في إدراك قيم الوثائق والسجلات، فأضعنا بذلك وثائق خطيرة من تأريخنا القديم والحديث، وأتلفنا أثمن الآثار والمخلفات، ومزقنا كثيراً من القرارات الخطيرة عمداً وعن غرض، وسيأتي يوم ولا شك يجد فيه الناس أنفسهم في هذا الوضع المؤسف الذي نتحدث عنه. فما الذي سيقوله عنا أولئك الخلف حينما نكون في الذاهبين الهالكين. أما أنا، فأعطيهم الحق مقدماً في كل ما سيقولونه عنا، وما سيكتبونه لمن سيأتي بعدهم من الناس الواعين.

وكل ما وصل إلينا عن أيام الرسالة، مكتوب بالعربية التي نزل بها الوحي، أي بعربية القرآن الكريم، ولم يصل إلى علمي عثور أحد على مورد عربي مكتوب بلهجة عربية أخرى غير هذه اللهجة التي يطلق العلماء عليها «العربية الفصحى» وأقدم ما وصل إلينا بالعربية الفصحى يعود عهده إلى أيام العباسيين. وليس فيه مؤلف مكتوب في عهد الأمويين.

وقد فقدت أصول كل ما ألف في العهد الأموي، وفي جملة ذلك ما ألف في سيرة الرسول. ولم يبقَ منها غير اقتباسات ونتف؛ تجدها في بطون كتب السير والمغازي، وفي بطون كتب التواريخ والأدب. وهو بالطبع أمر يؤسف عليه الأسف كله. وكأن الزمان الذي تنكر للأمويين، فقضى على حكومتهم في الشرق؛ أراد أن يقضي على كل ما ألف في ذلك العهد وصنف، حتى ولو كان في أمور أخرى لا تتصل ببني أمية؛ فأزاله من عالم الوجود جملة وتفصيلاً.

أما أيام الرسول؛ وأيام الخلفاء الراشدين، فلم يرو أحد أن أحداً قد ألّف فيها أو دوَّن وجمع. وكل ما وصل إلينا هو فيما يخص جمع كتاب الله. وأما ما يخص حديث رسول الله، فتكاد تجمع الروايات على أن الناس كانوا يتهيبون تسطيره في كتاب وجمعه في أجزاء، خوفاً من أن يكون مع كتاب الله كتاب آخر، كالذي حدث عنه يهود، وشفقة على المسلمين من أن يتخذوا حديث رسول الله قرآناً ثانياً يقرأونه، ثم يقولون بعد ذلك إنه وحي أوحي إليه، ننزل به الروح الأمين من عند الخالق رب العالمين.

ولكن أكل ما ورد في بطون الكتب وما جاءت به الأخبار المحفوظة هو قول منزل حق لا ريب فيه ولا شك. أنؤمن بما آمن به غيرنا، فنقول إن الصحابة،لم تؤلف ولم تدوَّن ولم تجمع؟ وبين الصحابة والتابعين جماعة كانت تشتري الكتب من بلاد الشام ومن أماكن أخرى، وجماعة كانت على حظ عظيم من الحكمة والعلم، وجماعة كانت تراجع أخبار يهود ورهبان النصارى تسألهم وتجادلهم وتقارعهم الحجج وتحكم بين الناس فيما هم فيه مختلفون.

قد يقول الناس: نعم، إن ما جاء في الروايات حق، وإن ما ذكره القدماء عن إحجام الصحابة والتابعين عن الكتابة والتصنيف والتأليف حق لا ريب فيه، لا يأتيه الباطل أبداً، وقد يقولون أكثر من ذلك. أنا أنا، فأقول: أيها الناس، أنا لا أشارككم رأيكم هذا، ولكم دينكم ولي دين. ولن يدخل في عقلي توقف أحد من الصحابة أو التابعين عن التأليف والتصنيف والجمع، ولهم ما تقولونه عنهم من العلم والحكمة والقابليات، وبينهم أناس أوتوا حظاً من العلم قبل الإسلام، وقد تعلموا القراءة والكتابة في الجاهلية، ورووا لقومهم قصص الماضين وأخبار الفرس والروم.

هل يعقد عدم تدوين الصحابة شيئاً، وقد ابتدأ الوحي بـ ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾؟[2] وقوم يبتدئ الوحي عندهم بهذا الابتداء، لا يعقل أبداً أن يتركوا القلم ويناموا؛ ثم لا ينشط واحد من بينهم فيكتب أو يدوّن شيئاً.

نعم، قد يكون إحجام الصحابة عن جمع حديث رسول الله وتدوينه بسبب ما ذكره الروّاة والمؤرخون، وهو بسبب خشيتهم من ظهور كتاب مع كتاب الله. ولكن ما الذي خشيه الصحابة من تدوين سيرة رسول الله، أو أحوال الماضين أو أمور أخرى من الأمور التي قد لا تحمل على هذا المحمل والتي تفيد القوم وتنفعهم؟ قد يكون غلاء القراطيس وارتفاع أسعار مادة الكتابة من بين هذه العوامل التي حالت بينهم وبين التدوين. وهذا سبب معقول مقبول جداً من بيان

---

(٢) سورة العلق، الآية الأولى وما بعدها، السيرة الحلبية (١/ ٢٧٦) «باب بدء الوحي صلّى الله عليه وسلّم».

سبب عدم انتشار الكتابة في ذلك العهد. ولكن هل كان جميع الصحابة من الفقراء المعوزين؟ لا: لقد كان من بين الصحابة والتابعين أناس لم تكن أحوالهم المالية سيئة، حتى تحول بينهم وبين التدوّين. ومن له شغف وولع بالعلم لا ينثني عن الاشتغال به مهما كانت أحواله المالية سيئة.

وأنا في هذا المكان لا أريد أن أحمل القارئ على الاعتقاد بأن ذلك العصر الذي نتحدث عنه كان عصر تأليف وكتابة، وأنه كان عصر كتبة ومؤلفين، فقد كانت لتلك الأيام مشكلاتها وشواغلها، وقد كان للقوم عمل مرهق وواجبات كثيرة، تحول بينهم وبين التأليف والكتابة، وكل ما أريد أن أقوله هو أن من غير المعقول تصور خلو ذلك العصر من كتبه ومن مؤلفين ومدونين وجماعين، ومن أناس انصرفوا إلى تدوين أحوال أيامهم على الأقل. وإذا كنا عاجزين أن نأتي بأدلة تؤيد ما نقوله، فإن عجزنا لن يكون دليلاً على عدم وجود التأليف في ذلك العهد. ثم إننا لم نجهد أنفسنا إجهاداً في البحث عن آثار ذلك العصر، ولم نكبد أنفسنا مشقة التنقيب في مظانها وفي مواطنها أو في الأماكن الأخرى فإذا فعلنا وعجزنا وأيسنا؛ جاز لنا حينئذ اليأس وساغ لنا قطع الأمل، وحق لنا بعض الحق القول بعدم اشتغال أحد ممن نعنيهم بالكتابة. أما وأننا لم نفعل من ذلك شيئاً، فليس لنا إلا الانتظار، فقد يكون فيه الفرج، وقد يأتي منه خير كثير.

والمؤرخ الحصيف الناقد، لا يكتفي في بحثه عن تأريخ عصر الرسالة، بما اكتفى به أكثر المؤرخين من توجيه جل عنايته إلى الناحية السياسية والغزوات، بل عليه أن يتخطى حدود هذه الناحية

إلى نواح أخرى. إلى دراسة أحوال السواد الأعظم من الناس، وإلى التطورات الفكرية والاقتصادية والحياة الاجتماعية والدينية والثقافية في ذلك العهد، وإلى أثر الأفراد البارزين في مجتمع ذلك اليوم، وإلى أثر الإسلام في الحجاز وفي العرب أجمعين.

فليس الإسلام ثورة قامت لقلب نظام ووضع نظام جديد، وليس الإسلام ديانة صرفة بالمعنى المفهوم عند الغربيين في الزمن الحاضر، أي مجرد عبادات حدودها الكنيسة والبيت لا يتعداها إلى الحياة العامة والسياسة والإدارة، وليس الإسلام ناحية واحدة من نواحي هذه الحياة؛ ولكن هذه النواحي كلها وغيرها. إنه في نظر أهله، عبادات ومعاملات، دين ودنيا، دين ودولة، لا تفريق فيه بين أي كان من ذلك.

والإسلام ينظم للمسلمين أمورهم الدنيوية، كما ينظم أمورهم الدينية وواجباتهم تجاه الخالق؛ لا تخلو ناحية من نواحي الحياة المعروفة إلا نظمها على وفق قواعده وأسسه، ولهذا لزم أن يكتب تأريخه على القواعد والأسس؛ وأن تدرس كل النواحي التي أحاطت به؛ وبالحجاز وبجزيرة العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام.

ودراسة على هذا النحو توجب على المؤرخ التوسع والتبسط في مراجعة المظان والموارد، وهو كلما توسع فيها، كانت إحاطته بأحوال العصر أشمل وأحسن وأعم. والقرآن الكريم، هو سندنا وملاذنا في معرفتنا بتأريخ الإسلام، وبأحوال العرب ذلك العهد. ثم كتب التفاسير وأسباب النزول وكل الكتب المؤلفة حول كتاب الله، لشرحه وإيضاحه للناس. ثم الحديث حديث رسول الله وعمله، وكتب السير والمغازي، والتواريخ من عامة وخاصة.

ويحمل الجشع المؤرخ على التهام مصادر أخرى، والبحث عن موارد تفيده في زيادة علمه وتعينه على الإحاطة بأحوال العرب المعاصرين للإسلام، ليس في الحجاز وحسب، بل في أنحاء أخرى من جزيرة العرب وفي خارج الجزيرة أيضاً. فهو يرد الشعر من ناحية ما يخص الحياة العامة، ويرد كتب الأدب ليرى ما ورد فيها مما يخص أحوال القوم في أيام الرسالة. وكتب الأدب في العربية مزيج من أدب وتأريخ حتى ليصعب عليك أحياناً البت في الفرع الذي يقع الكتاب فيه: أهو في فرع التأريخ، أم في فرع الأدب، وهو يرد كل ما يخص هذا العصر؛ وإن كان أسطورة أو مثلاً، لأن في الذي تقوله تعبيراً عن نفسية العصر واتجاه الناس، عبر عنه بهذا النسق من التعبير، لسبب من الأسباب. فهو إذن ضرب من ضروب الكلام، ونوع من أنواع التعبير عن كوامن النفس.

والأمثلة العربية القديمة والقصص الجاهلي والإسلامي مصدر مهم في معرفة تأريخ الإسلام وفي معرفة الظروف والأحوال التي كانت تسيطر على العرب عند ظهور الإسلام. فيها وفي أمثالها ثروة تأريخية ربما لا يظفر بها المؤرخ في الموارد التأريخية المعروفة المتداولة بين الناس.

ولكل ما تقدم وجب على المؤرخ لتأريخ الإسلام أن يتوسع في موارده جهد إمكانه، وأن يفتش عن منابع جديدة، ليضيف ما يرد فيها إلى هذا الذي نعرفه عن تأريخ الإسلام، حتى يتمكن من تكوين صورة واضحة صحيحة صريحة لهذا التأريخ.

والكلام على كل مورد من هذه الموارد، نوع من الفضول، يخرجنا عن حدود عملنا في هذا الكتاب إلى عمل آخر، يجب أن

يكون في حد ذاته في مجلدات، لكثرة ما يجب التحدث عنه. فليس لنا ما نصنعه في هذا المكان إلا الاكتفاء بهذا التنويه، لا سيما أننا سنذكر أسماء الموارد التي سنأخذ منها في هوامش الصفحات.

وبعد، فإن مادة تأريخ صدر الإسلام وموارده، وإن كانت عربية خالصة، عليها يجب أن يكون اعتماد المؤرخ ورجوعه، غير أن على المؤرخ أن يرجع إلى ما كتبه غير العرب في الإسلام أيضاً، وإن كانوا قد كفروا به وجحدوه، فإن الإسلام لم يقتصر على جزيرة العرب وحدها فلم يتعدها، ولم ينتشر بين العرب وحدهم فلم يغادرهم إلى شعب آخر؛ بل وجه رسالته منذ يومه الأول إلى العالم، وشرع في نشره بين الأمم الأخرى في حياة الرسول، وتجاوز حدود بلاد العرب في أيام الراشدين، فطهر أرض الساسانيين وقضى على الأمبراطورية، وفتح أرضين عظيمة واسعة كانت في حكم البيزنطيين. ولهذا وجب علينا أن نعرف ما قاله الساسانيون والبيزنطيون والأقباط والسريان والأرمن وكل من احتك أو اصطدم بالإسلام، وما كتبوه في الإسلام وفي فتوحه وانتشاره وما وعوه وفهموه عنه. إن خيراً كتبوا، وإن شراً، ففي النوعين فائدة للمؤرخ وللقارئ. وفي الذي كتبوا ولا سيما عن الفتوحات بعض أمور تفيدنا كثيراً في سد الثلم الكثيرة التي نجدها في كتب المؤرخين الإسلاميين، لبعد هؤلاء المؤرخين عن المواضع التي وقعت في تلك الفتوح، ولعدم اهتمامهم في الغالب اهتماماً كلياً بها، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم من الأمور التي تستوجب هذا الاهتمام، بينما هي على جانب كبير من الخطورة بالنسبة لغيرهم، لوقوعها في أرضهم وفي بلادهم، ولهذا صارت أخبارهم عنها ذات أهمية في تدوين تأريخ الإسلام.

وعليّ قبل أن أتكلم على أي مورد من هذه الموارد أن أعترف للقارئ بأني لا أستطيع أن أذكر له اسم مورد واحد من الموارد الأعجمية مما يرتقي عهده إلى زمن النبي. فليس بين الموارد التأريخية التي وصل علمها إلينا مما يرتقي تأريخه إلى هذا العهد، كما أني لا أستطيع أن أقول له إن في الموارد المؤلفة فيما بعد شيئاً جديداً عن الإسلام في أيام النبي بالنسبة إلى القارئ. ولذلك فليس له أن يطمع في أن آتي له بشيء جديد قاله كتبة النصرانية في النبي في هذا العهد وهو لم يرد في الموارد الإسلامية. ولكني أستطيع أن أؤكد له من ناحية أخرى أن في هذه الموارد شيئاً جديداً بالقياس إلى قُراء الموارد العربية هو تحامل الموارد الأعجمية على الإسلام وتلفيقها بعض الأخبار على الرسول زاعمة أن ما تذكره هو حق واقع وهو في الواقع باطل مبعثه الجهل والعصبية الدينية والسياسية ليس غير.

وقد كتب هذا المذكور عن الإسلام في زمن كان الإسلام فيه قد قضى على الأمبراطورية الساسانية، واقتطع أغنى أجزاء الأمبراطورية البيزنطية وأخصبها وأهمها. وكان النصارى فيه يدخلون أفواجاً في دين الله، مما أفزع رجال النصرانية وأذهلها، حتى صور إليها أن الإسلام سيقضي على دين المسيح؛ وأنه يتتبعه في كل مكان، وهذا مما جعلهم يحقدون عليه ويرمون النبي والإسلام بالكذب وبالتهم الأخرى لعواطفهم التي تغلبت عليهم، ولتصورهم أن في هذا النوع من التشنيع أبعاداً للنصارى عن التقرّب إلى الإسلام، وتنفيراً لهم عن الدخول فيه؛ وذلك على نمط ما تفعله المذاهب السياسية في هذا اليوم من تشنيع بعضها على بعض، لاعتقادها أن في ذلك كسباً ونجاحاً وظفراً.

وعندي أن عدم مبالاة البيزنطيين بالعرب، واستصغارهم لهم، كانا من العوامل التي أدّت إلى عدم اهتمام مؤرخيهم بتدوين تأريخ العرب والمسلمين؛ وإلى ضياع بلاد الشام ومصر منهم، نتيجة ذلك الجهل. فلم يكن العرب في نظر الروم إلا قبائل ضعيفة تابعة، كل ما تتمكن أن تفعله هو غزو بعضها بعضاً، وغزو حدود الروم والفرس، ولهذا لم تحفل بها إلا من هذه الناحية، ولم يتحدث مؤرخوهم عن العرب إلا في المناسبات المتصلة بأمثال هذه الشؤون.

وعلينا أن نعترف أن كتابة التاريخ نفسها لم تكن نشطة في هذه الأيام بين البيزنطيين، وأن هذا الخمول كان له أثره في عدم تدوين شيء عن العرب والإسلام في أيام الرسول وفي أيام خلفائه الراشدين.

كما علينا أن نبيِّن أن جل من اشتغل بتدوين هذا التأريخ كانوا من رجال الدين، وقد أثرت دراستهم الدينية القائمة على العقيدة والإيمان في طريقة تدوينهم للتأريخ وتفسيرهم للحوادث. حاولوا جعل التاريخ في خدمة الكنيسة والعقيدة، ولهذا تضاءل النقد، ونزل الجزم عندهم منزلة الصدارة، وتضاءلت الملاحظات والتأملات التي عرف بها المؤرخون السابقون، وأصبح التاريخ مجرد سرد حوادث وتدوين أرقام ووقائع، جافة مملة في الغالب، لا رواء فيها ولا حياة. تمثل طبائع كاتبيها، الذين تزمتوا وقسوا على أنفسهم وانصرفوا على الحياة نفسها إلى عالم قاس يقوم على التدوين والتسجيل، دون نقد ولا مناقشة ولا تعليل.

ومن رجال هذه الطبقة أسقف عاش بمصر وألف بها، اسمه

«يوحنا النيقي» «John of Nikiu». وقد وُلِد على ما يظن في أيام فتوح المسلمين لمصر. وكان رئيساً للإدارة في سنة «٦٩٦» للميلاد. وقد غاظه ما رآه من إقبال المصريين على الإسلام، ومعاونتهم للمسلمين على إخوانهم في الدين الروم، وحنق عليهم لهذا السبب. ونرى آثار هذا الحنق في تأريخه المؤلف باليونانية، المنقول إلى الحبشية عن ترجمة عربية ضاع أصلها، ولم يبقَ منها إلا القليل. وعن هذه الترجمة الحبشية عملت الترجمة الإنكليزية[٣].

وللحكم على مبلغ حنق صاحب هذا التاريخ على الإسلام، وعلى مقدار تأثره بعاطفته، لا بدَّ لنا من عرض بعض ما ذكره عنه، وقد نعت الإسلام «The Faith of the beast» وقال ما معناه عن كيفية انتشار الإسلام بين المصريين:

«وفي أيامنا هذه، ارتد كثير من المصريين، ممن كانوا نصارى كذباً، فهجروا الديانة القويمة، وتركوا التعميد، ودخلوا في الإسلام دين أعداء اللَّه، وقبلوا دين الوحوش: دين محمد، وتعاونوا مع عباد الأصنام، وحملوا معهم السلاح، وحاربوا النصارى.

ومن هؤلاء: «يوحنا الخلقدوني «John the Chalcedonian» من رهبان سيناء. دخل في الإسلام، وجنح عن الرهبانية، فحمل السيف، وتعقب النصارى المؤمنين المخلصين لربنا يسوع المسيح[٤]».

---

(٣) The Chronicle of John, Bishop of Nikiu. Translated from Zotenberg's Ethiopic text, by R. H. Charles, 1916.

(٤) p. 201.

وقد فسَّر هذا الراهب انتصار الإسلام على النصرانية، وانهزام البيزنطيين في مصر بأنه عقاب من الرب للنصارى، لابتعادهم عن دينه القويم، وخروجهم على أوامر الرب[5] وهو تفسير طالما نقرأه في التواريخ المكتوبة على هذا الطراز. ففسرت الثورة الفرنسية مثلاً في بعض الكتب وظهور نابليون بأنها غضب من الله على الشعب، لأنه ابتعد عن الكنيسة وخالف أوامر الرب.

وقد فزع رجل دين آخر من انتشار الإسلام ومن دخول النصارى فيه أفواجاً أفواجاً، فكتب بحوثاً في اليونانية لإرشاد أخوانه في الدين، ولتعليمهم أمور دينهم، ولرد الشبهات التي تكوّنت عندهم من انتشار الإسلام في بلاد الشام. وقد حمله عمله هذا على التعرض للإسلام، والاستشهاد بالقرآن الكريم بالحديث على صحة النصرانية. وفي الذي ذكره فوائد للمؤرخ، تيسر له الوقوف على وجهة نظر رؤساء النصرانية في الإسلام وفي شرح بعض الحوادث التي لم يرد لها ذكر في مؤلفات المؤرخين الإسلاميين.

ويعرف هذا الرجل الذي أتحدث عنه بـ «القديس يوحنا الدمشقي» «St. Johannes Damacenus». وقد وُلِد حوالى سنة ٦٧٥م، وتوفي في الرابع من دسمبر ٧٤٩م وهو من أسرة كانت في أيامها شهيرة معروفة. فكان أبوه في خدمة الخلفاء الأمويين، وله منزلة وحظوة عندهم وكان هو نفسه من المقربين إليهم والمتصلين بهم ومن الذين يستشيرونهم في مهمات الأمور. وقد يسرت له ثروة أبيه سبيل التثقف بثقافة عالية، فتضلع بالسريانية، وأتقن اللغة اليونانية

---

(٥) p. 203.

حتى صار كاتباً بارعاً فيها مع أنه لم يكن من أصل يوناني، ولعله كان من البارعين بالعربية كذلك[٦].

وقد نسب «يوحنا» الإسلام إلى الهرطقة «Hersey»، وادعى أن الرسول أخذ علمه من رجل من أهل الكتاب، أو من رجل من الهراطقة الأريوسيين «Arian». وهو قول سبق أن زعمته قريش قبله؛ وأشير إلى زعمهم في القرآن الكريم[*]، وزعم أيضاً أن الرسول كان قد نظر في التوراة والإنجيل، وأنه تعلم منها وتنبأ «Pseudo-Prophetes»، كما زعم أن الإسلام إنما انتشر بحد السيف، لا بالحجج والإقناع. وفي جملة ما قاله: يتهم المسلمون النصارى بعبادة التماثيل المصنوعة من الحجارة والخشب، مع أنهم هم أنفسهم يقبّلون الحجر الأسود، ويتقربون إليه، وهم في عملهم هذا لا يختلفون عن النصارى في تقبيلهم التماثيل أو الصليب[٧].

ورأى في ظهور الإسلام علامة من علامات الدجال «Anti-Christ». وقد أثرت نظرية ظهور الدجال تأثيراً كبيراً في عقلية

---

(٦) توفي قبل سنة ٧٥٤م راجع:
Bilderstreit und Arabersturm in Byzantuz das 8 Jahrhundert (717-813) aus der weltchronik des Throphanes S. 136, Basilius Studer, Die, Theologische arbeitsweise des Johanes von Damaskus, 1956, S. 12, Hieronymus, menges, Die Bilderlehre des hl. Johannes von Damaskus, 1937.

(*) De haeresibus, in Migne Patrologia graeca, vol. 94, 1864, The Muslem World, Vol., XLI, No. 2, April 1931, October, 1934, p. 392.

(٧) حضارة الإسلام: تأليف كوستاف فون كرونبوم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، (ص ٦٥ وما بعدها).

نصارى بلاد الشام في هذا العهد. وقد ورد في بعض المؤلفات السريانية أن من علامات الدجال انطلاق العرب من يثرب، وتغلبهم على الروم[٨].

ويعدّ «يوحنا الدمشقي»، ممهد الجادة للمستشرقين المعروفين بتحاملهم على الإسلام. فأكثر ما يزعمونه ويذكرونه عنه، هو مما كان قد قاله ودونه قبلهم بما يزيد على ألف عام.

وجرأة «يوحنا» هذه على الإسلام، مع قربه من الخلفاء واشتغاله موظفاً عندهم، كل ذلك من دلائل تسامح المسلمين، وعدم اهتمامهم بما يقال عنهم وإن كان غثاً.

وقد حوى تأريخ الأسقف «سبيوس» «Bishop Sebeos». وهو مؤرخ أرمني الأصل، على أمور تأريخية مهمة عن الإسلام. ويبتدئ تأريخه بأيام «فيروز Peros» «٤٥٩ـ٤٨٤م»، وينتهي بتولي معاوية الحكم سنة ٦٦١م، وقد حوى حوادث عديدة شهدها وأدركها المؤرخ بنفسه. ومن هنا كان لتأريخه شأن كبير من هذه الناحية، ويمتاز تاريخه أيضاً بطريقة عرضه للحوادث، وسيره على طريقة المؤرخين اليونان والرومان القديمة «الكلاسيكية» في تدوين التأريخ. وفي تأريخه وصف لفتوح العرب لإيران وأرمينيا والأرضين التي كانت خاضعة للبيزنطيين، وكيفية سقوط الأمبراطورية البيزنطية[٩].

وقد تعرض «يوحنان بن بنكاية «Johanan bar Penkaye»

---

(٨) The Muslim World, Vol., XLI, No. 2, April, 1951, p. 88, October, 1934, p. 22.

(٩) Geschichte der Christlischen Litteraturen, S. 104, Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol., 8. p. 872.

حوالى سنة ٦٨٥م» في الفصلين الرابع عشر والخامس عشر من تأريخه العام لأمور المسلمين، والتغيُّر الذي طرأ على العالم بظهور أبناء «هاجر» أي العرب، واندحار الساسانيين وزوال ملكهم، بعد أن كانوا يرفعون أنوفهم فوق الأنوف غطرسة وكبرياء.

وقد نسب انتصار المسلمين إلى إرادة الله وقضائه وقدره. فقد أراد الله أن يرغم أنف المملكة المتغطرسة الظالمة العاصية لأمره بأن سلّط عليها قوماً «حفاة، أكثرهم أشباه عراة، لا يملكون سلاحاً يقاتلون به ولا قوة، فاجتاحوا الأمبراطورية، وتغلبوا على أقوى محاربي العالم في أيامهم، ولم يكن لينتصر «أبناء هاجر» لولا قدرة قادر، وأمر من الله(١٠)».

وقد تعرض لنزاع علي ومعاوية، وأثنى على معاوية كثيراً، وذكر أنه كان عادلاً قديراً، انتشر الأمن في زمانه، وعامل النصارى معاملة طيبة، ولم يفرق في المعاملة بين رعيته. ووصفه بالكفاية والحزم. ونجد في تأريخه ثناء على المسلمين، لعدلهم، ولحسن معاملتهم للنصارى، وإنصافهم لهم(١١).

وقد تطرق «يعقوب الرهاوي Jakob Von Edessa» في كتاباته لأحوال المسلمين وأحوال النصارى في حكمهم. وهو من «المِنوفيزيتيين Menophysitian»، أي القائلين بالطبيعة الواحدة. وتفيدنا كتاباته في تشخيص أحوال النصارى في القرن الثامن للهجرة(١٢).

---

(١٠) Dionysius, S. 5, A. Mingana, Sources suriaques, Leipzig, 1908, Vol., I, p. 146, Baumstark, S. 40.

(١١) Mingana, p. 1455, Dionysius, S. 8.

(١٢) Dionysius. S. 8, 16, Chronican Jocobi Edesseni ed., E. W. Brooks.

وفي دار كتب الفاتيكان نسخة خطية لكتاب في التاريخ في أربعة أجزاء، كتب سنة «٧٧٥» للميلاد، في «رهبانية زقنين Kloster von Zuqnin». وقد تناول الجزء الرابع منه حوادث أيام المؤلف المجهول، وتعرض فيه لأحوال الإسلام والمسلمين، وتشكى من الجزية الباهظة التي فرضها الحكام، ومن الضرائب التي تؤخذ من السكان، حتى أثقلت كاهلهم، وأضرت بجميع الناس[١٣].

وكانت لـ «تيموثايوس الكاثوليكي Catholicos» «Katholikos» «Timotheus» «Timothy» وهو من النساطرة، مناظرات دينية. وفي حضرة الخليفة المهدي سنة «٧٨٣م»، وقد كان كما يتبيَّن من كتاباته من الواقفين على أحوال الإسلام[١٤].

وزاد رجل دين آخر الخليفة المهدي ليجيبه عن بعض أسئلة كانت قد أشكلت عليه. واسمه ثيوفيلوس بن توماس الرهاوي «Theophilus sohn des Thomas aus Edessa» وهو من المارونيين، وصاحب مؤلف في تأريخ الخليقة والعالم. وقد نقل «الألياذة والأوديسة Ilias and Odyssee» إلى السريانية[١٥].

وقد حوى التاريخ العام لـ «ثيوفانس Theophanes the Confessor» المتوفى سنة (٨١٧) أو (٨١٨م)، أموراً عديدة في التاريخ الإسلامي، خاصة ما يتعلق منها بصلات العرب مع الروم

---

(١٣) Geschichte der Christlichen Litteraturen. S. 52.

(١٤) Dionysius, S. 8, Woodbrooke, Studies Christian documents in Syria, Arabic and Gershumi, Edited by A. Mingana, Vol., II, Cambridge, 1928.

(١٥) Dionysius, S. Geschichte der Christlichen Litteraturen, S. 52.

والفتوحات الإسلامية. والمؤلف من رجال الدين، ومن المدافعين عن عقيدة تقديس الصور والحاملين على خصومها. ولدفاعه هذا سجن ونفي؛ لأن الحكومة، وعلى رأسها القيصر، كانت ترى تحريم الصور. فأمر القيصر «ليون الخامس» بسجنه ونفيه وقد شغل هذا الرأي البيزنطيين مدة تزيد على مئة عام، من سنة (٧٢٦) إلى سنة (٨٤٢م). وكان لعقيدة الإسلام في تحريم التقرّب إلى الصور وتقديسها أثر كبير في ظهور هذه المشكلة عند البيزنطيين.

ولم يكن «ثيوفانس» من المؤرخين المنصرفين إلى التأريخ، بل كان رجل دين، اضطره صديق له اسمه «Georgios Synkellos» إلى التأليف، حينما أخذ عهداً عليه وهو على فراش الموت أن يتم كتابه في التاريخ الذي شرع في تأليفه، فلم يكن أمام «ثيوفانس»، وقد أعطى العهد إلا إتمام الكتاب.

وقد استند هذا التاريخ إلى موارد سابقة، فقدت، ولم تبقَ من أكثرها لسوء الحظ بقية، كما حوى أموراً لا نجدها في موارد أخرى، لا سيما ما يتصل منها بحوادث السنين الواقعة ما بين (٧٦٩) و(٨١٣م). ويكاد يكون المورد البيزنطي الأكبر في التأريخ لهذا العهد. ويمتاز هذا التأريخ باحتوائه على جداول تقويمية لسني حكم القياصرة وملوك إيران والخلفاء والبابوات وبطاركة القسطنطينية وبطاركة القدس والإسكندرية وأنطاكية، مرتبة أحياناً على وفق التقويم الإسكندري والتقويم الميلادي، وقد ضبطت فيه المدد بالسنين والأشهر والأيام في بعض الأحيان، ورقمت على طريقة البيزنطيين[١٦].

---

(١٦) Bilderstreit, S. 16. f.

ويدل ما كتبه «ثيوفانس» في النبي والإسلام أنه كان قد وقف على موارد في تأريخ الإسلام، أو أنه راجع بعض المسلمين، وربما راجع بعض المسلمين الأسرى الذين كانوا في بلاد الروم، ولكنه مزج ما عرفه بالبغض الذي كان شائعاً يومئذ للإسلام وللرسول، وخلط في بعض الأمور. وهو يجاري يوحنا الدمشقي في آرائه في الإسلام، ويتفق معه، ولهذا فإن من المفيد جداً موازنة ما ذكره «يوحنا» بما ذكره «ثيوفانس» لمعرفة الصلة بين آراء «ثيوفانس» و«يوحنا» المذكور[١٧].

وزادت زيارات «البطريرك ديونيسيوس التلمخري» «Patriarch» «Dionysius von Tellmahre» للخلفاء وللحكام، وصلاته بهم، من معارفه بتأريخ المسلمين وأحوالهم. وقد كان بحكم مركزه السامي في الكنيسة اليعقوبية. إذ كان (بطريركاً) لديهم، على إتصال بكبار رجال الحكم، ومضطراً إلى الترحال والتجوال لتفقد أحوال رعيته، فزار مصر حيث اتصل بحاكمها محمد بن طاهر في سنة «٨٢٨م». وزار بغداد فرأى الخليفة المعتصم في سنة (٨٣٥م). وألّف كتاباً في التاريخ إلى أيامه، وقد توفي في ٢٢ أغسطس من سنة ٨٤٥م. ثم أكمل تأريخه الأسقف «يوحنا الداري» «Bishop Johannes von Dara» ووصله، غير أن الزمان عبث به، وتحكم فيه، فلم يترك منه إلا بقية[١٨].

---

(١٧) راجع عن «ثيوفانس»:

Der Islam, Bd. 23, «1936», S. 134. Chronographia, Bd., I, S. 333. ff. (De Boor), Leipzig, 1883.

حضارة الإسلام (ص ٦٦).

(١٨) Geschichte der Christlichen Litteraturen, S. 53, Rudolf Abramowski, Dionysius Von Tellmahre, Leipzig, 1940.

و«البطريرك» في تاريخه جرى على سنة غيره من المؤرخين النصارى بالنسبة إلى تاريخ الإسلام. غير أن في تاريخه أموراً مفيدة جداً عن الأمويين والعباسيين وأحوال الخلافة إلى أيام المعتصم، وهي أيامه أيضاً. وقد تطرّق إلى الفتوح الإسلامية وإلى إخراج الروم من بلاد الشام. وإلى الفتن في أيام عثمان وعلي واختلاف علي ومعاوية وإلى فتح جزيرة قبرص والجزر الأخرى التي كانت في أيدي الروم. وأورد أموراً لا نجدها في التواريخ الإسلامية، لبعد هذه الأماكن عن مسامع المؤرخين المسلمين.

وقد عد مثل غيره من المؤرخين النصارى، انتصار المسلمين على الفرس، بسبب إرادة الله وأمره، انتقاماً من الفرس، لغطرستهم، ولإساءتهم معاملة رعيتهم النصارى وظلمهم لهم[١٩].

وجاء في كلام لـ «يولوجيوس القرطبي Eulogius of Cordova» (٨٥٩م) هذر في حق الرسول والإسلام، وفي أسباب كراهية الإسلام للكلاب.

ولم تبقَ من تأريخ «الياس بن شنجا Elias bar Schinja» (٩٧٥/ ١٠٥٠م)، إلا بقية. وتنتهي حوادث هذا التاريخ بسنة (١٠١٨-١٠١٩م). وللمؤلف مناظرة جرت له في حضرة الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي في سنة ١٠٢٦م[٢٠].

وتوجد مقتبسات من تأريخ «الياس» في تاريخ «يشوع أبكر» «Jeshua Abger» من معاصري الياس المذكور.

---

(١٩) Mingana, XI, 7, Dionysius, S. 48.

(٢٠) Christ., S. 56, Dionysius, S. 14, Fr Baethgen, Fragmente Syrischer, und Arabischer Historiker, Leipzig, 1884.

وهناك تواريخ أخرى، ولكنها متأخرة عن تواريخ من ذكرت. وقد اعتمدت في حوادثها عن صدر الإسلام والأمويين على المتقدمين، ولهذا لم أجد في ذكرها إلا إطالة لهذا الفصل، وإضاعة للوقت، فأجلت البحث فيها إلى المكان المناسب، إلى تأريخ بني العباس أو من بعدهم، حيث يكون لها مقام وموضع، إلا إذا ورد في بعض منها ما فيه طرافة وجدة ورواية لم ترد لدى المتقدمين، فأشير عندئذ إليه وأذكره في مكانه. ولهذا سيكون لتأريخ «ميخائيل الملطي» المتوفى سنة ١٠٩٩م وتأريخ ابن العبرى المتوفى سنة ١٢٨٦م وأمثال هذه، مواضع أخرى.

فأنت ترى مما تقدم أن جل هذه المؤلفات وإن كتبت بلغة أعجمية، قد ألفت في بلاد الإسلام، وكان لأصحابها صلة وثيقة برجال الحكم، ومنزلة محترمة لديهم وقد كانت لبعضهم مناظرات في أمور الدين مع علماء المسلمين بحضور الخلفاء أو الوزراء، وهذا غاية في التسامح عند المسلمين.

وتساعدنا مؤلفات من ذكرناهم مساعدة كبيرة في فهم أحوال الفرس والروم، وفهم مواطن الضعف لديهم، وفهم صلاتهم بالعرب وأثرهم في جزيرة العرب. وقد كان لهم أثر بارز في سياسة العرب وفي توجيههم في القرنين السادس والسابع للميلاد.

وقبل أن نختتم كلامنا على المؤلفات الأعجمية، لا بد لنا من الإشارة إلى كتب «الجدل والمناظرات Polemic» المؤلفة في الرد على المسلمين. وهي وإن كانت قد تميّزت بالتحامل على الإسلام، قد تضمنت أموراً تفيد المؤرخ وتنفعه، ولا سيما من ناحية علاقة

المسلمين بالروم وبالنصارى، وأموراً أخرى وردت مقتضبة في التواريخ الإسلامية، أو لم ترد فيه إطلاقاً.

وفي طليعة من ألف في الرد على المسلمين، يوحنا الدمشقي الذي تحدثت عنه سابقاً، و«ثيودور أبو قرة» «٧٤٠ـ٨٢٠م» أسقف «حران»، وهو مشهور معروف، وله صلة بالخلفاء. وكان في جملة ما تطرق إليه نظرية الخلاص التي حاول توضيحها للمسلمين، وحرية الإرادة، ومشكلة «الطبيعتين» في المسيح. وجدله ترديد لآراء يوحنا الدمشقي. وقد تطرق أيضاً إلى الإسلام والرسول[٢١].

ويدل مؤلف الراهب (برثلمياوس الرهاوي Bartholomaios von Edessa)، على علم بالإسلام واطلاع على سيرة الرسول. وقد اختلف في زمانه، فقيل: هو من رجال القرن التاسع للميلاد، وقيل كان بعد ذلك بقرون قد تصل إلى القرن الثالث عشر للميلاد، لورود مصطلحات لم تظهر إلا بعد القرن التاسع مثل، «Muusoulmanoi» بمعنى المسلمون «Muslims»، وهو مصطلح لم يظهر في اليونانية على ما ذهب إليه بعض العلماء إلا في القرن الرابع عشر للميلاد، ومثل مصطلح: «Porakides» «Phorakides» الذي أطلقه اليونان على فرقة الدراويش، وأمثال ذلك[٢٢].

وهو يجادل المسلمين بعنف يدل على مبلغ الحقد الذي كان قد ظهر بين النصارى في ذلك العهد على الإسلام، والكراهية الشديدة له التي ولدتها الحروب بين الروم والمسلمين وبين النصرانية

(٢١) Bilderstreit, S. 136, Gutterbock, der Islam im lichte der Byzantinische Polemik, 1915, S. 15.

(٢٢) حضارة الإسلام، (ص ٦٨).

والإسلام. ويظهر من قوله في رده على المسلمين «لقد قرأت كل كتبكم واكتشفت كل شيء بنفسي» إنه كان قد اطلع على موارد إسلامية. ولعله كان قد قرأ ترجمة من ترجمات ذلك العهد للقرآن الكريم.

هذا ويظهر أن الفتوحات الإسلامية، وانتشار الإسلام، قد أثارا الخوف في نفوس الروم. وجعلا حكامهم يأمرون بتأليف الكتب في الرد على الإسلام. ويشجعون من يؤلف في ذلك. فأمر القيصر المدعو «باسيليوس Basileios» المتوفى سنة (٨٨٦م)، أحد الكُتّاب المدعو «نيكتاس Niketas» تأليف كتاب في الردّ على المسلمين. وقد تعرض هذا الكتاب لعقيدة الثالوث، وتحدث عنها طويلاً محاولاً البرهنة على صحتها، وقارن بين آراء النصارى وما يقابلها في القرآن الكريم. وتدل ترجمته للآيات، على علم بالإسلام، وإحاطة بالقرآن، فهو لم يخطئ في الترجمة إلا قليلاً.

وللمؤلف رسالتان تحملان اسم القيصر «ميخائيل الثالث Michael III» في الرد على أحد المسلمين «Agarene»[٢٣].

وقد استمرت حركة الرد على المسلمين زمناً طويلاً عند الروم، وساهم فيها قيصر من قياصرتهم، هو القيصر الراهب: «Johannes Kantakuzenos» المتوفى سنة ١٣٨٣م، وساهم فيها أناس آخرون يطول الحديث عنهم. ونحن لا يهمنا من كلامهم غير ما يفيدنا من ناحية ما فيه من جديد يتصل بتواريخ العرب والإسلام، وعلاقة الروم بالمسلمين. وفي أسماء من ذكرنا الكفاية، ولمن أراد المزيد أن

---

(٢٣) Bilderstreit, S. 138.

يراجع الكتب المؤلفة في الجدل والمناظرات مع المسلمين[٢٤].

وقد عاش كثير ممن ذكرت من المؤرخين النصارى ومن رجال دينهم في بيئة إسلامية، أو بيئة كانت فيها جماعة من المسلمين، وكان في إمكانهم الرجوع إلى المسلمين للاستفسار منهم عن الإسلام وعن سيرة الرسول، ولكنهم لم يفعلوا في الغالب إما عمداً وإما جهلاً، وقد اعترف بعضهم بسذاجة علمهم بالإسلام، وبعدم وقوفهم على موارد دقيقة عنه، إلا أنهم لم يحاولوا مع ذلك تصحيح علمهم وتحقيق تلك المعارف التي أخذوها من الموارد النصرانية عن الإسلام[٢٥].

ولم يكن من الممكن في ذلك العهد وفي بيئة كتلك البيئة قيام رجل بتأليف علمي صحيح عن الإسلام، أو تصحيح أغلاط الكُتّاب النصارى ومفترياتهم عنه، إذ كان مثل هذا العمل بمثابة دفاع عن الإسلام وتحد للكنيسة، ومعارضة صريحة لسياسة الحكومات، وهو عمل يعاقب عليه الإنسان عقاباً صارماً، عقاب من يتهم بمحاولة تحدي الحكومات أو إحداث انقلاب ثوري في نظام حكم دكتاتوري. ثم إن هذا العمل هو ضد الإيمان، ومعظم الكُتَّاب بحكم معيشتهم في مجتمع للكنيسة عليه سلطان ونفوذ، وبحكم نفوذ الإيمان المسيطر عليهم، مضطرون إلى مجاراة الوضع، وإلى مداراة السلطات، وإلا عرضوا حياتهم للخطر، ثم أن بعضهم كانوا يرون

---

(٢٤) Bilderstreit und ARABERSTURM In Byzantz, Das 8 Jahrhundert «717-813» aus der Weltchronik des Theophanes, ubersatz Eingeleitet und erklart: von Leopold Breyer, graz 1957.

(٢٥) حضارة الإسلام، (ص ٦٩).

في تفنيد الإسلام والافتراء عليه وأخذ كل ما يقال عنه من سوء ثواباً يثاب الإنسان عليه، وأجراً يتقربون به إلى الله، يرفعهم إلى السماء، وتقديراً عظيماً ينالهم من الكنيسة والمجتمع، يضعهم في مصاف الممتازين الموهوبين وعباقرة الكُتّاب والعلماء.

هذا، ولا بد لي هنا من وجوب التنبيه على ضرورة مناقشة الحوادث التأريخية وسيرة الرسول في ضوء القرآن. ومعنى هذا وجوب الرجوع إلى كتب التفسير وكتب أسباب النزول في ضبط الحوادث الواردة في كتب السير والتأريخ. ونحن إن فعلنا ذلك، فإننا سنصون أنفسنا كثيراً ولا شك من الوقوع في مغالط تسربت إلى أصحاب السير وكتب التأريخ من جراء رواياتهم كل ما قيل من روايات وأخبار، وتدوينهم له دون مناقشة وتطبيق ومقارنة، بما ذكره علماء التفسير أو الحديث وما أوردوه هم وغيرهم من أسباب وأخبار في نزول آي القرآن الكريم. ولهذا لا بدَّ لنا من أن نرجع اليوم إلى هذه الموارد لسد الثلم وتلافي الأخطاء الواقعة في المراجع الأخرى، ليكون بحثنا في هذا التأريخ قريباً من الواقع بقدر الاستطاعة.

وبعد، فإن طريقتي في هذا الكتاب هي طريقتي نفسها التي اتبعتها في تأريخ العرب قبل الإسلام: رسم الماضي كما رسخ في ذهني، واستقر في فهمي، وثبت في فكري، مع تقريب وتوضيح له جهد الإمكان من غير زيادة عليه أو نقصان منه. وتجنّب شديد من إبداء الآراء الشخصية أو إعطاء الأحكام، فالتأريخ في رأيي رسم الماضي وتشخيصه وعرضه من غير تحزب أو تعصب، أو إبداء رأي وحكم، تاركاً أمر الأحكام إلى القُراء، يكوّنون آراءهم كما يرون

ويشتهون، وعلى هذا النحو الذي توصل إليه اجتهادهم من قراءتهم للموضوع.

فأنا في هذا الكتاب مصور وحسب، أحاول تقديم صورة صافية نقية لتأريخ الإسلام. لا أريد إدخال شيء غريب عليها، ولا أريد انتقاص شيء منها. ثم إن هذه الصورة التي أريد عرضها للناس هي صورة الإسلام في أيامه الأولى، في أيام الرسول، أي في أيام صفائه ونقائه، وقبل دخول مواد زائدة عليه، كدرت صفاءه، وجعلت فيه ما ليس منه.

وأكره شيء عندي أن ينصب المؤرخ نفسه قاضياً يقضي في الحوادث الماضية؛ يعطي الأحكام، ويبت فيها ويقول كلمته في الماضين، وهو يعلم أن التأريخ لا يستند إلى بديهيات مسلم بها، ولا إلى أرقام لا يمكن أن يجادل عليها. وأن الحادث ليقع في الحاضر ثم نرى الناس مذاهب في تفسيره وفي وصفه وقصه. فإذا كان هذا شأن الحاضر، فكيف يكون شأن الماضين إذن؟

ومن هذا القبيل قياس الماضي على الحاضر، والحكم على الماضي بناء عليه، ونقد الماضي ومؤاخذته وفقاً لمقاييس القرن العشرين ومفاهيمه، أو القرن الذي يكون فيه الناقد. وقد قرأنا أحكاماً عديدة من هذا القبيل صدرت في أمور من تأريخ الإسلام، تدل على أن أصحابها حكموا بدون فقه لروح الزمن الذي وقع فيه الحادث، وأفتوا دون علم بالأسباب الموجبة وبأحوال الزمن يومئذ، فكانوا في أحكامهم جد مخطئين.

ولا يصح في نظري اتخاذ الحاضر مقياساً للماضي، ومرآة صافية له. فالحاضر مهما قيل في مشابهته وفي مماثلته للماضي، لن

يكون صورة طبق الأصل له. ومن هنا يخطئ حكم من يحكم على الإسلام قياساً على حالة المسلمين ومظاهرهم في القرن العشرين. فبين الذين يزاوله المسلمون ويمارسونه في الزمن الحاضر، ما لا يتفق والإسلام الصرف الخالص في عهد الرسول، ويتعارض صراحة مع القرآن. وفيه ما لم يكن معروفاً ولا موجوداً في صدر الإسلام.

ومن رأيي أن يكون المؤرخ كالمصور، يحاول جهد إمكانه وقدر طاقته وعلمه وصف الشيء الذي يريد أن يحكيه ويدونه وصفاً صادقاً مستمداً من المنابع والموارد الأساسية، وأن يبذل أقصى ما لديه من جهد للوصول إلى كنه الحادث الذي يبحث فيه، وأن يصل إلى روحه وسببه بأن يجعل نفسه كأنه واحد من حضوره وشهوده ومن رجاله. وعندئذ يحكي ما وصل جده وإدراكه إليه وما استنتجه لبّه منه.

ويكون ذلك في تأريخ الإسلام بأن يفهم المؤرخ الحادث من منابعه ومجاريه، وأن يتقصاه ويفهم روحه من فهم الإسلام له، وأن يسعى جهد إمكانه للإحاطة بجميع أسبابه وما ورد عنه، وألا يكتفي برواية واحدة وبخبر واحد، بل عليه أن يتقصى الأخبار، وأن يبحث عن كل شيء في الخبر يرى أنه سيوصله إلى نتيجة أو إلى خبر آخر أو أخبار أخرى، وأن يناقش ويفهم ظروف صاحب الخبر ومذهبه وهواه، والعصر الذي عاش فيه، وإمكانية وقوع ذاك الخبر في مثل ذلك العهد. ثم يحكي ما حصل عليه على أنه لسان معبّر عن الحادث لا مساهم فيه ومشارك أو خصم وصاحب رأي وفكرة، استقرت في رأسه، فهو يريد أن يجد من الأسباب ما يؤيدها ويقويها ليقولها للناس.

ومن هنا نجد بعض المؤرخين والكُتّاب يرسمون القصد في أدمغتهم ويضعون الأهداف في رؤوسهم قبل الشروع في الكتابة. فإذا كتبوا عمدوا إلى ما يروقهم من خبر أو أخبار، وما يلائم قصدهم من رواية أو روايات، واستندوا إليه، وبنوا حكمهم على ذلك، وقالوا إن الإسلام كيت وكيت، وأن في صلبه هذه الفكرة، أو تلك، وإنه مع هذا المذهب وضد ذاك، وإنه تنبأ بهذا الرأي وقال به. وكلام كهذا مهما قِيل في أغراضه وأهدافه وفي طريقة بحثه، هو في نظري توجيه ودعاية، يراد منه هدف خاص، لا بحث علمي غايته البحث في تأريخ الإسلام حسب.

وقد ظهرت في هذه الأيام عشرات من الكتب في تأريخ الإسلام، حاول كل مؤلف من هؤلاء صبغ الإسلام بالصبغة التي يريدها ويحملها ويعتقد بها، مستشهداً بذلك بخبر أو بأخبار، مفسراً إياها، وشارحاً لها على وفق رغبته وهواه. والإسلام في نظري بعيد كل البعد عن هذه الآراء الغريبة، إنه يعالج الأمور والمشكلات بنظرته الخاصة إلى الحياة. وقد التجأ أصحاب هذه الكتب إلى الخبر الضعيف والأخبار المردودة في إثبات أن ذلك مما ورد في الموضوع الفلاني وفي الموضوع الفلاني، والواجب في مثل هذه الأحوال الإحاطة بالخبر من جميع وجوهه قبل الاستشهاد به. ومن هذا القبيل في نظري تفسير القرآن بالأهواء، أعني ما يطلقون عليه «الطريقة العصرية» للموافقة بينه وبين العلم الحديث. كأن يأتي الشارح والمفسر أو المؤلف برأي أو بآراء من آراء العلماء «الفيزيائيين» أو الكيميائيين» أو غيرهم، ثم يأتي بآية أو حديث فيفسرهما تفسيراً موافقاً لآراء العلماء، وهو في الواقع سخف وهراء، يعرض الإسلام

للنقد والجدل. وهذه الآراء العلمية مهما قيل فيها قابلة في كل وقت للتبدل والتغيير، ومعنى هذا أننا سنضطر تبعاً لذلك إلى تغيير تفسير الآية أو الآيات وتبديلها على وفق ذلك، ثم إن القرآن كتاب إلّهي، نزل هادياً ونذيراً، ولم ينزل ليعلم الناس الكيمياء والفيزياء والطب وما إلى ذلك من علوم.

هذا، ولا يزال المؤرخ يلاقي صعوبات جمة في أثناء تدوينه تأريخ الإسلام من ناحية الاستفادة من الموارد والاستعانة بها في تدوين هذا التأريخ، فعلى المؤرخ أن يقرأ كتباً ضخمة مؤلفة من أجزاء عديدة طبعت طبعاً سقيماً في الغالب، للعثور على مادة تفيده في تدوين ما يحتاج إليه، وذلك لعدم وجود فهارس منظمة للكتاب تساعده في وصوله إلى غايته ومراده بسهولة ويسر. وقد طبعت أكثر الكتب الأمهات ويا للأسف طبعاً سقيماً خالياً من التحقيق والضبط والفهارس، جعلت أكثر المؤرخين يحجمون عن الإقدام عليها، ويتهيبون قراءتها، فاكتفوا بهذا المطبوع السهل المتداول، والموارد التأريخية المعروفة، وطريقة مثل هذه لا يمكن أن تأتي للقارئ بالطبع بشيء جديد.

ثم إن أكثر المطبوع ما زال مادة خاماً، لم تمسه أيدي النقاد، ولم تتناوله أقلام النقلة المتعمقين، فهو ينتظر المتخصصين الثقات ليقوموا بغربلة هذا الكثير الوارد فيه. وتصنيف هذه المادة الغزيرة المكونة له. وإذا تم هذا العمل، سهل على المؤرخ عندئذ عمله، وصار في إمكانه الاعتماد على المراجع بثقة واطمئنان. ومن تكوين رأي يطمأن إليه ويوثق به.

وما يرد في الكتب التأريخية هو في حكم الحقائق في نظر بعض

الناس، في حكم الأعداد مثلاً في الرياضيات، فكما أن الأعداد هي حقيقة مسلم بها، كذلك الروايات والأخبار هي حقائق لا يرتقي إليها الشك، لا سيما إذا ما دعّمت بسند الرجال، وكانت مما ورد في الكتب المعتبرة المشهورة. وخبر واحد من هذه الأخبار يكون سنداً لدى هؤلاء يبنون حكماً عليه. ومثل هؤلاء وإن لم يكونوا من المؤرخين بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من التأريخ هم كتبة على كل حال ومن الكاتبين في التأريخ والقارئين له. أحكامهم مستمدة من العاطفة، بعيدة عن العلم والعقل. إنهم يقدمون الرواية على الدراية، والحفظ على المناقشة بالمنطق. ومثل هؤلاء لعمري لا يناقشون ولا يجادلون.

ويلاحظ أن الموارد المتأخرة قد جاءت بأخبار لم ترد في الموارد القديمة، إضافتها إلى ما أخذته من الموارد المتقدمة، وفي أكثر الذي أضافته إغراب وقصص من هذا النوع الذي يسميه العلماء الإسرائيليات، أو القصص الإسرائيلي، حشر حشراً، وروي عن نية طيبة من أولئك الكُتّاب، وهو بيِّن واضح يمكن معرفته وكشفه من قراءته لعدم ملاءمة طبعه مع روح الإسلام وأحكام القرآن وما ورد فيه عن الرسول.

وفي معظم الروايات التي يتصل سندها بكعب الأحبار، أو محمد بن كعب القرظي أو النعمان السبائي وهم من مسلمة يهود[٢٦] أو غيرهم من مسلمة أهل الكتاب طابع القصص الإسرائيلي، وفي غالبه دس على الرسول وعلى الإسلام كما في قصة الغرانيق وفي

---

(٢٦) السيرة الحلبية، (١/ ٢٥٠).

أمور أخرى سأتحدث عنها في الأماكن المناسبة من هذا الكتاب. ويظهر من دراسة هذا النوع من القصص أن أصحابه كانوا يريدون من روايته ونشره وإدخاله بين المسلمين أمراً، وإن قلوبهم لم تكن مسلمة كألسنتهم، وإنهم كذبوا على التوراة والإنجيل أحياناً وذلك على سبيل التودد إلى المسلمين والتقرّب إليهم على ما يبدو.

وقد ربط ووصل سند أكثر القصص الإسرائيلي بابن عباس. وهذا الربط يجب أن يكون موضع دراسة خاصة. فما الذي ربط بين هذا القصص وابن عباس؟ وهل كان ابن عباس راوية حقاً لهذا القصص الإسرائيلي؟ ومن أين جاء به؟ وهل كان ابن عباس من القارئين للعبرانية وللسريانية ولكتب اليهود والنصارى؟ والغريب أننا نجد في معظم الأحيان أن رواة هذا القصص الذين ذكروا أنهم سمعوه من فم ابن عباس، وأنهم أخذوه منه، هم من مسلمة يهود، فهل يعقل أخذ هؤلاء قصصهم من ابن عباس؟ إن المعقول أن يكون العكس هو الصحيح. وأنا لا أريد أن أعالج هنا هذه الناحية من البحث. فالمعالجة هنا معناها الخروج عن الموضوع، والدخول في بحث آخر متشعب طويل لا علاقة له بهذا الكتاب في هذا المكان. ولكني سأتحدث على كل حال عن هذه المشكلة في أثناء كلامي على القصص الإسرائيلي وعلى ابن عباس.

ويلاحظ أن معظم هذا القصص المتقدم هو مما يرد في الكتب المتأخرة، أما الكتب الواصلة إلينا من أول عهد المسلمين بالتدوين، فقد كانت تتحاشاه في الغالب، ولا تميل إليه، ولا إلى الخوارق والمعاجز. وهو قصص مخالف لما جاء في القرآن الكريم عن الرسول ولحديث الرسول ولروح الإسلام، ولهذا وُجب أن يكون

اعتماد المؤرخ على هذه الموارد المتقدمة المحترمة في نظر النقاد من أمثال كتب الصحاح في الحديث وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتأريخ الطبري. وسندنا الأول بالطبع ومرشدنا قبل كل هذه هو القرآن.

قال الإمام مالك عن محمد بن إسحاق صاحب السيرة الشهير: «هذا دجال من الدجاجلة، يروي عن اليهود». وقد قدح فيه مالك، لأنه كان ينكر عليه تتبعه غزوات النبي من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وقريظة والنضير وما أشبه ذلك من الغرائب عن أسلافهم. وكان ابن إسحاق يتتبع ذلك عنهم، ليعلم ذلك من غير أن يحتج بهم. وكان مالك لا يرى الرواية إلا عن متقن صدوق[٢٧]. وإذا كان مالك وأمثاله قد أخذوا ابن إسحاق على أخذه أخبار غزوات النبي لخيبر وقريظة، فماذا يجب أن يكون موقف المؤرخ من هذا القصص الإسرائيلي البحت الذي أدخله في السيرة أناس قضوا معظم حياتهم أو بعض حياتهم وهم على دين يهود؟

وعلى المؤرخ إجمالاً أن يكون حذراً جداً تجاه هذا القصص الإسرائيلي خاصة، وتجاه الأخبار المتأخرة التي لا نجد لها أثراً في الموارد القديمة. فلا يرد معينها إلا بحذر، وإلا بعد فحص وتدقيق ونقد. وعليه أن يلاحظ دائماً أن المؤرخين والأخباريين المتأخرين، لم يكونوا على شاكلة قدماء المؤرخين وأوائلهم في التشدد في قبول الأخبار وروايتها وإدخالها في مؤلفاتهم. وعلى المؤرخ أن يكون يقظاً نشطاً متوقد الذهن، فلا يقبل من الأخبار والروايات إلا ما

---

(٢٧) عيون الأثر، (١/ ١٧).

يتلاءم مع روح القرآن الكريم وأحاديث الرسول وما هو من أمر الإسلام من نبذ الأساطير والقصص والخرافات. فإذا فعل ذلك جنّب نفسه الأغاليط والمزالق التي وقع فيها نفر من المستشرقين ومن المؤرخين الإسلاميين من قبلهم بقبولهم كل خبر سمعوه من غير نقد ولا فحص وتمحيص.

وستزعج هذه الطريقة خلقاً من الناس، لم يتعودوا فهم السيرة النبوية إلا من التفسير الإسرائيلي والسير المحشوة بالقصص والخوارق، حتى غلب عندهم على التأريخ. وليس لهؤلاء من جواب إلا إحالتهم على القرآن الكريم، ففيه جوابهم. ولو كانت رسالة الرسول قصصاً وخوارق على نمط قصص بني إسرائيل، لجاء ذلك في كتاب الله. وقد نزل الوحي بتأنيب قريش حينما ألحّوا على الرسول وأسرفوا في إلحاحهم بمطالبته بالمعجزات، على نمط يهود وبِوحي وتعليم من يهود. وأنّب اليهود والنصارى لإضافتهم إلى أنبيائهم أشياء لا تصح نسبتها في دين الإسلام إلا إلى الله.

وبعد، فأنا لا أريد أن أطيل على القارئ فأجرّه إلى حديث طويل عن كيفية كتابة السيرة وعن مواردها وأمثال ذلك، لأن ذلك يخرجنا عن صلب الموضوع، وسيدفعنا إلى الدخول في صلب عمل المؤرخ في طريقة تدوينه للتاريخ، وهو خارج نطاق عملنا وواجبنا في هذا الكتاب. ولهذا أنتقل إلى السيرة رأساً، فأبحث فيها فصلاً فصلاً، وسأتعرض في أثناء ذلك حتماً لكثير من الأمور التي أشرت إليها إشارة موجزة في هذا الفصل.

الفصل الثاني

مكة المكرمة

لا بدَّ لنا لفهم سيرة الرسول وتأريخ الإسلام من التحدث عن مكة، ومن التعرض لأحوال سكانها وحالة الناس فيها في ذلك الزمن: زمن ميلاد الرسول، وإلا كان بحثنا بحثاً ناقصاً عاجزاً عن تفسير كثير من الأمور التي نجدها في الإسلام.

ولسنا نملك مرجعاً نرجع إليه للوقوف على أحوال مكة في هذا العهد إلا القرآن الكريم والحديث وكتب التفسير والسير. أما موارد كتابية ونصوص مدوّنة من أيام الرسول، فلم يصل منها إلينا شيء حتى الآن. وأما ما قبل ذلك، فلم يرد فيها عن مكة شيء. لم يرد منها أي شيء عثر عليه في الحجاز ولم يرد عنها أي خبر في المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى. ولهذا لا نعرف من شأن مكة شيئاً ورد في نصوص مكتوبة في أيام الجاهليين. أما اليونان واللاتين والسريان وغيرهم. فلم يشيروا إلى اسم موضع اسمه قريب من اسم مكة إلا «بطليموس Ptolemy»، وهو من علماء الفلك والجغرافيا في القرن الثاني للميلاد، فقد أشار، إلى اسم مدينة دعاها «Macoraba» ذكرها بعد موضع دعاه «Carna»، وهو مكان ذكره بعد «Iathrippa» «Lathrippa» وقبل موضع «Thumata». وقد ذهب

الباحثون في أسماء هذه المواضع إلى أن مراد «بطليموس» من «Macoraba» مدينة (مكة). كما شرحت ذلك مفصلاً في الفصل السادس من الجزء الثالث من كتابي (تأريخ العرب قبل الإسلام) في الكلام على العرب وبطليموس[1].

أما ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن المعبد الشهير الذي ذكره «ديودورس الصقلي» «Diodorus»، في أرض قبيلة عربية دعاها «Bizomeni»[2]، وقال إنه مكان مقدّس له حرمة وشهرة بين جميع العرب، هو مكة[3]، فهو رأي لا يستند إلى دليل مقبول معقول. فالموضع الذي يقع المعبد فيه هو موضع بعيد عن مكة بعداً كبيراً، وهو يقع في «حسمى» في المكان المسمى «روافة» و«غوافة» على رأي «موسل»[4]. وقد كانت في هذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار إليها الكتبة اليونان والرومان، ولا تزال آثارها باقية، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأمكنة والبقاع[5].

وإذا صحّ رأينا في أن موضع (Macoraba) هو مكة، دل ذلك على أنها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد، وأنها كانت مدينة مقدسة يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر

---

(١) ص ٣٥٣ وما بعدها.

(٢) C. H. Oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, Book III, XXXI, Booth, The Historical Library of Diodorus the Sicilian, p. 105.

(٣) Gerald de Gury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 12.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام (٣/ ٣٥٣).

(٥) المصدر نفسه.

ومن بادين. وبفضل هذه القدسية والمكانة بلغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد، ودلّ أيضاً على أنها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام (بطليموس) إذ لا يعقل أن يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع العالم الساكن في موضع بعيد، ما لم يكن لها عهد سابق لهذا العهد.

ولفظة (مكربة Macoraba)، لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب. وقد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة سبأ القديمة، أن حكامها كانوا كهاناً، أي رجال دين، حكموا الناس باسم آلهتهم. وقد كان الواحد منهم يلقب نفسه بلقب (مكرب) أي (مقرب) في لهجتنا. فهو أقرب الناس إلى الآلهة، وهو مقرب الناس إلى آلهتهم، وهو مقدس لنطقه باسم الآلهة، وفي هذا المعنى جاء لفظه (مكربة)، لأنها مقربة من الآلهة، وهي تقرّب الناس إليهم، وهي أيضاً مقدسة و(حرام). فاللفظة ليست علماً لمكة، وإنما هي نعت لها، كما في (بيت المقدس) و(القدس) إذ هي نعت لها في الأصل، ثم صارت علماً للمدينة عندنا.

ونحن لا يعنينا هنا من تأريخ مكة إلا ما كان له صلة بتأريخ الإسلام وبالأيام التي وُلِد فيها الرسول، أما ما قبل ذلك فليس له شأن في هذا المكان. ولهذا سنطوي الحديث عنه آسفين ولمن يريد العلم به أن يرجع إلى الكتب الأخرى، فقد تكون فيها فائدة للمستزيد.

وقد ورد اسم مكة في القرآن الكريم، ورد بالصورة التي نعرفها[٦] وورد بصورة أخرى لا تختلف عن الأولى إلا في حرف

---

(٦) الفتح: ٢٤.

واحد، هو الميم، وهو الحرف الأول من الاسم، فحلت الباء في هذه التسمية محل الميم المثبتة في التسمية الأولى، فوردت (بكة) في موضع مكة[٧]، وهما في الواقع تسمية واحدة، وليس هذا الاختلاف اختلافاً بالمعنى المفهوم، وإنما هو لهجة من لهجات القبائل، تضع الباء في مكان الميم، فتنطق بالباء بدلاً من الميم. وفي لهجات العرب أمثلة عديدة من هذا القبيل، وبينها لهجات العرب الجنوبيين. وهي لهجات نعرفها في الزمن الحاضر، ونجدها في مختلف الأماكن من الوطن العربي.

وقد دعيت مكة بـ (أم القُرى) في القرآن الكريم[٨]. ودعيت (قرية) كذلك[٩]. وقورنت بها (الطائف) في سورة الزخرف: **﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**[١٠]. وقد ذهب علماء التفسير إلى أن المراد بالقريتين: مكة والطائف.

وقد كان أهل مكة عند ظهور الإسلام يرجعون نسبهم إلى قريش. ومعنى هذا أن غالبية أهلها كانت على هذا النسب حين تنتسب، جرياً على عرف الناس في ذلك العهد في رجع نسبهم إلى جد أعلى يفتخرون ويتباهون به. يتساوى في ذلك أهل الوبر وأهل المدر. فأمر مكة إذن في أيدي قريش في القرن السادس للميلاد، أخذته من جماعة كانت هي المسيطرة عليها قبلها تدعى «خزاعة»، والذي مكّن قريشاً من خزاعة وسلّمها مكة، هو زعيم من زعمائها

---

(٧) آل عمران ٩٦؛ نشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم «ليدن ١٩٥١»، الجزء الأول القسم الأول (ص ١١٧).

(٨) الشورى، الآية ٧.

(٩) سورة محمد، الآية ١٣.

(١٠) الزخرف، الآية ٣١.

عرف بالكياسة والسياسة والحذر، هو «قصي». وكان قصي زعيماً وتاجراً، جمع مالاً كثيراً، وولّى عنايته «البيت الحرام» وثبت حكم قريش في المدينة حتى صار لقومه نفوذ على سائر القبائل، فقصي هو إذن هو أول من أقام ملك قريش في مكة.

وإذا صحّ نقل «مينكانا A. Mingana» ما ذكره اللاهوتي السرياني «نرسي Narsai» المتوفى سنة ٤٨٥ للميلاد، عن غزو قام به «أبناء هاجر» «على بيت عربابة»، فإن ذلك يكون أول خبر يرد في كتاب قديم عن (قريش)، ولذلك أهمية تأريخية خاصة، لأنه يشير إلى وجود قريش في شمال جزيرة العرب في القرن الخامس قبل الميلاد داخلة ضمن القبائل العربية الشمالية المعروفة يومئذ عند السريان باسم (أبناء هاجر) وبـ (الإشماعيليين). وهذا خبر لم نكن نعرفه من قبل. ذكر نرسي أن هذا الغزو كان عنيفاً قاسياً، وإنه كان في شدته وهوله أقسى من فتك الحيوانات الضارية بالإنسان. وقد ترك ألماً شديداً وخسائر كبيرة في أهل تلك المنطقة. وذكر أن أشد أولئك المهاجمين الهاجريين في القسوة والغلظة هم: قريس[١١].

وهذه الإشارة تتفق مع روايات الأخباريين وأهل الأنساب من إرجاع نسب قريش إلى إسماعيل. وهي تدل على أن قريشاً كانوا بدواً رحلاً في القرن الخامس للميلاد، وأنهم كانوا يعيشون في بادية الشآم مع قبائل أخرى تتنقل في البادية الفسيحة الواسعة بين حدود الروم والساسانيين.

---

(١١) A. Mingana and A. S. Lewis, Leaves from three Ancient Qurans, Cambridge, 1914, P. XIII, A. Mingana, Narsai Homiliae et Carmina 1905, Vol. I, p. 115.

وقد يفيد هذا الخبر في الربط بين تحرّك قريش وتنقلها في البادية في هذا العهد وبين سكنها واستقرارها فيما بعد في مكة، وأخذها السلطة من خزاعة في أيام سيدها ورئيسها (قصي).

وإذا صح ما قاله أهل الأخبار عن خزاعة وقصي وعن استئثار قريش بمكة، فإن ذلك يعني أن قصياً لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، وأن قريشاً أثرت وربحت وتزعمت في وقت لم يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول، وأن قصياً كان أبرز وأول زعيم فيها، ولم يذكر الأخباريون زعيماً من قريش قام بمثل الأعمال التي نسبوها إلى قصي.

وقصي من الأسماء الواردة في الكتابات العربية الشمالية. وقد ورد في بعض الكتابات أن كاهناً اسمه: (ملكو بن قصيو) (مالك بن قصي) أقام معبداً في منطقة (حوران)، وذلك في سنة (٤٧) للميلاد. وورد اسم (روحو بن قصيو) (روح بن قصي)، وقد أقام معبداً لعبادة (اللات) في (صلخد) كما ورد في بعض الكتابات الصفوية[١٢].

والطريف أن قصياً المذكور في هذه النصوص النبطية، وكذلك أبناؤه وحفدته، كانوا رجال دين مثل قصي قريش. فكانوا سدنة (للات)، أقاموا لها معبداً؛ وشيدوا لها بيتاً. واللات من الآلهة العربية الشمالية، وقد عرفت عبادتها في أعالي الحجاز وبين عرب بلاد الشام منذ عهد طويل قبل الإسلام. ولعلها زحفت من هذه المنطقة إلى الجنوب، فدخلت أواسط الحجاز وجنوبها حتى صارت

---

(١٢) العرب في سورية قبل الإسلام؛ تأليف رنيه ديسو (ص ١١٥ وما بعدها)؛
Cis, II, 170, 174 182, Ency, II, p. 1159.

من أهم الأصنام المعبودة في مكة وفي الطائف قبل ظهور الإسلام.

وورد في نص شمالي آخر اسم رجل يُقال له (قصي تعجلت) (تعجلة) بن كعمت (قعمة) بن ربو بن أودو بن رديف بن نطرو بن عبدو)، وذلك لإقامته قبراً لزوجه وحبيبته رحيلت (رحيلة) في سنة ٣٠٨ من التقويم النبطي(١٣). وورد اسم رجل آخر يُقال له (قصي بن سودي) في نص آخر من النصوص النبطية(١٤).

ويلاحظ أيضاً أن أسماء أهل مكة والحجاز هي أسماء ترد بكثرة في النصوص العربية الشمالية: النبطية، والثمودية، والصفوية، واللحيانية. أما النصوص العربية الجنوبية، لا سيما النصوص القديمة منها، فهي قليلة الورود فيها. فعبد الله ومحمد وعبد مناف وعبد اللات وقصي وهاشم وكلب وعمرو وأمثالها، هي من الأسماء التي ترد في النصوص العربية الشمالية، بينما لا نكاد نجد لها أثراً في نصوص المسند، وعدم ورودها بكثرة في هذه الكتابات، يحملنا أيضاً على تأييد رأينا في هذا الاتصال الثقافي الذي جمع شمل أهل الحجاز بالعرب الشماليين.

وقد وردت لفظة (قريش) اسماً لرجل عُرف بـ (حبسل قريش)، وذلك في نص حضرمي من أيام الملك (العز) ملك حضرموت(١٥).

ويلاحظ أن أسماء معظم الأصنام التي كانت في مكة وفي الطائف وأماكن أخرى من الحجاز عند ظهور الإسلام، هي أسماء

---

(١٣) Rep. Epi., IV, P. 181, Num. 805, Littmann, Semiti. Inscrip., P. 90, Lidzbarski, Ephem., II, 258.

(١٤) Rep. Epi., IV, p. 55, Num: 2117.

(١٥) Rep. Epi., VII, III, p. 323, Number: 4693.

أصنام معروفة معبودة قبل الإسلام، بل قبل الميلاد عند العرب الشماليين، أي العرب الساكنين في العراق وبادية الشام وأعالي نجد وبلاد الشام. وفي هذا التوافق دلالة صريحة على الروابط الروحية بين عرب الحجاز وعرب بلاد الشام والعراق، وعلى أن صلة أهل الحجاز بالعرب الشماليين كانت أقوى وأمتن منها بالعرب الجنوبيين الذين كانت لهم ثقافة خاصة بهم، لا سيما في الأيام البعيدة عن الإسلام، ميزتهم عن العرب الشماليين وعن عرب نجد والحجاز.

لم يكن قصي رجل سياسة وزعامة وحسب، بل كان رجل دين كذلك، ينسب إليه أهل الأخبار جملة أشياء زعموا أنه شرّعها لقريش، فاتبعتها، وصارت من سنن أهل مكة ومذاهبها في الدين[١٦]. وقد سبق «قصياً» جملة رؤساء جمعوا مثله بين سياسة الدين وسياسة الدنيا، وكانت لهم بذلك زعامتان. وقد ذكر أهل الأخبار لبعضهم أثراً في الوثنية، باستحداثهم أصناماً جديدة ابتدعوها أو جلبوها من الخارج من أسواق بلاد الشام خاصة، لوجود التماثيل الجميلة المصنوعة من المرمر فيها، بعضها من صنع تلك البلاد، وبعض آخر مستورد من بلاد الروم أو من إيطاليا. وقد كان رؤساء مكة يذهبون إلى بلاد الشام للتجارة أو للاستجمام فتقع أعينهم على هذه التحف، فيجلبون منها إلى مكة، يضعونها في البيت، ويزيدون بذلك في عدد الأصنام، حتى بلغت (٣٦٠) صنماً عند البعثة على ما يذكره أهل الأخبار.

وقصي في تأريخ مكة، مثل «تيزيه Thesee»، أو «رومولوس»

---

(١٦) وكان أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه. ولما مات دفن بالحجون. فكانوا يزورون قبره ويعظمونه. البلاذري (١/ ٥٢).

وأضرابهما ممن أثروا تأثيراً خطيراً في حياة بعض المدن القديمة، فارتبطت أسماؤهم بأسماء تلك المدن، واحتلت قصصهم مكاناً بارزاً في الأساطير المروية عنها[١٧]. ومن يقرأ أخبار مكة، يرَ أن اسم قصي قد غطى أسماء من سبقوه، حتى ليكاد تأريخ هذه المدينة القديمة التي سبقت قصياً في الوجود، يبتدئ به.

وقد شك بعض المستشرقين في شخصية قصي، فذهبوا إلى أنها أسطورة من الأساطير التي ابتدعتها مخيلة أهل الأخبار وأساطير أهل الأخبار في نظرهم كثيرة عديدة. ولكننا لو دققنا ما روي عنه وقيل فيه، لوجدنا أنه لا يدعو إلى الذهاب هذا المذهب، فليس فيه تهويل كثير ولا مبالغات بعيدة، فكل ما ورد عنه وإن جاء بأسلوب أهل الأخبار يدل على أن قصياً كان رجلاً حقاً، سيطر على شؤون مدينته، وأوجد لقريش عشيرته كياناً في مكة وفي جوار مكة، في زمن لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، ولذلك بقي من ذكراه ما علق بذاكرة المعاصرين للرسول، وقد نسي منه شيء، وذلك حينما بلغ أهل الأخبار، الذين قاموا بتسجيله حتى وصل إلينا بهذا الشكل المدوّن المكتوب.

ونجد في تأريخ ومكة وفي تأريخ غير مكة أسماء رجال أقوياء أصحاب شخصيات قوية مثل قصي، فرضت إرادتها على الناس فرضاً، وقامت بأعمال مفيدة، اقتبست بعضها من النظم القائمة في الأمبراطورية الرومية وفي أمبراطورية الساسانيين. ولكنها لم تنظر ويا للأسف إلى الأمور نظرة واسعة شاملة تتجاوز حدود القبيلة وحدود

---

(١٧) هنري ماسيه، الإسلام، ترجمة بهيج شعبان (ص ٤١).

العواطف والمنافع الشخصية، ولم تكن مبنية على دراسة طبيعة المشكلات وعواملها الأساسية، وأسسها البعيدة القديمة، ولم تكن مقرونة بعزم وإرادة وفكرة جماعية عامة تنظر إلى عرب الجزيرة كلها على أنهم أمة واحدة تجمعهم رابطة الجنس والوطن واللغة، ولهذا كان تأثيرها في الغالب وقتياً ومحلياً، ولم نسمع بأمر قام به رجل من أولئك، ونجح فيه كالأمر الذي قام به الرسول.

وتقع مكة في واد ضيّق غير ذي زرع[١٨]. وموقعها هذا لا يستهوي الأفئدة إليه ولا شك، فسفوح الجبال المشرفة المطلة عليها عابسة لا خضرة فيها ولا ثلوج ولا أشجار عالية تكلل هاماتها، وليس فيها شلالات هادرة تتساقط من صخورها، وكل ما فيها يدل على شدة وشظف وقسوة. ولوقوعها في واد، ارتفعت حرارتها في الصيف ارتفاعاً يضايق من لم يعتده، ولم يجلب الناس إليها إلا نشاط أهلها، نشاط قصي وعبد المطلب من بعده في خدمة «الكعبة» والبيت الحرام، وفي خدمة من يقصد هذا البيت الذي ضم عدداً كبيراً من الأصنام، يكاد يجمع شمل أصنام أكثر القبائل يومئذ، حتى صار البيت «بانثيوناً» أو متحفاً أو مخزناً تكدست فيه الأوثان من مختلف الأحجام والمواد، فيها المهذب المهندم المنسّق، وفيها الوثن البدائي، وفيها الصور المستوردة من الخارج المصنوعة في بلاد الشام من أصل نصراني يمثل القديسين والأولياء والأنبياء والملائكة، فتحولت في مكة إلى أوثان معبودة اختص كل واحد منها أو كل مجموعة بقبيلة، إذا جاء أفرادها إلى مكة توجهوا إليها لتحيتها

---

(١٨) ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾، سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

ولمناجاتها، ولاكتساب عطفها ورحمتها، ولتكون لها شفعاء عند الله.

وقد كان عدد أصنام مكة عام الفتح ثلاث مئة وستين صنماً وضعت حول الكعبة مرصصة بالرصاص، وهبل أعظمها، وهو وجاه الكعبة على بابها، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون. عدا الصور العديدة الكثيرة والتماثيل التي كانت تزين بيت الله الحرام. وقد أزيلت الأصنام ومحيت الصور بأمر الرسول في هذا العام[١٩].

ولم تعِ ذاكرة أهل الأخبار شيئاً من تأريخ الوثنية في مكة على وجه صحيح مضبوط. وقد نسب بعضهم إدخال الأوثان وتغيير دين إسماعيل إلى رجل زعموا أنه «ربيعة»، وهو عمرو بن لحي أبو خزاعة، قالوا إنه أول من غيّر دين إسماعيل، ونصب هبل في الكعبة، ودعا العرب إلى عبادة الأصنام، وسيَّب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي[٢٠]. ونسب الأخباريون ذلك إلى أشخاص آخرين، ولم يستمد الأخباريون أخبارهم هذه من أثر قديم جاهلي مكتوب أو من أثر تأريخي مدوّن، وإنما أكثر أخبارهم روايات بنيت على السماع والمشافهات.

ولا نجد ـ ويا للأسف ـ في كتب أهل الأخبار وصفاً دقيقاً واضحاً صحيحاً للبيت الحرام في أيام الجاهليين، بل حتى في أيام الرسول. وخلاصة ما يستخرج منها أن أول من جدّد بناء الكعبة بعد

---

(١٩) إمتاع الأسماع (١/ ٣٨٣ وما بعدها)، جامع الأصول (٩/ ٢٦٦).

(٢٠) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق هرشفيلد، (١٩١٠)، (ص ١١)، أخبار مكة (ص ٧٢، ٤٠٢) «تحقيق وستنفيلد».

إبراهيم هو (قصي)، وأنه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل[٢١]، وأن الكعبة كانت إلى عهد قصي قائمة في فلاة، لا يبني أحد حولها إعظاماً لها. فلما آل إليه أمر مكة، اختط ساحة حولها عدّها حرماً آمناً، علم معالمها، ووضع رواسمها وحدودها، وأباح للناس البناء وراء تلك الحدود ومن ثم انتشر البناء إلى هذه المواضع[٢٢].

وفي وصف هذه الكتب لبيت لله الحرام قبيل الإسلام، وفي أيام الرسول غموض واضطراب أيضاً، وخلاصة ما جاء فيها، أن بنيان الكعبة قبل أن بنتها قريش كان برضماً يابساً ليس بمبدر تنزوه العناق، وتوضع الكسوة على الجدر، ثم تدلى من خارج، وتربط من أعلى الجدر من بطنها. وكان بابها بالأرض، ولم يكن لها سقف. وكان في بطنها عن يمين من دخلها جب، يكون فيه ما يهدي إلى الكعبة من مال وحلية، كهيئة الخزانة. وكانوا قد علقوا قرني كبش في بطنها بالجدر تلقاء من يدخلها، يخلقان ويطيبان إذا طيّب البيت. وكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى إلى الكعبة، أمثال لجم البهم، يدخل الخائف فيها يده، فلا يريبه أحد. وقد أصيبت الكسوة بحريق، فتضعضع البنيان، ثم تأثر بسيل أضر به، فهدمته قريش وأعادت بناءه في أيام الرسول. وقد استعملت الحجارة والخشب فيه، وسقفوه، ورفعوا الباب، وكبسوها حتى لا تدخلها السيول، ولا ترقى إلا بسلّم، وبنوها بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة كما تذكر بعض الموارد، وجعلوا سقف الكعبة مسطحاً وجعلوا فيها ست دعائم في صفين، في كل صف ثلاث دعائم.

---

(٢١) في منزل الوحي، (ص ٢٠٨).

(٢٢) أحمد السباعي، تاريخ مكة (ص ١٤).

وزادت قريش في ارتفاعها فجعلته ثماني عشرة ذراعاً من خارجها من الأرض إلى أعلاه، وكانت قبل ذلك تسع أذرع. وبنوها من أعلاها إلى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب. وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً، والحجارة ستة عشر مدماكاً، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي، يصعد منها إلى ظهرها وزوّقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة، فكانت فيها صورة إبراهيم، شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم وأمه، وصورة الملائكة. وذكر بعض من أدرك الكعبة قبل عام الفتح أنه رأى في البيت تمثال مريم وعيسى مزوقاً في حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً. ورأى في البيت أعمدة ست سوارٍ. وكان تمثال عيسى بن مريم في العمود الذي يلي الباب. وأعادوا إليها هبل وقرني الكبش، وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية وبالوصائل(٢٣).

وفي بعض الروايات ما يفيد أن جدر الكعبة كانت من حجر، وأنها كانت مسقوفة كالذي ذكرته عن تسقيفها في أيام قصي، أي عكس ما ورد في الروايات الأخرى التي ذكرت ملخصها فيما ذكرت.

وقد ورد أن قريشاً كانوا يفتحون البيت في الجاهلية يوم الاثنين والخميس؛ وكان حجابه يجلسون عند بابه، لا يسمحون لأحد بالدخول إليه بحذاء، تعظيماً واحتراماً للكعبة، ويضعون نعالهم تحت

---

(٢٣) أخبار مكة (ص ١٠٤ وما بعدها).

الدرجة. وكان أول من خلع الخف والنعل، فلم يدخلها بهما الوليد بن المغيرة، إعظاماً لها فجرى ذلك سنّة[٢٤].

ولم تذكر كتب الأخبار ـ ويا للأسف ـ أصول تلك الصور، أكانت صوراً مستوردة استوردت من بلاد الشام أو من العراق؟ أم كانت صوراً محلية، نقشها رسامون ومصورون كانوا يسكنون مكة على حائط البيت أو على ألواح علقت على الجدران؟ وربما لا يستبعد أن تكون تلك الصور من مخلفات تلك السفينة اليونانية التي تحطمت عند «الشعيبة» في ساحل الحجاز كما تذكر كتب السير والأخبار، فاشترى أهل مكة بقاياها ونقلوها إلى مكة، كما استعانوا ببعض من كان فيها لمساعدتهم في بناء الكعبة. فقد ورد في بعض الأخبار أن تلك السفينة المنكوبة كانت تحمل صوراً ورخاماً وفسيفساء لاستعمالها في كنائس اليمن. فلعل قسماً منه، وهو القسم الذي خلص من الغرق، نقل إلى مكة، وكان نصيبه وضعه في الكعبة.

وقد أزيلت الأصنام والأوثان وصور الأنبياء والملائكة عام الفتح، أزيلت كلها وطمست معالمها كلها في معظم الروايات الواردة عن عام الفتح، إلا روايات تذكر أن الرسول أمر بثوب، فبلّ بالماء، وأمر بطمس تلك الصور، ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه، وقال: أمحوا جميع الصور، إلا ما تحت يدي. فبقيت صورة عيسى. وروايات أخرى تذكر أن تمثال عيسى ومريم بقي إلى أن هلك في الحريق الذي وقع في أيام ابن الزبير. ورواية تذكر أن امرأة

---

(٢٤) أخبار مكة (ص ١١٨).

من غسّان حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة، قالت: بأبي وأمي! إنك لعربية، فأمر رسول الله أن تُمحى تلك الصور، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم. وروايات أخرى تذكر أن الرسول قد أمر بطمس جميع الصور حتى صورة مريم وعيسى. ولكن الطمس لم يزلِ الصور تماماً، فبقي أثر بعضها، حتى أزيل في زمن الخليفة عمر(٢٥).

ولم يكتفِ أهل مكة بالتقرب إلى أصنام البيت الحرام وأوثانه وحدها، بل وضعوا أصناماً في بيوتهم، تقربوا إليها في الليل والنهار. وقد كان سائر الناس في الحجاز وفي جزيرة العرب يفعلون ذلك، حتى الأعراب كانوا يحملونها معهم، فإذا تنقلوا نقلوها معهم. ولما كان عام الفتح، أمر الرسول أهل مكة بكسر أصنام البيت الحرام وأصنام البيوت. وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم، لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش، إلا مشى إليه حتى يكسره. ولم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم، إما مستورد، وإما من صنع مكة، وكان في مكة رجل يُقال له أبو تجارة، يعمل الأصنام في الجاهلية، ويبيعها. وقد كان أهل مكة يطوفون بها في الأسواق، فيشتريها منهم أهل البدو، فيخرجون بها إلى بيوتهم. وكان صاحب الصنم إذا دخل بيته يمسح الصنم، وإذا خرج يمسحه تبركاً به(٢٦).

وليست بي حاجة، على ما أظن، إلى لفت نظر القارئ إلى هذا التضارب الغريب في عبادة قريش، في هذا التضارب المتمثل في

---

(٢٥) أخبار مكة (ص ١١٠ وما بعدها).

(٢٦) أخبار مكة (ص ٧٨).

وجود هبل والأصنام الأخرى التي ترمز عن الوثنية مع صور الأنبياء والملائكة التي تمثل النصرانية في قاعة واحدة وفي بيت يعد أقدس مكان على وجه الأرض في نظر المكيين الوثنيين يومئذ. في بيت لم يكن إلا غرفة واسعة، جمعت الوثنية والنصرانية في هذا المحل. وليس هذا التناقض في الواقع إلا صفحة من كتاب يجمع متناقضات عديدة نراها في حياة قريش.

لقد كانت وثنية قريش، وثنية متطورة، تقبل كل تطور، ما دام التطور في حدود الوثنية وإطارها. كانت تتقبل كل صنم أو وثن أو تمثال أو صورة، تضمها إلى الأعداد المكدّسة في الكعبة، وتتقرّب إليها لا يهمها أصلها ومصدرها، ما دامت تقدمة وهبة إلى رب البيت، قدمت إليه على أنها شفيعة تقرب أصحابها من ذلك الرب. فعبادة مكة في هذا العهد عبادة شفعاء ووسطاء ومقربين، تتمثل في تماثيل وأصنام وصور وأوثان على نحو ما ذكرت.

وفي جزيرة العرب محجات عديدة أخرى، قصدها الجاهليون للتبرك والتقرّب إلى آلهتها. وقد سبق أن تحدثت عنها في أثناء كلامي على الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام، بعضها كبير قصدها المؤمنون بها المعتقدون بقدسيتها من مواضع بعيدة، وحجت إليها قبائل متعددة، وقد ضمت جملة أصنام وأوثان، وبعضها صغير اختصت بعبادتها قبيلة واحدة أو مدينة واحدة أو قبائل محدودة. وقد كانت في الحجاز وفي اليمن جملة منها، أشار إليها الأخباريون. وقد عثر الرحالون والمنقبون على آثار تلك المعابد وبقاياها ووجدت في أنقاض بعضها كتابات، أمر بتدوينها المؤمنون أرباب تلك المحجات.

وقد أثارت كثرة هذه الأوثان والصور في مكة، وتهالك الناس في التقرّب إليها، انتباه بعض المفكرين من أهل مكة ومن القادمين إليها، ومن المحتكين بأهل الكتاب، فتساءلوا عن قيمته وفائدتها بالنسبة إلى الإنسان، وهي حجارة وصور لا تسمع ولا تعي ولا تنفع ولا تضر؛ صنعها الإنسان بنفسه، وأحاطها بهالة التقديس والتعظيم،حتى جعل لها قوة، وأضاف إليها مقدرة، ثم زعم أنها تؤثر وتشفع للإنسان عند الله. وقد تنكروا لعبادة قومهم هذه، واجتنبوا تلك الأوثان واعتزلوها، وأشاروا على قومهم بفساد زعمهم، وبطلان ما ذهبوا إليه فيها، برفق ولين وسكون، دون أن يثيروا قومهم عليهم. جرى ذلك في زمن كان الناس فيه في عاصمة الروم يتجادلون أيضاً في شرعية تقديس صور الأنبياء وصور المسيح وأمه والقديسين وغيرها وفي موافقتها لأصول الدين. جدال هز الأمبراطورية هزاً عنيفاً فيما بعد، وأوجد جدلاً فيما بين رجال الكنيسة في حرمة وضع هذه الصور في الكنائس أو إباحتها فصاروا في ذلك شيعتين: شيعة معارضة تعتقد أن ذلك كفر وضلال وإلحاد، وشيعة تتحمس للصور ولا ترى فيها مخالفة للعقيدة بل على العكس ترى فيها تذكرة للإنسان تذكره بأولئك الأنبياء والرسل، وتجعلهم وكأنهم أمامه، فهي إذن خدمة للدين والإيمان في نظرهم هذا.

ومن يدري، فقد يكون لهذا الجدل النصراني العنيف على تحريم تقديس الصور أو إباحتها علاقة برأي الأحناف في تقديس أهل مكة للأصنام والأوثان والصور. فقد كان هؤلاء كما ذكر الأخباريون على اطلاع باليهودية والنصرانية، وكان لهم أو لبعضهم علم بالعبرانية والسريانية. وقد لازم بعضهم رجالاً من الأحبار

والقسيسين والرهبان، فلا يستبعد أن يكونوا قد تأثروا به، إذ كان الجدل عنيفاً عاماً، ولم يكن خاصاً بالقسطنطينية أو بقطر واحد من الأقطار الخاضعة للامبراطورية البيزنطية. ولا استبعد وصول هذا الجدل إلى نصارى جزيرة العرب ووقوفهم عليه واشتغالهم به، وإنقسامهم على أنفسهم فيه، كما انقسم نصارى الأمبراطورية في هذه القضية إلى شيعتين.

وبعض هؤلاء الراغبين عن ديانة قومهم، المتنكرين للأصنام والأوثان، كانوا كما تقول الأخبار على علم بالعبرانية والسريانية، وقد قرأوا كتب أهل الكتاب، ووقفوا على آرائهم، لكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، كما تجنبوا الأعمال المضرة التي كان يقوم بها بعض الجاهليين، واعتزلوا قومهم، وصبوا عن دينهم، وعرفوا بالأحناف. وقد عاشوا في عزلة، في تأمل وتفكير، في حالات انفرادية، إذ لم يكن هؤلاء شيعة وفرقة ولا كان لهم دين له قواعد معيّنة ثابتة، وإنما كانوا أفراداً أنكروا عبادة قومهم، ولم يرتضوا عن أعمالهم، وكان لكل في الإصلاح رأي ووجهة.

والحديث عن هؤلاء وعن آرائهم وعن النحل والمذاهب الدينية التي كانت عند أهل الحجاز والجاهليين عند ظهور الإسلام، حديث طويل، لا يمكن سرده هنا، وقد تحدثت عنه في كتابي تأريخ العرب قبل الإسلام وإليه مرجع من يريد الاستزادة في هذا الموضوع.

وقد اكتفى الأحناف، على ما يظهر من روايات أهل الأخبار، بالابتعاد عن المجتمعات وبالنفرة من تقديس الأوثان، فلم يتقربوا إليها، اكتفوا بذلك ورضوا بعقيدتهم هذه وباقتناعهم بفساد معتقدات

قومهم، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الجهر بآرائهم والمناداة بها علناً في المحلات العامة، ظلوا على ذلك إلى مماتهم، ولهذا لم تكن علاقتهم مع قومهم سيئة ولم يصطدموا معهم. بل نظر إليهم نظرة تقدير واحترام، وكانوا يأتونهم للاستفسار عنهم عن كثير من المعضلات والمشكلات، لما لهم من اطلاع ووقوف على الكتب والأخبار. ولا أستبعد اشتغالهم بأمور أخرى، مثل الفلسفة والتطبيب والمنطق وما شابه ذلك من أمور برع بها رجال الدين في ذلك العهد.

وقد اعتكف الرسول كما اعتكف هؤلاء الأحناف ونفر من تقديس قومه للأوثان والصور والأصنام، ولكنه لم يكتفِ كما اكتفوا بالاقتناع بصحة رأيه وفساد رأي قومه وكفى. ولو اكتفى بذلك، كان واحداً مثلهم لا يمتاز عليهم بشيء. بل عاب قومه على فساد عقيدتهم، وندد بعبادتهم حجارة لا تعي ولا تسمع، ومن هنا وقع الاصطدام، وثار القوم على الرسول قاصدين قتله أو إسكاته على نحو ما سنرى من بعد، فالرسول كان صاحب فكر ودين ورسالة، مكلفاً وحياً بوجوب الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته إلى العالمين. أما هم، فكانوا أصحاب فكر ودين عقيدة، لهم وحدهم رسالتهم وعقيدتهم ودينهم، ولمن أراد الدخول في بيئتهم الرحب والسعة. وفي ذلك الطمأنينة على الحياة والأمن والسلامة. فكان ما عندهم في حدودهم وحدود الأصدقاء والأتباع إن كان لهم أتباع وأشياع.

وخدمة «البيت الحرام» هي خدمة كبرى، وهي شرف عظيم، تجلب لصاحبها المال والاحترام والتقدير، كما تجلب له الغنى من الهبات والنذور والأطايب التي يحملها المؤمنون إلى بيت ربهم،

لاسترضائه وكسب عطفه ووده ورضاه، ليبارك فيهم وفي أموالهم وماشيتهم وزروعهم. خدمة اختصت بها أسرة من قريش، توارثتها عن قصي، وقد تنقلت في أفرادها من الآباء إلى الأبناء، تخول صاحبها وأسرته التقدم على سائر الناس والتصدر فيهم. وقد كان حاجب الكعبة عام الفتح عثمان بن طلحة. والحاجب هو سادن البيت، وبيده مفتاح البيت[٢٧].

وقد جلب «البيت الحرام» «بانثيون» مكة، الرزق والأمن لأهل مكة. جلب لهم الرزق بقدوم الحجاج إليهم لحج البيت والتقرّب إلى الأصنام في مواسم الحج، وفي غير هذه المواسم، جاؤوها أفراداً وجماعات، ولكل من القادمين إليها صنم مفضل ووثن يتقرّب به إلى ربه، راجياً به المغفرة والرضوان والبركة والعمر الطويل والرزق الوافر له ولأسرته، جاؤوها يحملون معهم نذورهم وهداياهم إلى أصنامهم وإلى سدنتها وخدام البيت، ومعهم سلعهم وما عندهم من ناتج فائض عن حاجتهم لبيعه في أسواق مكة، أو لمقايضته بسلع أخرى يحتجاون إليها، فربح أهل مكة بذلك، وعاشوا على هذه المناسبات، وأطعموا من جوع، وهيأ لهم سبل الإتجار مع الخارج.

وحرم مكة حرم آمن، من دخل فيه كان آمناً، لا يجوز فيه قتال ولا اعتداء. جلب لأهله وللقادمين إليه الأمن والطمأنينة. وبذل أهل مكة جهدهم في خدمة الزائرين والحجاج، والمحافظة عليهم، وضمان كل وسائل الراحة لهم وضمان ذلك هو نفع لهم وخدمة لمصالحهم بالطبع، ولضمان مجيء الحجاج والقاصدين إليهم بعدد

---

(٢٧) إمتاع الأسماع (١/ ٣٨٥، ٣٨٧)، جامع الأصول (٩/ ٢٦٧، ٣٤٢).

وافر. وقد جاهدوا وأجهدوا أنفسهم في عقد المعاهدات مع القبائل وسادات الأماكن المحيطة بهم، لضمان الأمن لهم وللقادمين إليهم. مجنبين أنفسهم التورط في الحزازات والخلافات القبلية جهد استطاعتهم، متخذين طريق الحياد، والاستعداد للتوسط بين المتخاصمين في حلّ الخصومات، وإحلال السلم، وفي السلم خدمة لمكة، تضمن لهم قدوم الحجاج والمعتمرين. وفي الحروب تعويق لهم ومنع من الوصول إليها، وهذا ما يقطع عنهم التجارة والرزق.

وإلى رزق قريش من «البيت الحرام»، وحصولها على أمنها أشير في القرآن الكريم في سورة قريش: ﴿**لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾.

وأشير إلى حرم مكة وإلى قدسيتها وأمنها في آية العنكبوت ٦٧ : ﴿**أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم**﴾، وفي آية القصص ٥٧ : ﴿**وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيء إليه ثمرات كل شيء**﴾.

وليس في مكة نهر أو جدول أو عين جارية، فكل ما فيها بئر تستقي منها، حفرتها بنفسها في هذا الوادي الجاف، عرفت بـ «بئر زمزم». تذكر الروايات أن عبد المطلب انتزحها بعد انسدادها قبله، فأعانت مكة، وقدمت لها الماء، وصارت حقوقها في أولاده جزاء قيامه معهم في إعادة احتفارها. ثم آبار صغار خارج مكة على مسافات منها. ونقل الماء من هذه الآبار إلى مكة أمر شاق مضن لا

سيما في أيام الصيف حيث تشتد حاجة الناس إلى الماء، ويتعرض الإنسان لحر شديد كوهج النار، وإلى ظمأ شديد لا يعرفه إلا من أقام في مكان يشبه هذا المكان.

وأمطار مكة قليلة، وقد تنحبس عنها سنين عدة، وقد تنهمر انهماراً فتفتح أبواب السماء عليها كأفواه القرب، تنتج سيلاً يجرف ما يعترضه ويلحق الأذى بالناس، وهي لا تفيد أهل مكة ولا تنفع أرضهم شيئاً، ولا تنشئ لها خضرة تلطف من منظر الصخور الجرد في جبالها وأراضيها.

فزمزم إذن نعمة كبرى لأهل مكة وللقاصدين إليها. ومال لأصحابها الذين آلت إليهم، ولا عجب إذا عدت وظيفة «السقاية» في مكة من درجات الشرف الكبرى تساوي الحجاجة في المنزلة. ولا عجب أيضاً إذا اقترن اسم زمزم بالبيت الحرام، وعدّ ماؤها مقدساً، فلهذه البئر علاقة وصلات بهذا البيت.

وقد أثر موقع مكة وجوهاً في طباع أهلها. فغلب على أهلها الجد والشدة، وظهرت عليهم الصرامة والعزم، وبانت عليهم اليبوسة والغلظة، واضطروا إلى خدمة من يأتيهم حاجاً، وتقديم كل ما أمكنهم من مساعدة إليهم، لحملهم على العودة إليهم، وعلى الامتيار منهم، للتخفيف بذلك عن إنحباس كرم الطبيعة عنهم، وبخلها الشديد عليهم. ولم يكتفوا بذلك، بل ارتحلوا إلى مختلف الأنحاء تجاراً أو وسطاء في تجارات غيرهم، طمعاً في كسب كثير أو قليل، فكانوا أعظم التجار وأكثرهم حركة ونشاطاً عند ظهور الإسلام.

وقد تكدس في مكة عدد كبير من الأحابيش أي الرقيق الأسود المستورد من أفريقيا من الحبشة ومن غيرها. وقد عرف هؤلاء

بالأحابيش، لصلة الحبش بجزيرة العرب قبل الإسلام بزمان طويل، ولحكم الحبش لبقعة كبيرة من الساحل المقابل لبلاد العرب، ولكونهم المستوردين لهؤلاء إلى أسواق النخاسة في ساحل أفريقيا وفي جزيرة العرب. وقد استعمل هؤلاء في أكثر الحرف الشاقة والأعمال المرهقة، ونيطت بهم الحراسة، فكانوا حراساً لكبار التجار يحمون قوافلهم، ويصدون عنهم غارات الأعراب وقطاع الطرق، كما كانوا خداماً يخدمون سادات هذه القوافل: يهيئون لهم طعامهم وشرابهم، ويعملون في متح الماء من الآبار، للشرب وللسقي، ويشرفون على رعي الإبل والماشية، إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تحتاج إلى مهارة واختصاص ولا إلى ذكاء كبير.

أما الأعمال التي تحتاج إلى مهارة وذكاء وخبرة، فقد تولاها أناس أستوردوا من الشمال: من العراق، ومن بلاد الشام، ومن أوروبا أيضاً، أوقعهم حظهم في الأسر، فبيعوا في أسواق النخاسة، ونقلوا إلى جزيرة العرب، لأداء هذه الأعمال لمشتريهم. فهم في حكم الآلة، تشترى من مستوردها لتقوم بالعمل الذي خصصت به. وليس لها إلا الدهن والوقود والأدامة. وهؤلاء استوردوا لأداء الأعمال التي تخصصوا بها وأتقنوها والتي يصعب على الأفريقي القيام بها. وناتجه وعمله لغيره لمالكه، وليس له غير القوت واللباس لإدامة عمله وضمان بقائه حياً للاشتغال والإنتاج. ونجد بين هؤلاء نفراً أشار إليهم أهل السير والأخبار لعلاقة لهم بسيرة الرسول، كما سنرى ذلك فيما بعد، وفيهم أناس قيل إنهم من أهل «نينوى» أي من منطقة الموصل، أناس من الفرس، وأناس من بلاد الشام ومن الروم.

وحالة الموالي والعبيد حالة مزرية مؤسفة، لا سيما حالة من

كان منهم في ملك أشخاص قساة القلوب غلاظ الأكباد. فقد كان همُّ أصحابهم الاستفادة منهم، وتسخيرهم في الأعمال المرهقة الشاقة من غير تفكير في حالهم وما هم عليه من بؤس وتعاسة وشقاء. إذا مات المملوك كان ما يملكه وما عنده من زوج وأطفال ملكاً للمالك، باعتبار أن المملوك هو نوع من الملك، وأن حق المتملك والملكية حق دائم مستمر متصل غير منقطع ما دام للمالك أو ورثته رغبة وحق في المملوك. وهكذا نرى العبودية عبودية دائمة مستمرة تنتقل من الرقيق إلى أبنائه، إلا إذا تنازل من له حق شرعي عنه فحرر رقبته، ويكون عندئذ في حماية مولاه وفي كنف قبيلته.

ولما كان الوضع على هذا الحال والمنوال أعني وجود قلة غنية جاهلة متعجرفة متحكمة في كثرة فقيرة ضعيفة، لا ترحم فقيراً ولا تعطف على يتيم، فلا بدَّ أن يكون هوى الفقراء والضعفاء في واد آخر في غير مصلحة ساداتهم. ولكن ما الذي كان في إمكان أولئك صنعه، وهم طبقة ضعيفة لا حول لها ولا قوة؟ لم يكن في إمكانهم عمل شيء إلا التضرع إلى آلهتهم بأن يفرج عنهم وينقذهم من هذا الوضع السيئ فليس بعجيب إذن إقبالهم على الإسلام، وانخراطهم فيه، وتأييدهم للرسول، وتفانيهم في الدفاع عنه. وفيه حثّ على إنصاف المظلومين، وإعطاء حقوق اليتامى والمساكين، وفرض على الأغنياء في مساعدة الفقراء: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم﴾**[٢٨]، و**﴿والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم﴾**؟[٢٩].

---

(٢٨) التوبة (الآية ١٠٤).

(٢٩) المعارج (الآية ٢٤ وما بعدها).

ونجد في القرآن الكريم حثاً شديداً على مساعدة السائل والمحروم والعطف على اليتيم وتقريعاً وتعنيفاً للذي يغتصب أموال اليتيم، ويعتدي على مال القصير، ولمن لا يساعد الفقراء، وفي هذا التعنيف والتشديد والتقريع دلالة على حالة اجتماعية سيئة كانت في مكة في ذلك العهد، هي الحرص على المال والفقر المدقع، والفقر هو السبب في ظهور مثل هذه الحالات، وفي سلب حقوق الضعفاء وعدم مساعدة الفقراء. بل حمل الفقر بعضهم على قتل أولادهم خشية إملاق. وما الوأد المذكور في القرآن الكريم إلا حالة من هذه الحالات. حالات الفقر الملعون الذي كان منتشراً يومئذ، **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾**[٣٠]، **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطأ كبيراً﴾**[٣١]، **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولاً﴾**[٣٢]، **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾**[٣٣].

والفقر والإملاق وانتهاز الفرص للإثراء، كل هذه وأمثالها جعلت الناس ينتهزون الفرص للحصول على ربح ومغنم، دون تفكير في الوسيلة وفي الطريقة. فما دام الربح هو الغاية فلا تفكير

---

(٣٠) الأنعام، الآية ١٥١.
(٣١) الإسراء، الآية ٣١.
(٣٢) الإسراء، الآية ٣٤.
(٣٣) الأنعام، الآية ١٥٢.

في السبل الموصلة إليه، والغاية تسوغ الواسطة. ولهذا نجد البائع يلجأ إلى مختلف الوسائل للحصول على ربح ولو كان يسيراً جداً. يلجأ إلى الغش والتزوير؛ ويلجأ إلى الميزان فيلعب به، وينقص الكيل ليحصل على فرق يسير لا يساوي عندي وعندك شيئاً، إلا أنه فرق ملحوظ عند أناس تلك الأيام، بسبب أحوالهم المزرية ومستوى معيشتهم المنخفض في ذلك العهد. نجد صداه في القرآن الكريم في آية: ﴿**وأوفوا الكيل والميزان بالقسط**﴾[٣٤]، وفي سورة المطففين: ﴿**ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعثون، ليوم عظيم**﴾.

وهناك آيات أخرى تشير إلى هذا الجشع الذي عم الناس في ذلك العهد. وكلها وعد ووعيد وتقريع للغشاشين الجشعين الطامعين، وفيها أمر وتحتيم للمسلمين المؤمنين بوجوب تجنب هذا الجشع، وإنصاف الناس، والتفكير فيهم، تفكير الإنسان في نفسه. ونزولها دليل على تلك الأوضاع والحالات السيئة التي كانت في ذلك العهد. لفقر، ولضيق، ولحاجة، ولأنانية متغلبة على النفوس بسبب ذلك الفقر. والفقر كافر ملعون.

وهذا الفقر أيضاً والشح في العيش والضيق في المكان، جعل أهل مكة يحسد بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً ويلمزه، فإذا جلس بعضهم مع أصحابه عظموه، حتى إذا فارقهم سلقوه بألسنة حداد وغمزوه. ولو كان لهم شغل يشغلهم وعمل يلهبهم، وأعمال

---

(٣٤) الأنعام، الآية ١٥٢.

دائمة وأرباح وافرة ينالونها بالكد والاجتهاد، لكان الأمر شيئاً آخر ولا شك. ومن هنا تفسير ما نجده في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي من تقريع وتعنيف لأفراد ذلك المجتمع الجاهلي المتصف بالنفاق والحسد والمراءاة.

ويصور القرآن الكريم، غني مكة وغني عهد النبي في أماكن أخرى من الحجاز، رجلاً همه جمع المال وتكديسه وتكثيره. المال في نظره جاهٌ وشرف وحسب، يفتخر به على غيره ممن لا يملك مثله مالاً، ويتباهى به وبذريته وبأولاده. وفي الآية **﴿وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذبين﴾**[٣٥]. وصف لحالة الغنى الكثير المال، يفتخر على غيره بكثرة ماله وبعدد أولاده، ووصف لصلفه وخيلائه وادعائه أن ماله شفيعه يشفع له حتى من العذاب. وكيف لا يكون شفيعه ومنقذه من العذاب ما دام يرى بعينيه أثر سحر ماله في الناس، وكيف لا يجلب له التقدير والاحترام ويحقق له كل حقوقه ودعاواه، بينما يرى الضعيف الفقير، وهو ضعيف مهاناً لا قدر له في مجتمعه ولا شأن له بين أهله وجماعته، بسبب فقره وضعف حاله. حقه ضائع مهدر، إن طالب به لم يجد له واليا ولا نصيراً، على حين يعطى الغنِي حقه ولا يناله دون جهد وتعب. كل ذلك بسبب ماله وغناه.

وفي سورة الهمزة: **﴿ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالاً وعدده، يحسب أن ماله أخلده﴾** وصف آخر لغني ذلك الزمان، أن همه جمع المال وتعديده المال في نظره، هو الذي يعظم الإنسان

---

(٣٥) سبأ، الآية ٣٥.

ويخلده. وجوابه على نظرته هذه إلى المال: **﴿كلا، لينبذن في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة؟ نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، إنها عليهم موصدة، في عمد ممددة﴾**. وهذه الآيات الكريمة، هي ردّ الإسلام على هذه النظرة الجاهلية، وهي نوع من أنواع الصراع المهم الذي وقع بين الجاهلية والإسلام يمثل اختلاف المبادئ بين العهدين.

ولم تكن ثروة قريش موزعة توزيعاً عادلاً، بل كانت مكدسة مكتنزة عند نفر، احتكر لنفسه المال والثراء، أما الأكثرون، فكانوا فقراء، حتى ذوو قرابة هؤلاء المثرين، كان أكثرهم فقراء، لا يجدون منهم عوناً. ومجتمع مثل هذا لا يمكن أن يتطرق إليه الانسجام وتخامره الإلفة والمحبة الصادقة مهما ربط بروابط الطاعة والتسليم إلى القدر وإلى العرف والعادة وآداب الآباء والأجداد. وهذا هو الذي جعل الإسلام يحض على مساعدة الجار ورعاية الفقير وإيواء اليتيم ونحو ذلك من المثل الإنسانية الرفيعة، كما نرى خبره في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول.

وقد كان لهذا البون الشاسع بين «عظماء» أُم القُرى، وسوادها الأعظم أثر خطير في الإسلام، كما كان لهذا السواد أثر كبير في دخولهم في الإسلام ونشره. فقد كان المستضعفون من أكثر الناس إسلاماً ومن أكثرهم التفافاً حول الرسول، حرصوا على نشر الإسلام، والدعوة إليه، وفي دخولهم فيه خلاص لهم من تحكم سادتهم فيهم، وفيه ضمان لمستقبلهم وأمن لهم ولحريتهم من هذا المجتمع المتحكم في المستضعفين، المستغل لهم لمصالح أرباب البيوتات المتحكمة في الناس. ولم تكن مصلحة الفئة القليلة الغنية

الاستجابة للإسلام، لما رأته في الاستجابة إلى دعوة رجل فقير يتيم من ذلة ومهانة، ولذلك سخرت من الرسول ومن الذين استجابوا لدعوته، وكانوا يستهزئون ويضحكون حين يرون الرسول وحوله أولئك المستضعفين.

ومكة وإن كانت مجتمعاً مستقراً حضرياً، أهله أهل مدر في الغالب، غير أنها لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم، لأن الحياة فيها كانت مبنية على أساس العصبية القبلية: المدينة مقسمة إلى شعاب، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة، تحكمها الأسر، وبين الأسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ. حاربه الإسلام وقد بقي مع ذلك متحكماً في النفوس حتى اليوم، لا في مكة وحدها، بل في العالم العربي كله. نزاع بين بني هاشم وبني أُمية على الرئاسة في مكة، ثم على الرئاسة والزعامة في الإسلام، آذى الجاهليين كما آذى المسلمين[٣٦]. ونزاع بين أُسر أخرى على الزعامة والرئاسات.

لقد حاول بعض رؤسائها ووجوهها التحكم بأمر مكة، وإعلان نفسه ملكاً عليها، يُحلّي رأسه بالتاج شأن الملوك المتوجين، ولكنه لم يفلح ولم ينجح. حتى ذكر أن بعضهم التجأ إلى الغرباء، لمساعدتهم بنفوذهم السياسي والمادي والعسكري في تنصيب أنفسهم ملوكاً عليها، فلم ينجحوا، كالذي ذكروه عن عثمان بن

---

(٣٦) «... قال جعفر: سألته عما عنده في أمر علي وعثمان، فقال: هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم. وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم وكان أبو سفيان يحسد محمداً وحاربه...»، شرح ابن أبي الحديد (٢/ ٢٢٠، ٤٠١) (٣/ ٣٨٢).

الحويرث بن أسد بن عبد العزى، المعروف بـ «البطريق»، من أنه طمع في ملك مكة، فلما عجز عن ذلك، خرج إلى قيصر، فسأله أن يملكه على قريش، وقال: احملهم على دينك، فيدخلون في طاعتك». ففعل، وكتب له عهداً وختمه بالذهب فهابت قريش قيصر، وهموا أن يدينوا له، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة، فصاح، والناس في الطواف: إن قريشاً لقاح! لا تملك ولا تملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى: ألا إن مكة حي لقاح. لا تدين لملك، فاتسعت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء له، ولم يتم له مراده، فمات عند ابن جفنة فاتهمت بنو أسد بن جفنة بقتله»[٣٧] وابن جفنة هو عمرو بن جفنة الغساني[٣٨].

ولم يكن عثمان بن الحويرث أول زعيم جاهلي فتن بالملك وبلقب ملك الحبيب إلى النفوس، حتى حمله ذلك على استجداء هذا اللقب والحصول عليه بأية طريقة كانت، ولو عن سبيل التودد إلى الأقوياء الغرباء والتوسل بهم، لمساعدتهم في تنصيبهم ملوكاً على قومهم، ففي كتب الأخبار والتواريخ أسماء نفر كانوا على شاكلته، فتنهم الملك وأعماهم الطمع وحملهم ضعف الشخصية وفقر النفس حتى على التوسل إلى الساسانيين والروم، لتنصيبهم على قومهم ومنحهم اللقب الحبيب، ووضع التاج على رأسهم، في مقابل وضع أنفسهم وقومهم في خدمة السادة المساعدين أصحاب المنة والفضل.

لقد استمات عثمان بن الحويرث في سبيل الحصول على ملك

---

(٣٧) نسبَ قريش، (ص ٢٠٩ وما بعدها)، الروض الأنف (١/١٤٦).
(٣٨) المصدر نفسه، وجمهرة ابن حزم (ص ١٩٠).

مكة، حتى ذكر أنه تنصر وتقرب بذلك إلى الروم، وحسنت منزلته عندهم. ومن يدري؟ فلعله كان مدفوعاً مأموراً حرضه الروم ودفعوه للحصول على المدينة المقدسة، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الحجاز والوصول إلى اليمن والسيطرة بذلك على العربية الغربية والعربية الجنوبية، وإخضاع جزيرة العرب بذلك لنفوذهم. جمع القوم ورغبهم وأنذرهم وحذرهم بغضب الروم عليهم إن عارضوا مشروعه وقاوموا تنصيبه ملكاً عليهم، قائلاً لهم: «يا قوم! إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم، وأنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك، ثم أذهب إليه. وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام، فلا تتجروا به ينقطع مرفقكم منه»[٣٩]. وبعد أفترى تهديداً أشد من هذا التهديد، وتصميماً على التملك بأية طريقة كانت أقبح من هذا التصميم.

ولعل لقبه «البطريق» الذي عرف عثمان بن الحويرث به، هو من أفضال اليونان عليه، أعطوه إياه فعلاً أو قولاً، لاسترضائه وكسبه. ولا يعقل أن يكون لقباً دينياً له بالطبع. وقد كان الروم يغدقون الألقاب على الرؤساء وسادات القبائل لكسبهم وشرائهم، وهي ألقاب اسمية فخرية، ليست لها بالطبع الدرجة والمنزلة التي يتمتع بها من يحمل هذه الدرجة من الروم.

ولم تكن هنالك ألفة ومحبة، ولا وحدة جامعة بين الناس. فالأنانية والروح القبلية التي هي نفسها أنانية متوسعة، لم تكن تساعد

---

(٣٩) العقاد: العبقريات الإسلامية (ص ١٣٠)، الروض الأنف (١/ ١٤٦).

على ظهور مجتمع متوحد كبير. وكل رئيس كبير يرى أن الرئاسة يجب أن تكون له، وأن التسليم برئاسة آخر عليه، معناه مذلة وإهانة. ثم إن التعاون مفقود بسبب الوضع المالي السيئ، ووجود فقر عام. والمجتمع الفقير لا بدَّ أن تعمّه الفرقة وأن يظهر فيه الحسد والتطاحن بين الناس في سبيل العيش الضيق والرزق. وقد أشير إلى هذه الظاهرة في القرآن الكريم. وقد ذكرت هذه الآيات المؤمنين بذلك الوضع الذي كانوا فيه، وحثهم على الوحدة وعدم العودة إلى تلك الحياة الجاهلية: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾**[٤٠]. **﴿وهو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله وألف بينهم، إنه عزيز حكيم﴾**[٤١].

فعد الإسلام هذه الوحدة التي قامت مقام الفرقة والتشتت نعمة من نعم الله على المؤمنين، وطلب من المسلمين الاعتصام بالإسلام وعدم الفرقة فيه، وأن يذكروا نعمة الله هذه عليهم التي جعلتهم بفضله إخواناً.

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة، فلم يكن فيها ملك له تاج وعرش، ولا رئيس واحد يحكمها على أنه رئيس جمهورية أو رئيس مدينة ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً أو حكماً بالتناوب، ولا حاكم مدني عام أو حاكم عسكري. ولم يتحدث أهل الأخبار عن وجود مدير عام فيه

(٤٠) آل عمران، الآية ١٠٣.
(٤١) الأنفال، الآية ٦٣.

واجبه ضبط الأمن، أو مدير له سجن يزج فيه الخارجين على الأنظمة والقوانين أو ما شابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات وكل أمرها أنها قرية تتألف من شعاب، كل شعب لعشيرة، وأمر كل شعب لرؤسائه هم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب. وليس في استطاعة متمرد مخالفة أحكامهم، وإلا أدبه حيه، وملؤه أي أشرافه. هؤلاء الرؤساء هم الحكام الناصحون وهم عقلاء الشعب.

وقد أشير إلى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية الزخرف ٣١: **﴿وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**، ويراد بالقريتين مكة والطائف. وأشير في الآية التالية لها إلى وجود درجات من الناس بعضهم فوق بعض. وفي هذه الآيات شرح للحالة الاجتماعية لأهل مكة والطائف والمواضع الأخرى في ذلك العهد. فرؤساء مكة هم عظماؤها وساداتها، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها. و«عظماء مكة» أو «عظماء الطائف» هم الطبقة «الارستقراطية» المتزعمة في الناس، المعروفة بعنجهيتها وتكبرها وجبروتها وخيلائها وحسبان نفسها أنها هي الناس، أتتها الزعامة وراثة أو عن مال كسبته ومتاع حصلت عليه.

فالحكم في مكة إذن حكم لا مركزي، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة تطاع فيها الأحكام، وتنفذ الأوامر، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على أهل مكة، بل لأن الأحكام والأوامر هي أحكام ذوي الوجه والسن والرئاسة والشرف. وأحكام هؤلاء مطاعة في عرف أهل مكة وفي عرف غيرهم من أهل جزيرة العرب. حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف، ولا مخالفة

للعرف والعادة. فالعرف قانون أهل الجزيرة حتى اليوم. وانتهاك أحكامهما معناه انتهاك سيادة القانون، وتمرد على الهيئة والنظام، وتحقير للحاكمين وإهانة لهم ولأتباعهم، وليس لأحد الخروج على أوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل.

وتحدثنا كتب الحديث والسير عن مجلس في مكة، كان يجتمع فيه ملأ المدينة، أي رؤساؤها وكبارها، للتداول في الأمور والمشورة في شؤون السلم والحرب، وقد عرف مجلسهم هذا بـ «دار الندوة». وهو مجلس على نمط مجالس الكبار في اليمن، المسماة «المزود»، يجتمع فيها كبار القوم من ذوي الرأي والحل والعقد، للتشاور في الأمور، واتخاذ قرارات، ويحكمون ويبدون الرأي باعتبارهم سادة قادة، أما غيرهم من الناس فليس لهم إلا الطاعة والامتثال. ليس لهم رأي في اختيار الرؤساء أي رجال المجالس وإن كان هؤلاء الرؤساء يتكلمون باسمهم ويتحدثون عنهم، فعضوا المجلس في هذا الوضع مثل رئيس القبيلة في تمثيله لها وتحدثه باسمها وإصدار أحكامه في أفرادها، مع ذلك ليس لأفراد القبيلة رأي في اختياره وتعيينه، إنما الرأي هو لما يسمى العرف والعادة ورأي وجهاء القبيلة أصحاب الحل والعقد.

وينسب بناء دار الندوة إلى «قصي»، بناها لنفسه حوالي سنة (٤٤٠) للميلاد على تقدير بعض المستشرقين. ولكنها ما لبثت أن صارت في أيامه نادياً لقريش، يقصدها الرؤساء، ويلجها أصحاب الحاجات والظلامات، حتى صارت قريش لا تبرم أمراً في حروبها وأمورها إلا بها، وبها يزوجون من أراد التزويج، ويلبسون الفتاة درعها دلالة على بلوغها سن الزواج، ويدفع اللواء إلى القادة الذين

يعينهم ملأ مكة للدفاع عنها، فيحمل عنهم رايتهم، شعارهم في الحرب. وفي هذه الدار تشاورت قريش فيما تصنع في أمر الرسول حين خافوه، وعزمت على قتله[٤٢] وفي هذه الدار اصطف رؤساء قريش في السنة السابعة من الهجرة ليشاهدوا الرسول وقد دخل مكة معتمراً [٤٣] شاهدوه وهم يرتجفون حقداً وبغضاً، لا شك، لما بلغه محمد من عزة في قومه ومنعة[٤٤].

وقد أوصى قصي بهذه الدار لولده عبد الدار، فصارت له، وانتقلت إلى ولده، ولم تزل فيهم حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن معاوية بن أبي سفيان، فجعلها داراً للإمارة بمكة[٤٥].

وقانون القوم ودستورهم: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[٤٦]، فهم محافظون على كل ما وجدوه، حريصون على كل ما وصل إليهم، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً، مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق. وفي القرآن الكريم آيات أخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال الملأ بحقوقهم وبما ورثوه من عرف مكنهم من الملأ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى زعامتهم في الناس.

فملأ مكة أناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً، سنتهم

---

(٤٢) ابن هشام (٢/ ٩٤) [خبر دار الندوة]، البلاذري (١/ ٥٢)، زاد المعاد (٢/ ٥٢)، «قال الأفشهري في تذكرته: وهي الآن مقام الحنفي»؛ شرح القاموس (١٠/ ٣٦٢).

(٤٣) ابن هشام (٣/ ٤٢٤)، [عمرة القضاء].

(٤٤) Ency. of Islam, Vol. I, P. 918, Caussin de Perceval, Essai, I, 235.

(٤٥) البلاذري (١/ ٥٤).

(٤٦) الزخرف، الآية ٢٢ وما بعدها.

التعلق بالماضي، وكره الثورة والخروج على العرف والعادة مهما كانت. فالعرف جرى الناس عليه، فلا خروج على العادة والعرف. أما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والأجداد، فيعاقب حتى يعود إلى رشده وصوابه، وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيفما كان، وبتطرفهم في المحافظة على العرف، إنما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد، المحافظة على مصالحها، استناداً إلى العادات. هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل، وعلى الناس الطاعة والانقياد. ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله. قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾[٤٧].

ولذلك عجبت وسخرت حين سمعت محمداً يدعو أنه رسول الله، أنه جاء إليهم وإلى غيرهم مبشراً ونذيراً يدعوهم إلى دين الله دين الإسلام، وإلى الاعتقاد بنبوته ورسالته. وكيف يعقل ظهور رجل يدعو إلى دعوة عظيمة مثل هذه الدعوى. من بين طبقة لم ترث المال الكثير. ولا السيادة والعظمة في البلد. ولو كانت الرسالة التي جاء بها الرسول هي من عند رب العالمين صدقاً. لوجب على رأيهم واعتقادهم نزولها على عظيم من عظماء مكة أو الطائف على الأقل، لا على رجل مثل محمد ليس منهم، فالنبوة شرف وسن ومنزلة ومكانة، والله لا يختار لها إلا من تتوفر فيه هذه الأمور، ويتوفر فيه العقل والنضج والكمال، ولا يتوفر كل ذلك إلا في

---

(٤٧) البقرة، الآية ١٧٠.

السادات والعظماء، أصحاب البسطة في المال والجسم. ذلك مثلهم في الحياة، وذلك منطقهم بالنسبة إلى القدرة والعقل والعلم.

نعم كان محمد من أسر ورثت خدمة البيت والحجيج، ولكنه لم يرث مالاً وثروة. كان من «بني هاشم» ولم يكن لبني هاشم مال، كانت لهم مكانة ومنزلة ولكنهم لم يملكوا مالاً مثل مال«بني عبد شمس» منافسيهم على الزعامة في هذه المدينة الصغيرة، والمال هو القوة والحكم. ولهذا كان خصومهم، وهم من بيت واحد بالطبع من شجرة واحدة، أقوى منهم، وأكثر نفوذاً، وأبعد سلطاناً في مكة وفي الحجاز. ولهذا أيضاً كانت مقاومة هذا البيت وأعوانه ومَنْ التف حولهم أشد على الرسول من المقاومة التي لقيها من بني هاشم مع أنهم كانوا المشرفين على البيت الحرام والرؤساء الروحانيين في ذلك العهد.

وقد جلبت أسفار قريش للتجارة المال لمكة، جلبت لها الذهب من الروم والفضة من الفرس. وقد اشتهر الروم عند العرب بدنانيرهم المضروبة من الذهب الأبريز، واشتهر الفرس بدراهمهم المضروبة من الفضة. وعرف أهل بلاد الشام ومصر بـ «أهل الذهب»، وعرف أهل العراق بـ «أهل الورق» أي الفضة. وكان هدف التاجر في حياته جمع الدنانير والحصول على الذهب وتكديسه. والذهب هو الثروة ورأس المال، وهو الجاه والمكانة في المجتمع.

وحذق تجار مكة بنقد الدنانير والدراهم، ففي النقدين المزيف المغشوش، والممحو والناقص، ولهذا لجأ تاجر مكة كما لجأ سائر تجار ذلك العهد إلى فحص الدنانير والدراهم حين مرورها عليهم. وكانوا يلجأون إلى الوزن في الغالب خشية النقص في مادة النقد،

ويزنون الدنانير والدراهم إذا بلغت عدة عشرات لسهولة الضبط.

ولقلة عدد النقود في العالم إذ ذلك، صارت أثمانها في التعامل عالية. والمالك لمئات من الدنانير في جزيرة العرب كان يعد من كبار الأغنياء، وقد قدر رأس مال قريش الذي ساهمت به في قافلتها التي أرسلتها برئاسة أبي سفيان، والذي سبب معركة بدر، بنحو خمسين ألف دينار، وعدت القافلة من قوافل مكة الكبرى. كان قوامها (٢٥٠٠) بعير، معها عدد من الأدلاء والحراس يتراوح من مئة رجل إلى ثلاثة مئة رجل. ويضاف إليهم عدد آخر من الرجال ينضمون إليهم حين الحاجة لمقاومة «الصعاليك» وقطاع الطرق. وإذا أخذنا بقول الأخباريين القائلين بأن ملأ مكة أو أكثره كان يسهم في هذه القوافل الموسمية الكبرى، عرفنا إذن قوة هذا المبلغ وضخامته بالنسبة إلى أهل مكة والحجاز، بل جزيرة العرب في ذلك العهد.

ولم تكن هذه الثروة موزعة توزيعاً عادلاً. فقد كان أبو أحيحة مثلاً قد أسهم بأكبر نصيب في هذه القافلة، يقدر بزهاء ثلاثين ألف دينار، وأسهم رجال آخرون من بني أمية بزهاء عشرة آلاف دينار. ومعنى هذا أن أربعمة أخماس رأس مال القافلة كان أموياً. أما ملأ مكة، وفي مقدمتهم الأسرة الكبيرة الأخرى، فقد كان كل رأس ماله في هذه التجارة الخمس الباقي(٤٨). ومن هنا تدرك كيف استأثرت أسر معيّنة محدودة بالثروة واكتنزتها دون الآخرين.

وهناك أسر أخرى غنية ثرية في مكة، كانت تشاطر أسرة أبي أحيحة الجاه والثراء. فبنو مخزوم كانوا من أثرياء مكة، وكان

---

(٤٨) Ency. of Islam, III, p. 440.

عبد الله بن جدعان من كبار الأغنياء في أيامه. وقد أسهم بعض تجار مكة بآلاف من الدنانير في القافلة التي أرسلتها مكة بقيادة أبي سفيان في السنة الثانية من الهجرة، ولم تكن هذه الآلاف كل ثروتهم بالطبع وقد ذكر أن أبا لهب كان قد أقرض العاص بن هشام بن المغيرة أربعة آلاف درهم، فلما أفلس ولم يتمكن من دفع ما عليه له وللدائنين الآخرين، استأجره أبو لهب، للذهاب مع قريش في مكانه إلى بدر على أن يجزي عنه بعثه، وتخلف أبو لهب[٤٩]. وبهذه الطريقة سوي الدين. وهذا مما يحملنا على التفكير أن ثراء بعض تجار مكة كان شيئاً كثيراً. وقد بالغ بعض المستشرقين، فجعل بعض تجار قريش في منازل أصحاب الملايين.

وقد أسهمت نسوة مكة في التجارة، فكانت أم أبي جهل تاجرة تتاجر بالعطر والطيب، وكانت هند زوجة أبي سفيان تاجرة تتاجر مع «كلب» النازلين في بلاد الشام، وكانت خديجة تاجرة معروفة، وترسل الأمناء للإتجار على حسابها، وقصة إرسالها الرسول في تجارتها معروفة في السير. ولما عاد أبو سفيان من الشام دون أن تقع أمواله في أيدي المسلمين، كانت نسوة قريش التاجرات في جملة من التف حوله، لمحاسبته على أرباحهن وما صار من نصيب كل واحدة منهن[٥٠].

وقد عاش أثرياء مكة ووجهاؤها في بيوت حسنة مريحة، مجصصة ومزخرفة، فرشوها بالبسط وبالأثاث الحسن، ووضعوا على أبوابها الستور المصورة الموشاة، وحلى بعضهم جدر بيته بالصور

---

(٤٩) الطبري (٣/ ٢٧٢).

(٥٠) Ency. of Islam, III, p. 440.

والنقوش وبالتماثيل[٥١]، واستعملوا الأواني المصنوعة من الذهب والفضة والنفائس المستوردة من الخارج. أما الأكثرون، فكانت بيوتهم من المدر، أو من أغصان الشجر، أو من الشعر والوبر، أو ما شابه ذلك. وهي بيوت حقيرة صغيرة لا تقي من حر ولا برد، ذلك لأنها لم تكن تملك شيئاً، فكانت حالتها مزرية. ووضع مثل هذا، لا بدَّ أن يخلق شيئاً من الجفاء والحسد بين الطبقتين.

ومتع أغنياء مكة أنفسهم بمباهج الحياة المعروفة في ذلك العهد، ورفهوا أنفسهم بقدر الاستطاعة، فكانوا يخرجون في الصيف إلى الأماكن العالية اللطيفة، كالطائف وغيرها من الأماكن الجبلية، للتخلص من حر مكة وكانوا يخرجون إلى «الأقحوانه» عند الليط، يتحدثون فيها بالعشي، ويلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة[٥٢] وينفقون على أفراحهم وعلى المناسبات الاجتماعية الأخرى، ويأتون بالقيان، ويشربون الخمور والنبيذ، يسرفون في ذلك إسرافاً كبيراً. أما الكثرة الكاثرة وسواد المدينة، ومن يُقال لهم خضراء قريش، أي سوادها[٥٣]. فلم تكن تملك شيئاً، بل كان من الصعب عليها الحصول على خبزها المصنوع من الشعير. لقد كان غنى مكة قاسياً، غليظ القلب. فظاً، لا يفكر إلا في نفسه. لا يعطي أحداً حقاً، ولا يعطف على ضعيف، ولا يرحم به. كان يأكل أموال اليتيم ومن لا حول له ولا قوة، لا يؤنبه ضمير ولا يخزه ألم،

---

(٥١) جامع الأصول (٥/ ٤٤٨ وما بعدها)، «الباب السابع في الصور والنقوش والستور، ذم المصورين».
(٥٢) الأزرقي (ص ٤٨٦).
(٥٣) جامع الأصول (٩/ ٣٤٢).

فطبيعي إذن أن يكره فقراء مكة ومواليها وأصحاب الشعور والوجدان من الأحرار هؤلاء القساة العتاة.

ونجد في مكة طبقة لم تكن ثرية ثراء أولئك المذكورين، ولكنها كانت ثرية غنية بالنسبة إلى السواد الأعظم من السكان. يملك بعضها جملة آلاف من الدنانير أو من الدراهم. فهي من الطبقة الصغيرة الوسطى «Petite bourgeoisie» في عرف الزمن الحاضر. وتمثل المرابين أصحاب المال المستغل بإقراضه للمحتاجين إليه مقابل ربا كبير يترتب عليه، وصغار التجار الذين كانوا يتاجرون مع الخارج بأموالهم أو بأموال غيرهم أو بالاستدانة، وأصحاب الأعمال الذين كانوا يستخدمون الأيدي العاملة في الإنتاج وفي إدارة حرفهم، أي الحدادة أو التجارة أو استغلال بعض الأعمال خارج مكة(٥٤) والمبيعات أي الحوانيت. ولهؤلاء عدد من الخدم والعبيد، هم في ملكهم وفي ذات يمينهم، اشتروهم من أسواق النخاسة لاستخدامهم استخدام الآلة في هذا الزمن، أي في خدمة صاحب العمل ومن أجل الترفيه عنه.

وليست مكة مدينة منتجة، تنتج ما يحتاج إليه تاجرها من حاصل زراعي أو منتوج مصنوع، لفقرها وفقر الوادي الذي تقع فيه. ولهذا كان تاجرها وسيطاً ينقل من اليمن والعربية الجنوبية ما يحتاج إليه أهل بلاد الشام والبحر الأبيض والعراق من سلع، وينقل من بلاد الشآم والعراق ما يحتاج إليه أهل مكة واليمن والعربية الجنوبية وأفريقيا من تجارات. ومن هذه التجارة القائمة على الوساطة جمع

---

(٥٤) Ency, of Islam, III, p. 411.

أرباحه ورأس ماله الذي نماه وزاد فيه بنشاطه وبتشغيله بصورة دائمة مستمرة. جمعه من الفرق الذي حصل عليه من السعرين: سعر شرائه السلعة من مكانها بسعر منخفض، وسعر بيعها في أسواق محتاجة إليها بسعر مرتفع. وكانت أرباحه منها مفرطة كثيرة، تبلغ مئة في المئة في أكثر الأحيان، فكان ربح الدينار ديناراً والدرهم درهماً حصل أهل مكة على هذا الربح من تجارة القافلة التي تزعمها أبو سفيان في السنة الثانية من الهجرة مثلاً، القافلة التي من أجلها حدثت معركة بدر[٥٥].

وفي القرآن ذكر لرحلتين، كانتا لقريش في كل عام: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف. **﴿لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف﴾**[٥٦].

رحلة الشتاء إلى اليمن حيث يكون الجو ملائماً، ورحلة الصيف إلى بلاد الشآم. والرحلة عبارة عن قافلة كبيرة يشترك فيها أكثر أهل مكة، كل بما يتيسر له من مال، تخرج بحراسة شديدة وبزعامة رجل ذي بأس شديد، وشخصية قوية تتمكن من السيطرة على الحراس والخدم وتحسن التصرف في الشدائد والملمات. وعلى شخصية زعيم القافلة يكون نجاحها أو إخفاقها، ونجاح أهل مكة وإخفاقهم بالطبع. وقد رأينا كيف احتال أبو سفيان حينما كان قافلاً بقافلته من بلاد الشام فغير طريقه، وتخلص بذلك من المسلمين الذين كانوا ينتظرون وصول القافلة في الطريق المألوف للاستيلاء عليها، ولو تم

---

(٥٥) Ency. of Islam, III. p. 440.

(٥٦) سورة قريش.

ذلك، لكانت خسارة قريش بذلك كبيرة بالطبع.

ولكن تجار قريش لم يكونوا يكتفون بالرحلتين المذكورتين، بل كانوا يتاجرون في قوافل صغيرة وفي تجارات خاصة. فكان منهم من يذهب إلى العراق إلى الحيرة والأنبار، ومنهم من يتجه إلى الأسواق في المواسم يشتري ويبيع باسمه على حسابه، ومنهم من يتاجر مع الحبشة، ومنهم من يذهب إلى اليمن. وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشخاص والأسر، زاروا هذه الأماكن وتاجروا معها، وكانت لكل من الفريقين صلات بالفريق الآخر، وعقود ومواثيق مع المشايخ الذين تمر قوافلهم بتلك الأرضين، كما بيّنت ذلك في الجزء الثامن من هذا الكتاب: تاريخ العرب قبل الإسلام.

وقد تعلم هؤلاء التجار كثيراً من البلاد التي تاجروا معها، وحملوا منها الطرائف والتجارات النفسية التي يقبل عليها الأغنياء وأهل المال من أهل مكة وغيرهم ونجد في كتب اللغة أسماء أثاث وأدوات ترجع إلى أصول أعجمية، فارسية ويونانية وسريانية وهندية وحبشية، وهي بالطبع دليل واضح على ذلك الاتصال، وبعض منه ما زال حياً مستعملاً حتى الآن.

ولم يكتفِ بعض أغنياء مكة بالإتجار والتجارة، بل وجهوا أنظارهم شطر الأرض، فساهموا مع رؤساء الطائف في غرس الشجر مثل الأعناب والفواكه، وفي تأجير المزارع أو رهنها، وبذلك زادوا في ثرائهم، وحصلوا على قوت ثمين يستوردونه لمدينتهم، يبيعونه لمن به حاجة إليه، واتخذوا الطائف مصيفاً لهم، يقضون وقتاً طيباً فيه، ويتخلصون فيه من حر مكة ولظى الحرارة المنبعثة من الصخور الجرد المتوهجة.

واستغل تجار مكة الأعراب المتصلين بهم والمزارعين، فأقرضوهم المال بربا فاحش، أو بشراء حاصل عند نضجه، وقايضوهم بضاعة ببضاعة، فربحوا ربحاً حسناً طيباً، وبسطوا نفوذهم عليهم، وتقربوا إلى سادات القبائل بالهبات والقروض، للتأثير فيهم وكسب ودهم وحماية قوافلهم عند مرورها بأرضهم. وبذلك وصلت قوافلهم بأمان إلى الحيرة والأنبار وتكريت وهيت في العراق، وإلى غزة وبصرى ومواضع أخرى من بلاد الشام، وعقدوا اتفاقيات تجارية مع الفرس ومع الغساسنة حلفاء الروم. وهكذا صار تاجر مكة تاجراً عالمياً يقصد الأسواق البعيدة للبيع والشراء، وعالماً بالأحوال الاقتصادية في خارج أرضه، له خبرة ودراية بالأسعار العالمية. ومن يدري؟ فلعل فيهم من كان يجيد اللغات الأجنبية مثل الفارسية واليونانية والسريانية بحكم مجيئهم إلى بلاد يتكلم كثير من سكانها بهذه اللغات، وبحكم تعاملهم وتعاقدهم معهم. وربما كانوا يتكاتبون معهم ويتراسلون مع أقرانهم بلغة من تلك اللغات.

واستغل تاجر مكة حرمة مدينته ووجود البيت الحرام فيها، فحصّن نفسه بتلك الحرمة، وأمّن على حياته وعلى تجارته بفضل رب البيت، فكان إذا سافر أو قام بتجارة علق بعنقه وبرقاب إبله لحاء من لحاء شجر الحرم، فأمن بذلك حيث توجه، إعظاماً للحرم، فإذا رجع ودخل الحرم، قطع ذلك اللحاء من رقبته ومن رقاب أباعره[٥٧]. وهكذا استغل ثري مكة قدسية مدينته أقصى ما في استطاعته من استغلال، واستفاد منها أعظم فائدة.

---

(٥٧) الأزرقي (ص ٤٨٩).

والعظماء أصحاب الجاه والنفوذ والمال والحسب، هم عقلاء القوم ولسانهم، ما يقولونه جميل، وما ينطقون به حكمة وقول مطاع. أما السواد، فإنهم، كما يتبيّن من القرآن الكريم، تبع، لا رأي لهم ولا كلمة ولا قول مسموع، يتبعون ما يؤمرون به، ويطيعون سادتهم وكبراءهم، لا بسبب قلة عقل فيهم، وغباوة طبيعية ولدت أصيلة فيهم، بل بسبب اجتماعي كان نافذاً في ذلك العهد، نظام وصف أبلغ وصف في هذه الآيات، آية الأحزاب ٦٧: **﴿وقالوا: ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا، فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب، والعنهم لعناً كبيراً﴾**، وآية المؤمن ٤٧: **﴿فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾**، وآية سبأ ٢٢: **﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار، إذ تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أنداداً﴾**.

والعظمة عندهم هي في الحسب والنسب والمال والجاه. آباء الرجل بضاعته، ورأس ماله في التباهي والتفاخر في المجتمع: يتخايل بهم على الناس، ويتفاخر بمفاخرهم على غيره من أهل بلده. فإذا جلس في مجلس تعاظم بتعاظم آبائه وأجداده، وتفاخر بهم، وإذا دخل نادياً، أجلس في الموضع الذي يلائمه، أي في المكانة التي يتمتع بها عند الناس بحسب نسبه وحسبه. وإذا تقدم عليه أحد دونه صيتاً وشهرة في الآباء والأجداد، ثار وغضب، عاداً ذلك إهانة له وللأعراف الموروثة المقدسة التي يجب ألا تمس بسوء. وطالما وقعت الخصومات بسبب تفاخر بعض على بعض في الآباء والأجداد والأحساب والأنساب، حتى صار هذا التفاخر سمة

من سمات الجاهلية الممقوتة، وحتى نهى عنه الإسلام، وذم المتباهين بآبائهم وبأجدادهم السائرين على سنتهم، المتخذين إياهم قدوة، كما ورد ذلك في مواضع عديدة من القرآن وفي كتب الحديث[٥٨].

ولهؤلاء العظماء الكبراء أصحاب الجاه والمكانة والرأي مشية خاصة، وهيئة مصطنعة في المشي، اصطنعوها لتكون لهم علامة فارقة تميزهم عن بقية عباد الله، ولتجعلهم فوقهم حتى في السير والمشي، فلا يشبهون غيرهم من العامة السواد. فكان أحدهم إذا سار، شمخ بأنفه، وسار مختالاً متبختراً، يجر إزاره بطراً وخيلاء وكبراً وعجباً وتيهاً، فكأنه يتحدى المارة في بلوغهم المقام الذي بلغه. وإلى هؤلاء المتعجرفين المتكبرين وردت الإشارة في الآية الكريمة في الإسراء (٣٧): ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾. وفي آية لقمان (١٨): ﴿**ولا تصعّر خدك للناس، ولا تمشي في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾. وفي آية النساء (٣٥): ﴿**إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾. وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم[٥٩]، كما أشير إليهم وإلى عجرفتهم وغطرستهم في كتب الحديث[٦٠].

وكان من سمات هؤلاء المتعجرفين المتغطرسين المتباهين بالأحساب والأنساب، طعن بعضهم بعضاً في الحسب والنسب.

---

(٥٨) جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير (١١/ ٢٤٧ وما بعدها).

(٥٩) راجع فهارست القرآن الكريم فيما يتعلق بهذا الموضوع.

(٦٠) جامع الأصول (١١/ ٢٤٤) (في الكبر والعجب).

فبلد بضاعة رؤسائه التفاخر والتباهي بماضي الأسر وبماضي الآباء والأجداد، وقدر الإنسان فيه بمقدار تفاخره بحسبه ونسبه لا بعمله وفعله، لا بد أن ينتهي إلى تناول أحدهم الآخر وثلب أحدهم نسب الآخر وطعنه فيه. وهو وضع يؤدي إلى الغيبة والنفاق والشتم، ثم إثارة القلاقل والمشكلات. فكان أحدهم يلمز الآخر وينبزه بالألقاب هزؤاً وسخرية ليظهر نفسه على خصمه، شأن المجتمعات الصغيرة الجاهلة الفقيرة في هذا اليوم. وقد لاحظ الرسول ذلك، وعدّ هذه الحال من خلال الجاهلية وأمورها[٦١] ونهى عنها. ورد هذا النهي في القرآن الكريم وورد في الحديث.

ولم ينفرد السادة أشراف مكة عن الطبقة الدنيا من أبناء بلدتهم بالمشية المذكورة وحدها، بل تميزوا عنهم بطريقة كلامهم أيضاً، فكانوا إذا تكلموا، تكلموا بنبرة خاصة تشير إلى التعاظم والترفع، وبصوت مرتفع عال يدل على ارتفاع منزلة المتكلم عن منازل سائر المتكلمين والسامعين. وإقناعهم هو برفع الصوت. وقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم كذلك في الآية الكريمة في سورة لقمان (١٨): ﴿**واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾.

والسواد الأعظم فقير الحال، ولا يملك شيئاً، يعيش على حساب الطبقة العالية والأثرياء، مقابل خدمته لها وتأدية ما تطلبه منه. وهم طبقة كبيرة واسعة بالنسبة إلى سادات قريش، فقد كان في ملك بعضهم عدد كبير من الخدم والأرقاء يقومون بخدمتهم في

---

(٦١) جامع الأصول (١٢/ ٣٤١).

مقابل إعاشتهم وبقائهم، وقد كان بعض سادتهم في غاية الغلظة والقسوة والشدة عليهم، فإذا عجز الرقيق وتقدمت به السن ولم يبق في إمكانه القيام بعمله كسابق عهده، أهمله سيده وتركه وشأنه، وهذا مما أثر بالطبع في نفس هذه الطبقة، وجعلها ترجو من آلهتها الخلاص من هذا الوضع، لتتحسن حالها، ولتتمكن من تحصيل قوتها على الأقل.

وهذا الفقر أيضاً هو الذي دفع الفقراء وأصحاب الدخل المتوسط إلى الركض وراء الميسر والأزلام ومضاربات القمار كما يفعل أمثالهم في الزمن الحاضر، طمعاً في الكسب والربح، وأملاً في إصلاح الحال، وإلى وأد البنات خشية إملاق، وغير ذلك من عادات تكونت فيهم من فقرهم وإملاقهم. وقد أشير إلى بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث. ولضررها هذا نزل الأمر بتحريمها في الإسلام.

وبلدة مثل مكة مقدسة ومتاجرة وعاصمة للثقافة وللحياة الدينية ولها اتصال بالخارج، وبأرقى الأماكن بالنسبة إلى ذلك العهد لا بدَّ أن يكون بين سكانها جماعة من المثقفين ومن الباحثين في أمور الدين ومن القُراء الكاتبين والواقفين على أخبار العالم وعلى الحركة العلمية في الخارج. أما ما نجده في كتب أهل الأخبار من أخبار تفيد قلة عدد القُراء الكاتبين وتفشي الجهل في مكة وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب، وأمثال ذلك، فإن الحديث في ذلك يخرجنا عن صلب هذا الموضوع، ويدخلنا في موضوع لا علاقة رئيسة له بهذا البحث، على أنني قد تكلمت في هذا بتفصيل وإفاضة في القسم الثقافي الخاص بالجاهلية من تأريخ العرب قبل الإسلام.

ثم إن أخبار الأخباريين هذه لا تتفق مع ما نجده في القرآن الكريم من وقوف القوم على أساطير الأولين وعلى أخبار الماضين وعلى أحوال الدنيا في ذلك الزمان، ومن إحاطتهم بالقراءة والكتابة والمعرفة، بدليل ورود مصطلحات وألفاظ فيه، لا يمكن وجودها أبداً في لغة قوم ليست لهم علم ومعرفة بالقراءة والكتابة، ولا جماعة من القُراء الكتاب. وكيف يعقل ورود ألفاظ ومصطلحات ذوات مدلولات علمية وثقافية في لغة العرب وخاصة في القرآن الكريم وفي معرض مخاطبة قوم ظهر الرسول بينهم وجاء لإرشادهم مثل قرطاس وقراطيس وكتاب ومداد وأقلام وصحف و«يقرأون الكتاب»، واكتتب وتملى وقرأه وتتلى وتخطه وكتب والحكمة ويعلم والعلم وتعلمون وعلم وعالمون والعلماء، لو لم يكن لهم علم بمعاني هذه الكلمات وبمدلولاتها وإدراك تام لمعانيها ومرادها؟ ثم إن في أخبار الأخباريين أخباراً تناقض زعمهم المذكور، وذلك كما شرحته في مكانه من كلامي على النواحي الثقافية للعرب قبل الإسلام.

ووُجد بين الموالي والأجانب المقيمين في المدينة ومكة من كان يحسن الكتابة والقراءة بلغة قومه، ويقرأ كتبهم، فكانت في المدينة مدارس «مدراش» تفقه فيها اليهود أحكام دينهم، وتفسر لهم كتبهم، وتقص عليهم ما ورد في كتب أحبارهم من قصص وتفاسير في أحكام ديانة يهود. وقد بقيت قائمة حتى إجلائهم من الحجاز إجلاء جماعياً في خلافة عمر.

وقد كان هؤلاء يذيعون قصصهم بين أهل المدينة، ولعلهم كانوا يقومون بالتبشير في اليهودية أيضاً طمعاً لتكثير عددهم، وتقوية مركزهم، بعد أن تمكن عدد منهم من تهويد أناس من العرب في

اليمن، ومن تكوين جالية يهودية قوية فيها، ومن تأسيس حكومة متهودة نكلت بنصارى نجران.

وكان اليهود، كما تقول كتب الحديث والأخبار، يقولون بقرب ظهور رجل منهم يعيد إليهم المُلك، وينتقم من أعدائهم، يخوّفون به العرب، ويرجون أن يكون ذلك اليوم قريباً. وكان اليهود أصحاب ملك ومال ونفوذ في منطقة المدينة في جنوب فلسطين.

ولا بدَّ أن يكون لأهل مكة علم بما كان يقع خارج جزيرة العرب من حوادث، لا سيما العراق وبلاد الشام. وكيف لا يكون لهم علم بما كان يجري هناك، وتجارهم كانوا يسيرون قوافلهم إلى تلك الأنحاء للإتجار، وكانت سفن الحبشة والروم تقصد سواحلهم الغربية والجنوبية للإتجار، وسفن الهند والفرس تقصد السواحل الشرقية. فلا بدَّ أن يقف هؤلاء التجار على ما كانوا يرونه من تطور هناك وعلى ما كان يحدث في تلك الأرضين من أحداث وأن يسمعوا من إخوانهم عرب العراق وعرب الشام أخبار الفرس وأخبار الروم وتطورات الأحداث في العالم. ولا بدَّ أن يسمعوا من أصحاب السفن القادمة إليهم أخبار أفريقيا وأخبار الهند والسواحل المقابلة لسواحل العربية الشرقية. وفي تذكير القرآن الكريم قريشاً بغلبة الروم في (سورة الروم)، دليل على وصول خبر تغلّب الفرس على الروم إلى قريش، وإلا لِـمَ خاطب القرآن الكريم قريشاً به، منذراً إياهم بأن انتصار الفرس هذا لن يدوم طويلاً، وأنه مهما طال فلا بد أن يعود الروم، فيتغلبوا على خصومهم، ويسترجعوا ما خسروه، ولذلك فليتدبر رجال قريش، وليعتبروا بهذا الحادث العالمي الخطير.

ووصف القرآن الكريم الأعراب، أي البدو سكان البادية،

بالغلظة والقسوة والشدة وبانتهاز الفرص. جاء في الآية: ﴿**ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء، والله سميع عليم**﴾(٦٢). ووصفوا في آيات أخرى بالنفاق: ﴿**الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم**﴾(٦٣). ﴿**وممن حولكم من الأعراب منافقون**﴾(٦٤)، كما وصفوا بالانتهازية وبالتربص: ﴿**سيقول لك المخلفون من الأعراب: شغلتنا أموالنا وأهلونا، فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. قل: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك في قلوبكم، وظننتم ظن السوء، وكنتم قوماً بوراً**﴾(٦٥). ﴿**سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها: ذرونا نتبعكم، يريدون أن يبدلوا كلام الله، قل: لن تتبعونا، كذلك قال الله من قبل فسيقولون: بل تحسدوننا، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً**﴾(٦٦).

ولوضع الأعراب الصعب في البادية، وفقرهم وانقسامهم على أنفسهم إلى قبائل وعشائر لضيق سبل المعيشة في الصحارى دخل كبير بالطبع في تكوين هذه العادات في نفوسهم. إنها طبائع لم تخلق

---

(٦٢) التوبة، الآية ٩٨.
(٦٣) التوبة، الآية ٩٧.
(٦٤) التوبة، الآية ١٠٢.
(٦٥) الفتح، الآية ١١ وما بعدها.
(٦٦) الفتح، الآية ١٥.

فيهم خلقاً، وإنما نشأت وتكوّنت فيهم نتيجة لهذه الظروف التي يخلق الأعراب فيها، وبها ينشأون. فضيق ذات يدهم وفقر أرضهم وقلّة خيراتهم، كل ذلك جعلهم يقظين حذرين، منتهزين الفرص مع الغالب على المغلوب وراء الغنيمة، والغنيمة هي الرزق الطيب الوحيد الذي يقع في أيديهم والذي يمكن أن يحصلوا عليه. إنهم حذرون من أهل المدر، لا يثقون بهم. وهم يحسدونهم بالطبع لما منحتهم الطبيعة من نعم وخيرات، وقد تعوّد أهل المدن والقُرى استغلالهم والاستفادة منهم. وهم لا يملكون من سلاح يقاومون به أهل المدن إلا سلاح الغارات إن ساعدتهم الظروف وشجعتهم عليها، وإلا فبترضيتهم وبإظهار النفاق لهم، والقنوع بما يحصلون عليه منهم، وليس لهم من سبيل غير ذلك. وغلظتهم هذه وجفاؤهم وأعرابيتهم، لم تكن خلقاً خلقوا وجبلوا عليه، وإنما هي حاصل هذه الطبيعة الصحراوية، وحاصل الإنعزال بعيداً عن الحضر في البادية، فنشأ هذا الفرق بين الحضري والبدوي ولولا ذلك ما كان هنالك فرق.

ولم تشاهد مكة غزواً أو فتحاً، قام به أجنبي، إلا غزو الحبش لمحاولة الاتصال بالروم حلفائهم، والسيطرة بذلك على العربية الغربية، أو على جميع جزيرة العرب فيما بعد. ولو تم ذلك، لكان معناه خضوع هذه المنطقة المهمة المسيطرة على أخطر منطقة مائية ذات أهمية في التجارة البحرية لسلطات نصرانية. ومؤدى هذا نزول ضربة قوية مؤثرة على رقاب أعدائهم في العقيدة وفي السياسة الفرس الساسانيين أصحاب المعسكر الشرقي في السياسة الدولية لذلك العهد. وقد مني ذلك الغزو بإخفاق شديد، ليس بسبب وقوف أهل

مكة أمامه، وبسبب جيوشهم الجرارة المزودة بالأسلحة الفتاكة التي فتكت بهم وهزمتهم، بل بسبب قيام عامل آخر لم يكن لأهل مكة دخل فيه، هو انتشار وباء خبيث بين الحبش، فتك فيهم، وأهلك أكثرهم واضطر الناجون منه المتغلبون عليه إلى الفرار. وكان ذلك في السنة التي عرفت عند مكة بـ «عام الفيل».

وكأن هذا الغزو الخاسر، كان إنذاراً لأهل مكة، بوجوب التيقظ والتهيؤ، لا لطرد الحبش عن مكة وعن كل مكان من جزيرة العرب، بل لطرد كل غريب عنها، ثم لنشر رسالة عالمية بشّر بها رجل من هذه القرية، هي رسالة محمد رسول الله.

لقد حاول الإسكندر الأكبر السيطرة على العربية الغربية، وفي ضمن هذه المنطقة الحجاز، فلم يفلح أسطوله في التمكن من السواحل الجنوبية والتفافه نحو السواحل الغربية، ولو تمكن من ذلك واستولت جيوشه على المواطن البعيدة عن الساحل، لكان لجزيرة العرب تأريخ آخر. وحاول القيصر «أوغسطس» الاستيلاء عليها بعد ذلك، للاتصال بالعربية السعيدة والسيطرة عليها وعلى المحيط الهندي بعد ذلك، ولكنه لم يتمكن كما رأينا، وحاول البرتغاليون الاقتداء بفعل الحبش فلم ينجحوا، وهكذا كتب لمكة ألا تطأها أقدام الغزاة في الجاهلية وفي الإسلام.

وخلاصة ما يمكن أن يُقال عن مكة في أيام الرسول أنها كانت مركزاً مهماً في الحجاز، ذا قدسية خاصة، وذا مكانة كبيرة في عالم المال والتجارة في العربية الغربية لذلك العهد، تتحكم فيها مظاهر الجاهلية من التفاخر بالأنساب والأحساب والمال والجاه، وتسيطر عليها نزعة استبداد القوي بالضعيف، وسيطرة الغني على الفقير.

أكتفي بهذا الموجز عن أحوال مكة وسكانها، لأدخل إلى فصل جديد في ميلاد الرسول ثم في مبعثه وهو في الأربعين من عمره. وقد أؤاخذ على إهمالي البحث في أمور كثيرة كان من الواجب ذكرها عن الجاهليين بتفصيل، وجوابي أني ذكرت في المقدمة أن هذا الكتاب بأجزائه هو استمرار وصلة لأجزاء كتابي: «تأريخ العرب قبل الإسلام»، وأني لذلك اكتفيت بما ذكرت فيه عن إعادته في هذا الكتاب. فمن أراد التوسع والتبسط، فعليه الرجوع إلى هذا الكتاب.

الفصل الثالث

من الميلاد إلى المبعث

والنبي العربي هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وهو عبد الله ورسوله، ونبي وبشر مثل سائر البشر. وهو لا يختلف عن البشر إلا في النبوة ونزول الوحي عليه، فقد ورد في القرآن الكريم: **﴿قل: إنما أنا بشر مثلكم، يوحى إليّ أنما إلَهكم إلَه واحد﴾**[1].

وعلى هذه الآية وبوحيها يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتأريخها، ولو سار المؤرخ بموجبها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى، لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ، وجعل السيرة النبوية سيرة حية: سيرة نبي مرسل بالمعنى الإسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة، ولو جنب أصحاب السير المتأخرون سيرهم القصص الإسرائيلي الذي أدخل على السيرة وعلى الإسلام، والذي لا يتفق مع هذه الآية ومع أحكام القرآن، لأراحوا السيرة وجنّبوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه بعض المستشرقين كما سنرى أحكاماً وآراء أساءت كثيراً إلى الإسلام، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة وبالمسلمين.

---

(١) الكهف، الآية ١١١، البلخي، كتاب البدء والتاريخ، (٤/ ٣١).

ويعد المؤرخ الأرمني «سيبيوس Sebeos» وهو من رجال القرن السابع للميلاد، من أوائل المؤرخين الذين أشاروا إلى الرسول. وقد ذكر أن محمداً كان من «الإسماعيليين» «Ishmaelites»، وقد أنذر قومه بالعودة إلى دين آبائهم «إبراهيم Abraham»، ووعدهم بالفوز. وعلم هذا المؤرخ بالإسلام قليل جداً[٢]، وهو لم يشر إلى المورد الذي أخذ منه أخبار الرسول والمسلمين، ولا يستبعد أن يكون أحد المسلمين[٣].

ولفظة محمد، من أصل «حمد»، ومن هذا الأصل: أحمد وحامد وحماد وحميد وحمد وحُميد «تصغير حمد» ومحمود وما شاكل ذلك من أسماء[٤].

وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الجاهليين عرفوا بـ «محمد»، ونصوا على أسماء سبعة أو أكثر من ذلك عُرفوا به[٥].

---

(٢) Chronicle of Sebos, Petrograd, 1879, p. 104 ff., Ency. of Reli. and Ethi., 8, p. 872.

(٣) Ency, of Reli. and Ethi., Vol. 8, p. 872.

(٤) اللسان (٤/ ١٢٥)، الطبري (٢/ ١٧٢).

(٥) ممن سمّوا بذلك: محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، ومحمد بن عنوازة الليثي الكناني، ومحمد بن بلال بن «عقبة بن أحيحة» الجلاح الأروسي أحد بني جحجي، ومحمد بن حمران بن مالك الجعفي المعروف بالشويعر، ومحمد بن مسلمة الأنصاري أخو بني حارثة، ومحمد بن خزاعي بن علقمة، ومحمد بن حرماز بن مالك التميمي، اللسان (٤/ ١٢٥)، تاج العروس (٢/ ٣٣٩)، ابن دريد؛ الاشتقاق (ص ٦ وما بعدها)، ابن سعد: الطبقات [١/ ١] [ص ١١١]، «وذكر بعضهم: أنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم يعني محمداً قبله إلا ثلاثة»، السيرة الحلبية (١/ ٩٥)، المحبر (ص ١٣٠)، الروض الأنف (١/ ١٠٥ وما بعدها)، أنساب الأشراف، الجزء الأول «تحقيق الدكتور محمد حميد الله»، إخراج معهد =

وورد هذا الاسم في كتابة جاهلية[٦]. ووردت لفظة «محمدة» اسم علم للنساء في «كتاب الحميريين The Syrian Book of Himyarites»[٧]. كما وردت في كتابات عربية جنوبية لفظة «يحمد» في أسماء علمية مركبة تركيباً إضافياً أو مزجياً[٨]. ولفظة «حمد» اسماً لرجال ولقبيلة في بعض كتابات الصفويين.

= المخطوطات بجامعة الدول العربية ودار المعارف، القاهرة ١٩٥٩ ـ الصفحة ٥٣٨ـ، (وقد عدّ بعضهم ممن سمّى بمحمد ستة عشر، ونظمهم في قوله:

إن الذين سموا باسم محمد
من قبل خير الخلق ضعف ثماني
ابن البراء جاشع ضن ربيعة
ثم ابن مسلم بحمدي حرماني
ليثي السليمي وابن أسامة
سعدي وابن سواءة همداني
وابن الجلاح مع الأسيدي يا فتى
ثم الفقيمي هكذا الحمراني

قال بعضهم: وفاته آخران لم يذكرهما. وهما: محمد بن الحرث ومحمد بن عمر بن مغفل، بضم أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام. ووقع النزاع الكثير والخلاف الشهير في أول من سمي بذلك الاسم منهم. أقول: وفي شرح الكفاية لابن الهائم، ويمكن أن يكون من زاد على أولئك الأربعة أو السبعة، سمع ذلك من بعضهم، فاقتدى به في ذلك طمعاً فيما طمع فيه... والذي أدرك الإسلام ممن تسمى باسمه عليه السلام: محمد بن ربيعة ومحمد بن الحرث ومحمد بن مسلمة، وادعى بعضهم أن محمد بن مسلمة وُلِد بعد مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم بأكثر من خمسة عشر سنة، وقد ذكر ابن الجوزي: إن أول من تسمى في الإسلام بمحمد: محمد بن حاطب»، السيرة الحلبية (١/ ٩٨)، الآثار الباقية للبيروني (١/ ٣٨).

(٦) Corpus Inscriptionum Semiticarum, Paris IV, T. II, p. 104.

(٧) Shorter, p. 491.

(٨) Rep., Epi Semi, VII, p. 422, VII, 442.

وأما النص الجاهلي الذي ورد فيه اسم رجل يدعى «محمداً»، فهو شاهد قبر، هذا نصه: «نفس محمد بن ذت وسعت. وليقمعن عثتر ذي شترنهو»[٩]، ومعناه: «قبر محمد بن ذات وسعة «واسعة». وليقمعن «الإله» عثتر من «الذي» يزيله». ولفظة «شتر» من الألفاظ الواردة في العبرانية وفي لغة بني إرم[١٠]. وهي تعني القطع في عربية القرآن الكريم[١١].

وقد عثر على حجر حفرت فيه صورة فلاح يحرث أرضاً، وقد كتب تحت الصورة هذه الجملة «نصب يحمد قشفنقن وخرت وخل»[١٢]. ويظهر من هذه الكتابة أن اسم صاحبها هو «يحمد»، وأن هذا الاسم كان معروفاً في اليمن قبل الإسلام، وهو اسم قريب من اسم محمد.

وتذكر كتب السير أن عبد المطلب هو الذي سمى الرسول محمداً، سماه في يوم سابعه، أخذه، فدخل به الكعبة، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها، وفي هذا اليوم عق له على عادة العرب في ذلك العهد[١٣]. وتذكر أيضاً أن قريشاً «قالوا لعبد المطلب ما سميت ابنك هذا؟ قال: سميته محمداً. قالوا: ما هذا من أسماء آبائك! قال:

---

(٩) C-I-S-, IV, II, p. 104, Num. 420.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) تاج العروس الجزء الثالث مادة «شتر»، وكذلك بقية معجمات اللغة.

(١٢) تاريخ العرب قبل الإسلام (١/ ١٩٤), Rep-Ebi-, WWW, p. 422, VII, p. 442.

(١٣) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد (١/ ١٩)، المواهب (٢٤١)، الحلبية (١/ ٩٤ وما بعدها)، الروض الأنف (١/ ١٠٦ وما بعدها)، سيرة ابن هشام (١/ ١٦٦ وما بعدها).

أردت أن يحمد في السموات والأرض»[١٤].

و«العقيقة» من العادات التي كان يراعيها الجاهليون حين ولادة مولود لهم. وتكون عادة في اليوم السابع من ميلاد الطفل. وفي هذا اليوم يذبحون الذبيحة التي يسمونها العقيقة ويحلقون شعر الطفل أو بعضه، ويمسحون شعر الطفل الباقي أو رأسه بدم العقيقة، ثم يعلنون عن اسم المولود. وهي من العادات الجاهلية التي أقرها الإسلام[١٥].

ومحمد بالإجماع من أسرة تعدّ من خيرة أسر قريش، لها الزعامة الدينية في مكة، ولها مكانة اجتماعية في قومها بسبب توليها البيت الحرام، ولكنها لم تكن من الأسر الغنية. وقد ظهر فيها رجال كانت لهم رئاسة قومهم، وذكرت لهم إصلاحات عديدة وأعمال كثيرة في مكة، لها صلة بالبيت الحرام وبالمدينة، لم يشك في ذلك أحد من المؤرخين[١٦].

وقد ورد اسم النبي في أربع سور من سور القرآن الكريم، هي: آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح، وكلها سور مدنية. وقد اتخذ بعض المستشرقين ذلك حجة على الرسول لم يكن يعرف قبل الهجرة بمحمد، لكن باسم آخر، فذهب «شبرنكر Sprenger» مثلاً

---

(١٤) الاشتقاق (٦)، تأريخ الإسلام، للذهبي (٧/ ١٣ وما بعدها)، تفسير روح المعاني (٤/ ٧٣).

(١٥) صحيح البخاري (٣/ ٥٩٢)، «سمعت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقول: مع الغلام عقيقة، فأهريقوا عنه دماً، وأميطوا عنه الأذى»، التجريد (١/ ١٢٥).
Wellhausen, Reste, S. 174, Smith, Kinship, p. 152. Shorter, S. 34.

(١٦) Ency. of Reli, and Ethi, Vol. 8, p. 873.

إلى أن لفظة «محمد» لم تكن اسم علم للرسول، وإنما اتخذه بتأثير قراءته للإنجيل وإتصاله بالنصارى. وقد أيد هذا الرأي مستشرقون آخرون[١٧]. حتى ذهب بعضهم إلى أن الرسول كان يحسن اليونانية، وأنه اتخذ اسمه «محمداً» من «بارقليط Parakletos» الواردة في إنجيل يوحنا والمترجمة بـ «منحمانا، منحمنا Manhamana» في الآرامية. وذلك كما سنرى بعد قليل. فلما وجد البشارة بظهور «البارقليط»، أي «المنحمنا»، يخرج الناس من الجهالة والضلال إلى الصراط المستقيم، أخذ اللفظة السريانية وتمسك بها فادعى أنه هو «المنحمنا» وصيّر اللفظة محمداً، وألقى على لسان الإنجيل ـ كما زعموا ـ أنه هو الذي بشّر به المسيح[١٨].

وقد تطرق «كيتاني» إلى الروايات التي أوردها أهل السير والأخبار عن اسم النبي، وتطرق كذلك إلى المواضع التي ورد فيها اسم الرسول (محمد) في القرآن الكريم، ثم انتهى إلى أن من الصعب البت في الاسم الذي أطلق على الرسول يوم وُلِد وأيام طفولته. وهو في ذلك متابع لـ «شبرنكر»، الذي يستند إلى رواية صاحب السيرة الحلبية. كما سترى فيما بعد[١٩].

وقد استند هو وأمثاله من المستشرقين إلى السور المدنية

---

(١٧) Sprenger, I, S, 155 ff. Noldeke, I, S, 9, anm, I.

(١٨) Noldeke, I, S, 10, Hartwig - Hirschfeld, New Researches into the Composition and exegesis of the Qoran, London, 1902, p. 33, f. 139, Caetani, Annali, I, 151, Bethge, Rahman et Ahmad Bonn, 1876, p. 53.

(١٩) حسين جاهد: إسلام تأريخي (١/ ٣٥٢) «نوط ١» استانبول ١٩٢٤.

المتقدمة وإلى خبر ورد في كتاب: «إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون» المعروف بـ «السيرة الحلبية» هذا نصه: «وفي الإمتاع: لما مات قثم بن عبد المطلب قبل مولد رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، بثلاث سنين، وهو ابن تسع سنين وجد عليه وجداً شديداً. فلما وُلِد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، سمّاه: قثم حتى أخبرته أمه آمنة: أنها رأت في منامها أن تسميه محمداً، فسمّاه محمداً»[٢٠].

والخبر ضعيف، وقد أشار صاحب السيرة الحلبية نفسه إلى ضعفه، وهو لا يوثق به. ولم يعبأ به كبار الرواة، مما يدل على عدم صحته في نظرهم، أو عدم وقوفهم عليه.

واستندوا إلى حديث آخر يتصل سنده بابن عباس، هذا نصه: «اسمي في القرآن أي كالتوراة محمد وفي الإنجيل أحمد»[٢١].

وقول مثل هذا، لا يمكن أن يعتد به. فقد عرف الرسول بـ «محمد» في جميع أدوار حياته. وعرف بها بمكة أي قبل هجرته إلى يثرب كما عُرِف بها بعد هجرته إلى المدينة. حتى الجاهليون عرفوه بها، ودعوه بها في مخاطبتهم وفي هجائهم له، كما بايعه من دخل في الإسلام بها، ووردت في جميع كتب العهود والمواثيق. وفي كتاب الله وردت علماً، غير معرَّف. ولو كانت صفة له، لعرّفت بأداة التعريف، ولم يثبت أنها من النعوت المنقولة عن أصل يهودي أو سرياني[٢٢].

---

(٢٠) السيرة الحلبية (١/ ٩٥)، [باب تسميته صلّى الله عليه وسلم محمداً وأحمد].

(٢١) السيرة الحلبية (١/ ٩٨).

(٢٢) Noldeke, I, S, 10.

ونجد في كتاب الصلح الذي عقد بين النبي والمشركين في أمر الهدنة بعد الحديبية، دليلاً واضحاً صريحاً يفند زعم «شبرنكر». ولو كان هناك أدنى شك في اسم النبي، وكان الرسول قد تسمّى «محمداً» في المدينة، لرفض «سهيل بن عمرو» ممثل قريش ومبعوثها قبول هذه التسمية الجديدة، ولدعاه باسمه القديم. فقد اعترض «سهيل» على النبي في استعمال الجمل والمصطلحات الإسلامية، مثل جملة (بسم الله الرحمن الرحيم)، التي اعترض عليها ولم يقبل استعمالها ووافق الرسول على استعمال باسمك اللهم. ثم اعترض على استعمال جملة: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» بقوله: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فكتب: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»[٢٣].

ولم يذكر أحد من الكتبة النصارى القدماء من أمثال: «ثيوفانس البيزنطي» و«القديس يوحنا الدمشقي» وأمثالهما من الكتبة المعروفين بتهجمهم على الإسلام والذين كانوا يتلصصون الأخبار عن الرسول، تسمية من التسميات الوثنية الخالصة من مثل: عبد اللات وعبد مناف وعبد العزى وعبد ود وما شابهها كانت للرسول، ولو كان الرسول قد عرف بإحداها أو بأمثالها، لأشار ولا شك أولئك المتعصبون على الإسلام. الحاقدون عليه.

وسمى كفار قريش الرسول «مذمماً» أي ضد «محمد»، لغيظ الرسول والمؤمنين به، مما يدل على أن قريشاً كانت تعرف الرسول بهذا الاسم، وقد ورد في الخبر أن الرسول قال: «ألم تروا كيف

---

(٢٣) ابن هشام (٣/ ٣٣٢).

صرف الله تعالى عني لعن قريش وشتمهم، يشتمون مذمماً وأنا محمد»[٢٤].

وليس يضير النبي أن يكون اسمه محمداً أو أحمد أو قثم أو غيرَ ذلك من أسماء، فكل هذه وأمثالها هي تسميات لم يضعها النبي لنفسه ولم يبتدعها من عنده. لقد جاء إلى هذا العالم، فدعي بها. ومحمد وأحمد وقثم وأمثالها كلها من التسميات المعروفة في الجاهلية. وقد دعي وعرف بها قبل الإسلام بالطبع.

وفي كتاب «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع» للمقريزي: «هو سيد ولد آدم: أبو القاسم، وأبو إبراهيم، وأبو قثم، وأبو الأرامل، محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأحمد، والماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم»[٢٥]. فجعل أبا قثم بعض كناه، ولم يجعل «قثماً» اسم علم له. على أن المؤرخين لم ينسبوا للرسول مولوداً باسم قثم، كما أن الغالبية لم تذكر هذه الكنية في الكنى التي عُرف بها.

وفي أثناء حديث البلاذري عن عبد الله بن عبد المطلب، أي

---

(٢٤) ولمّا نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾. وذكر الله امرأته أم جميل، قالت: قد هجاني محمد؛ والله لأهجونه. فقالت:

محمداً «مذمماً» قلينا ودينه أبينا

وأخذت فهراً لتضربه به وهمّت». البلاذري (١/ ١٢٢). تفسير روح المعاني (٤/ ٧٣)، (٣٠/ ٢٦٤). تفسير الطبري (٢/ ٥١٤).

(٢٥) تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة ١٩٤١ (الصفحة ٣)، ابن الجوزي: المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة وعيون التأريخ والوعظ (ص ٤٠ وما بعدها). بغداد ١٣٤٨. تأريخ الإسلام، للذهبي (١/ ٢٤ وما بعدها).

والد الرسول، قال: «فأما عبد الله بن عبد المطلب ـ ويكنى أبا قثم. ويُقال إنه كان يكنى أبا محمد، ويقال: كان يكنى أبا أحمد ـ فولد محمداً رسول الله وخاتم أنبيائه»[٢٦]. فجعل أبا قثم كنية من كنى أبيه. والمعروف عن المؤرخين أن عبد الله لم يتزوج امرأة غير آمنة، وأنه لم يعقب ولداً غير الرسول وبه كني كما نرى من أبي محمد وأبي أحمد، وهما اسما النبي. فهل نعد قثم اسماً من أسماء الرسول، فنقول إنه اسم الرسول القديم الأول، ولذلك كني به، أو نعد أبا قثم مجرد كنية عرف بها عبد الله على طريقة العرب في تكنية الرجال على سبيل التحبب وإن لم يكن الرجل الذي أطلقت الكنية عليه من المتزوجين كما هو متعارف في بلادنا الآن. وقد عرف بها قبل زواجه إلى وفاته. فلما توفي عبد الله وولد الرسول، أطلق اسم قثم عليه تخليداً لتلك الكنية القديمة ثم ماتت هذه التسمية، بتغلّب اسم محمد عليه.

ومن الجائز عندي أن تكون هذه الكنية، هي التي أوهمت أولئك المؤرخين فجعلتهم يتصورون أن قثم هو اسم حقيقي، وأنه اسم الرسول الأول، ومن الجائز أيضاً أن يكون هذا الاسم، اسم ولد لعبد الله وُلِد من امرأة أخرى تزوجها قبل آمنة. غير أن هذا الافتراض يصطدم بما يذكره أهل الأخبار وما يجزمون به من أنه لم يتزوج امرأة أخرى غير آمنة، ومن أنه لم يُولد له مولود آخر غير الرسول.

ونحن إذ نذكر هذه الافتراضات، فإنما نذكرها على اعتبار أن ما

---

(٢٦) أنساب الأشراف (١/ ٩٢).

ذكره هؤلاء المؤرخون هو شيء وارد وخبر جائز وقوعه، وروايات لا داعي يحملنا على تكذيبها ورفضها، ولكننا لا نستطيع على كل حال أن نؤكدها وأن نثبتها، وأن نقول بها لمجرد أنها أخبار وردت في كتب قديمة مشهورة معتبرة، وإن رواتها أناس طيبون ثقات. فليس كل ما يروى وما يذكره أهل الأخبار كلاماً صحيحاً مضبوطاً، وإن ورد في كتب معتبرة محترمة مقدرة، فقد توفي عبد الله كما تذكر معظم الروايات والرسول في بطن أمه، ومعنى هذا أن كنيته بأبي محمد أو أبي أحمد، أو أبي قثم إنما هي في الواقع كنى أوجدها أهل الأخبار، ووضعوها هم له، أطلقوها عليه لأن الرسول ابنه، وهو محمد وأحمد فهو أبو محمد وأبو أحمد، حتى أبو قثم على فرض الأخذ بالرواية الضعيفة التي ذكرتها، إلا إذا عدنا إلى الإفتراضات ولجأنا إلى الجادة التي يسلكها بعض الأخباريين، في الوثوق بالأخبار من غير مناقشة ولا نقد، فقلنا نعم: إن هذه الكنى صحيحة، وإن عبد الله، عرف بأبي قثم أو بأبي محمد أو بأبي أحمد في حياته، فلما وُلِد المولود سمي باسم من هذه الأسماء، أو باثنين منها أو بثلاثتها، تخليداً للاسم أو للأسماء الواردة في كنية عبد الله. ومعنى هذا أنه سمي باسم قديم، وُلِد قبل ميلاد المولود.

وعلى كل حال، فقد كان لعبد المطلب ولد اسمه قثم من زوجه صفية بنت جنيدب وقد هلك صغيراً[٢٧]، كما كان للعباس بن عبد المطلب ولد عُرِف بهذا الاسم كذلك وكان فيمن غسل الرسول وولي دفنه[٢٨].

---

(٢٧) أنساب الأنساب (٩٠).

(٢٨) أنساب الأشراف (٤٤٧، ٥٣٩، ٥٦٩، ٥٧٧).

وقد ضرب اسم الرسول على هذه الصورة: [MAAMET] في النقود اليونانية اللاتينية التي ضربت للمسلمين قبل استقلال المسلمين بضرب سكتهم وتعريبها. وقد كان ذلك بتكليف من الخلفاء. وقد ضربت الشهادتان بالحروف اللاتينية وبلغة الروم(٢٩).

وسمي الرسول «أحمد» في سورة (الصف). وهي من السور المدنية وفي الآية: **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل: إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين﴾**(٣٠).

وأحمد من الأسماء الواردة عند الجاهليين، وقد ذكر أهل اللغة والأخبار أسماء جملة أشخاص عُرِفوا بأحمد، منهم: أحمد بن ثمامة بن جدعاء بطن من طيء، وأحمد بن دومان بن بكيل بطن من همدان، وأحمد بن زيد بن خداش «حداش» بطن من السكاسك(٣١).

وقد اتخذ بعض المستشرقين الآية المتقدمة دليلاً على أن الرسول غيَّر في المدينة اسمه (محمداً) فجعله (أحمد)، وأنه فعل ذلك بتأثير أهل الكتاب. فالسورة مدنية، وعدم ورود اسم (أحمد) في السور المكية دليل كما يقولون على أنه لم يكن يُعرف به، وأنه إنما سمى نفسه به في المدينة بعد مقدمه إليها، متأثراً بآراء بعض

---

(٢٩) Josef Von Karabacek, Zur Orientalischen Altiertumskunde, Wien, 1908, S. 61.

(٣٠) سورة الصف (٦١) الآية ٦.

(٣١) ابن دريد، الإشتقاق (٧).

الشيع من أهل الكتاب، وأنه ـ كما يفهم من سياق الآية ـ كان قد حكى قول عيسى في بني إسرائيل، مما يدل على أنه حكى رأياً لأهل الكتاب؛ وجعلوا ذلك دليلهم في إثبات أنه كان يعرف اليونانية كما ذكرت، وأنه كان وضعه في مكان كلمة «Paraclete, Parakletos, Paraklete»، الواردة في إنجيل يوحنا[٣٢]. وذهب بعضهم إلى أن بعض المترجمين الجاهليين كانوا قد استخدموا لفظة (أحمد) في ترجمتهم لإنجيل يوحنا، وأن الرسول تعلمها منهم، فأطلقها لذلك على نفسه. وغريب جداً قولهم إن الرسول سمى نفسه (أحمد) من تلك اللفظة اليونانية، فليس بين اللفظة اليونانية وبين التسمية العربية وهي (أحمد) شبه أو تقارب، أو معنى، كما أن الزعم الثاني وهو ترجمة بعض الجاهليين (إنجيل يوحنا) إلى العربية واستخدامهم لفظة أحمد في موضع اللفظة اليونانية، هو زعم غريب لا يستند إلى خبر تأريخي. ولو كان ذلك حقاً لما سكت عنه المؤرخون العرب أو السريان. ثم إن استعمال هذه اللفظة في تلك الترجمة معناها إفساد للترجمة، وافتراء عليها، وهذا ما لا يمكن السكوت عليه أو وقوعه من أحد[٣٣].

وقد كتب الإنجيل المذكور باليونانية، وترجمت لفظة (Parakletos) في الإصحاح الخامس عشر وفي الآية السادسة والعشرين وفي مواضع أخرى منه، بلفظة (Comforter) وبـ (Advocate) وبـ (Helper) في الإنكليزية[٣٤]، وبـ (المعزي) في

---

(٣٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الخامس عشر، الآية ٢٦ وما بعدها.

(٣٣) Noldeke, S, 9, anm, I.

(٣٤) Hastings, p. 15.

العربية[٣٥]. وأقرب هذه الكلمات إلى المعنى الصحيح لفظة (Advocate) المقابلة للفظة (Advocatus) في اللاتينية، ومعناها في العربية المحامي والمعين والمدافع والنصير والمساعد والمواسي[٣٦]. وقد ترجمت الآية على هذه الصورة في العربية: (ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق، الذي من عند الرب ينبثق، فهو يشهد لي).

وقد حافظ الأخباريون على الأصل اليوناني للفظة، ولم يترجموها. فجاء في السيرة الحلبية: «وفي الإنجيل: إن أحببتموني، فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى ربي، فيعطيكم بارقليط. والبارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة. ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه ما يسمع يكلمهم به، ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث والغيوب»[٣٧]. وقد ذكر صاحب السيرة أن البارقليط أو الفارقليط هو الحكيم والرسول[٣٨].

وقد أخذت هذه الترجمة من إنجيل يوحنا، من الإصحاح الرابع عشر، ففيه: «إن كنتم تحبوني، فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الأب، فيعطيكم معزياً باراقليط آخر»[٣٩]. ومن الإصحاح السادس عشر من الإنجيل نفسه، ففيه: «لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي «البارقليط»، ولكن إن

---

(٣٥) راجع ترجمة التوراة الأميركانية.

(٣٦) Hastings, p. 15.

(٣٧) السيرة الحلبية (١/٢٤٨).

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) الآية ١٥ وما بعدها.

ذهب أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك، يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة... وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. ذلك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم»[٤٠]. والحديث كما نرى هو عن رجل يأتي من بعد المسيح ليبكت العالم على الخطيئة، وليرشدهم إلى الحق.

وقد ذكر المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف»، أن المانوية تقول بالفارقليط، الذي وعد به المسيح، وهو «ماني» عندهم، وذكر أن ماني نفسه ذكر ذلك في كتابه «الجبلة» وفي كتابه المترجم بالشابرقان وفي كتاب سفر الأسفار وغيرها من كتبه[٤١]. وذكر ذلك مؤلفون آخرون أيضاً[٤٢]. ولهذه الإشارة شأن خاص في دراسة موضوع (المخلص المنتظر). ولا أستبعد أخذ بعض العرب هذه الفكرة من القائلين بظهور الفارقليط.

وذكر بعض الأخباريين أن الرسول هو (المنحمنا) في الإنجيل، و(المنحمنا) بالسريانية محمد[٤٣]. وهذه اللفظة هي «منحيم، مناحيم Menahem» في العبرانية، وهي من الصفات التي نعت بها العبرانيون (المسيح)، وهي (Consolator) و(Comforter) في اللغة الإنكليزية،

---

(٤٠) الآية ٧ وما بعدها إلى ١٧.

(٤١) (ص ١١٧، من طبعة الصاوي، في أثناء كلامه على الطبعة الأولى، (من ملوك الروم، وهم الصابئون).

(٤٢) Noldeke, I, S, 9, F. Flugel, Mani, S, 51, 64, 162, f, Eusebius, his, ECCL, VII, 31.

(٤٣) «والمنحمنا بالسريانية: محمد، وهو بالرومية: البرقليطس»، ابن هشام (١/ ٢٤٨)، السيرة الحلبية (١/٢٤٨).

أي المسلي والمعزي[٤٤]. وقد وردت في مواضع من التلمود والمدراش. وهي من الألفاظ المعروفة عند آرم فلسطين النصارى[٤٥]. ومن هذا التقارب الملحوظ بين لفظة (منحمنا) السريانية المستعملة بدلاً من لفظة (بارقليط) الواردة في إنجيل يوحنا باليونانية، ولفظة (محمد)، استخرج أولئك المستشرقون رأيهم في أن الرسول أخذ اسمه ودعوى نبوته من ذلك الإنجيل.

والذين قالوا إن (المنحمنا) بالسريانية هي محمد، وإنها (البرقليطس) بالرومية[٤٦]، وقد أخذوا قولهم هذا من مسلمة يهود ومن النصارى في جملة ما أخذوه عن أهل الكتاب وهو من هذا القصص الذي نرجو أن يأتي يوم يتدارسه فيه العلماء دراسة علمية عميقة مبنية على النقد والمقابلة مع الأصول اليهودية والنصرانية القديمة، ليكون في الوسع البت في أمثال هذه الموضوعات، فيقوم فيه العلماء بتثبيت الموارد على وفق التسلسل التأريخي، وبمراجعة الروايات والأخبار ونقد سندها ورجالها، ومقابلة الإسرائيليات والنصرانيات بأصولها الواردة عند اليهود والنصارى، وعندئذ ستكون لدينا دراسة علمية دقيقة ترشدنا إلى حقائق من صلات الأديان بعضها ببعض، نجهلها في هذا اليوم.

وليس لبعض المستشرقين القائلين إن الرسول أخذ اسمه محمداً من لفظة (حمدث Hemdath) الواردة في سفر [حجي Haggai] في

---

(٤٤) Hastings, p. 15.

(٤٥) Levy, Neuhebr, Worterbuch, III, S. 153, Noldeke, S, 9.

(٤٦) عيون الأثر (١/ ٦٧).

العهد القديم، سند ودليل يؤيد هذا الزعم[٤٧]. وتعني هذه الكلمة (المشتهى) و(الأمل)، أي أنها بمعنى له صلة بفكرة الرجل المنتظر (Messiah). ويرى الباحثون في هذا الزعم أن ذلك مجرد مصادفة، لأن لفظة محمد من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين والواردة في الكتابات الجاهلية، وليست من الأسماء المجهولة عند العرب قبل الإسلام، فيقال إن الرسول أخذ اسمه من هذا الموضع من العهد القديم[٤٨].

وذكر بعض الأخباريين أن الرسول هو [مشفح]، و[مشفح] كلمة أرمية من أصل (شفحا) الإرمية وتعني (الحمد)، كما في هذه الجملة (شفحا لاها) أي (الحمد لله)[٤٩]. ويظهر أن أحد السريان أخبر الأخباريين أن لفظة أحمد هي في معنى (مشفح)، وأنها اسم علم عندهم. ومنه أخذ أولئك الأخباريون قولهم إن (مشفح)، من أسماء الرسول.

وذكر صاحب السيرة الحلبية أن الرسول هو أيضاً (حمياطاً)، وقيل [حمطايا]، أي يحمي الحرم من الحرام. و[قدمايا] أي الأول السابق. و[ينديند] و[أحيد]، بمعنى يمنع نار جهنم عن أمته. و[طاب طاب] أي طيب. وذكر أن كل هذه الألفاظ هي أسماء في التوراة[٥٠].

---

(٤٧) حجي، الإصحاح الثاني، الآية السابعة.

(٤٨) Ency, of Reli, and Ethi, Vol, S, p. 873.

(٤٩) تأريخ الخميس (١/٢٠٦).

Goldziher, in ZDMG., Bd, 32, 374, Noldeke, I, S, 9.

(٥٠) السيرة الحلبية (١/٢٤٨).

وذكر أيضاً أنه [منحمنا] كما ذكرت، و[حنبط] أي يفرق بين الحق والباطل، و[البارقليط]، و[صاحب المدرعة]، وأنه [راكب الجمل]، وكل ذلك في الإنجيل(٥١).

وكل هذا المروي عن [حمطايا] و[البارقليط] و[مشفح] و[منحمنا] و[شفحا] و[حنبط] وأمثاله، هو من الأخبار التي نقلها الأخباريون عن أهل الكتاب. وهو يتعارض مع طبيعة رواية السيرة الواردة في أقدم كتب السير والتواريخ، ولو كان بحثنا في موارد السيرة النبوية، لكتبنا في ذلك، ولرجعنا إلى المصادر التي أمدت الأخباريين. ولكن كتابنا هذا في موضوع آخر لا علاقة له بنقد الموارد والمراجع. وهو إيراد السيرة نفسها، ولذلك نترك هذا الأمر لغيرنا راجين أن يأتي يوم يتولى فيه باحث من الباحثين دراسة هذا الموضوع.

ويلاحظ أن بعض الروايات ترجع تسمية النبي [أحمد] إلى يوم ولادته، فتذكر أن [آمنة] ألهمت أن تسمي ابنها [أحمد] يوم شعرت بدنو ولادته(٥٢). والمعروف في الروايات المشهورة أنه سمي بـ[محمد]. ثم إن اشتهار النبي بمحمد، وورده في مراسلاته مع المشركين والقبائل وفي صحف العقود والصلح والشعر في مكة ثم في المدينة، وفي مواضع من القرآن الكريم، كل ذلك دليل على أن اسم الرسول الأول هو محمد، وأن التسمية الثانية، وهي أحمد، المذكورة في موضع واحد من القرآن الكريم إنما اشتهر بها بعد

(٥١) السيرة الحلبية (١/ ٢٤٨).

(٥٢) طبقات ابن سعد (١/ ١٠٤ وما بعدها)، «أمرت آمنة وهي حامل برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أن تسميه أحمد».

التسمية الأولى. بعد مقدمه المدينة، وهي دون الأولى في الاستعمال.

عرف الرسول بكنيته أيضاً، وهي أبو القاسم، والغالب ذكرها قبل اسمه، فيقال أبو القاسم محمد، وذلك في باب الاستعانة به في الغالب، والقاسم هو ابن الرسول الأكبر، وقد توفي في حياته(٥٣). وهذا الاسم هو من الأسماء الواردة في الكتابات الجاهلية. وقد ورد في بعض الكتابات الصفوية(٥٤).

وليس للرسول اسم علم غير هذين الاسمين الواردين في القرآن الكريم. غير أن أهل السير والأخبار يذكرون له أسماء أخرى لم ترد في القرآن الكريم، وإنما هي في الواقع نعوت وأوصاف له مثل المتوكل والماحي والحاشر والعاقب والمقفي ونبي التوبة ونبي الرحمة ونبي الملحمة والفاتح والأمين(٥٥).

---

(٥٣) [تسمّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي، فإني أنا أبو القاسم]، [لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي]، ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/ ١٠٦ وما بعدها). (طبعة بيروت ١٩٥٧) (دار صادر)، (كتاب نسب قريش، تأليف أبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، وتحقيق (ليفي بروفينسال، طبع دار المعارف للطباعة والنشر) (ص ٢١).

(٥٤) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام (٧/ ٢٣٣).

(٥٥) «أنا محمد وأحمد والحاشر والماحي والخاتم والعاقب»، أنا محمد وأحمد والحاشر والمقفي ونبي الرحمة». «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي الرحمة والتوبة والملحمة»، ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/ ١٠٤) وما بعدها «ذكر أسماء الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، وكنيته». (طبعة بيروت، دار صادر ١٩٥٧». ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (١/ ٢٠ وما بعدها)، المواهب اللدنية (٣/ ١٣٣ وما بعدها).
Sprenger, I, S, 156, Ency. of Reli. and Ethi. Vol. 8, p. 872.

وقد اشتهر الرسول بـ (المصطفى) كثيراً، وإذا قِيل (دين المصطفى)، عني به (دين محمد)، أي الإسلام. وترد لفظة (المختار) بعد «المصطفى»، ويراد به الرسول. وترد اللفظة معرَّفة بأل. وقد وردت علماً بغير أداة تعريف، وهي تسمية الأشخاص. ومن مثال ورود لفظة المصطفى في الشعر ما مدح به الحزين الكناني طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر:

أبـوك الـذي صـدق الـمـصـطـفـى
وسـار مـع الـمـصـطـفـى حـيـث سـارا[٥٦]

والشائع بين الناس أن «طه» و«يس» من أسماء الرسول. ولكن المفسرين لا يذهبون إلى ذلك، بل هم يرون أنهما من أوائل السور، وأن حكمهما حكم أوائل السور. وقد ذهب بعضهم إلى أن «طه» بمعنى «يا رجل» في النبطية، وذهب آخرون إلى أنها سريانية، وذكر غيرهم أنها بمعنى «يا إنسان»، وأنها نبطية أو سريانية[٥٧]. وذهبوا في تفسير لفظة «يس» هذا المذهب كذلك، فذكر بعضهم أن حكمها حكم أوائل السور، وذكر بعض آخر أنها من أسماء الله، وذكر آخرون أنها بمعنى «يا رجل» و«يا إنسان» بالحبشية[٥٨].

ويلاحظ أن الروايات التي تفسر اللفظتين بـ «يا رجل» أو بـ «يا

---

(٥٦) المحبر (ص ١٥٢).

(٥٧) تفسير الطبري (١٦/ ١٠٢ وما بعدها)؛ «في طه قولان للمفسرين أحدهما. . . . ثم قال سعيد بن جبير بلسان القبطية «النبطية». وقال قتادة: بلسان اليونانية والسريانية. وقال عكرمة بلسان الحبشة. . .»، تفسير النيسابوري، المطبوع حاشية على تفسير الطبري (١٦/ ٧٦ وما بعدها).

(٥٨) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٧ وما بعدها).

إنسان»، والتي ترجع أصلهما إلى النبطية أو السريانية أو الحبشية، ترتفع روايتها إلى «ابن عباس». ونرى أن أكثر القصص الإسرائيلي ينسب إليه كذلك. ومعظم من يروي هذه الروايات ويرفعها إلى ابن عباس، هم أشخاص لا يطمأن إليهم، عرفوا بروايتهم الأخبار الضعيفة والأكاذيب، واشتهروا بالتدليس.

وكانت قريش تنسب النبي إلى أبي كبشة، فيقولون: قال ابن أبي كبشة، وفعل ابن أبي كبشة. ويذكر الأخباريون أنهم إنما دعوه بذلك لأن وهب بن عبد مناف أبا آمنة كان يكنى أبا كبشة، وأن عمرو بن زيد بن لبيد النجاري كان يكنى أبا كبشة كذلك. وعمرو هذا هو جد عبد المطلب. وكان وجز بن غالب بن عامر بن الحارث يكنى بهذه الكنية كذلك، وهو جد النبي من قبل أمه. وكان الحارث بن عبد العزى بن رفاعة حاضن رسول الله يكنى أبا كبشة كذلك. وامرأته حليمة بنت الحارث[٥٩].

وذكر بعض أهل الأخبار أن أبا كبشة «كان قد استخف بالحرم وأهله، في فعلة فعلها. فكانت قريش تقول للنبي، صلَّى الله عليه وسلّم: فعل ابن أبي كبشة كذا، يشبهونه إذا خالف دينهم»[٦٠]. وذكر أن أبا كبشة كان قد عبد الشعرى، وكان أول من عبدها، ولم تكن قريش تعبدها، وبذلك خالف قريشاً[٦١]. فقالت قريش ذلك للرسول لما خالفها في عقيدتها، تذكره بأنه لم يكن أول من خالفها، وأنه خالفها، كما سبق أن خالفها ابن أبي كبشة قبله.

---

(٥٩) المحبر (ص ١٢٩).

(٦٠) أنساب الأشراف (١/ ٩١)، بلوغ الأدب (٢/ ٢٣٩).

(٦١) المصدر نفسه الحاشية.

ولم يكن أبو كبشة أول من خالف قومه قريشاً في عبادتهم، وصبا إلى عبادة أخرى. فإننا نجد في كتب أهل الأخبار أسماء رجال غضبت على وثن، فتجنبته، أو تركت عبادة جملة منها، كما نجد أناساً يجددون أوثانهم فيستوردون أوثاناً جديدة، ويتقربون إليها، لا سيما إذا كان ذلك المجدد من الرؤساء والسادات. وقد يكون هذا التجديد لمصالح خاصة من نحو جر مغنم، وكسب أتباع وأشياع وعبدة يستفاد منهم بما يتقربون به إلى الصنم الجديد من قرابين ونذور. ولم يكن من الضروري وضع ذلك الصنم في الكعبة، بل كانوا يضعونه في مختلف الأماكن وحتى في بيوت الشعر، التي تتنقل مع الأعراب، كما فعل العبرانيون يوم كانوا بدواً يتنقّلون من مكان إلى مكان. فلما ظهر الإسلام، حطمت أصنام مكة، كما حطمت أصنام في أماكن عديدة من جزيرة العرب، كانت معبودة هناك.

أما مولده، فكان يوم الاثنين التاسع أو الثاني عشر أو السابع عشر من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان. ويوافق شهر أبريل سنة ٥٧١م[٦٢]. ويجعله بعض المستشرقين السنة ٥٧٠ للميلاد[٦٣].

---

(٦٢) المعارف (ص ٦٥)، ابن سعد (١/ ١، ٦٢)، الطبري (٢/ ١٧٢)، ابن كثير (٢/ ٢٥٩)، الإمتاع (٣)، جوامع السيرة لابن حزم (تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد (٥))، تهذيب ابن عساكر (١/ ٢٨٠)، ابن سيد الناس (١/ ٢٦)، تأريخ الذهبي (١/ ٢١)، تنقيح الفهوم (٤)، (١) تاريخ الخضري (١/ ٦٢).

(٦٣) Sprenger, I, S, 138, Shorter, p. 391, H. Lammens, l'Age de Mohamet et la Chronologie de la sira, in Journal Asiatique, Serie XI, T. 171, p. 109, ff.

وروي أن مولده كان لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول[٦٤]، وقيل لعشر ليال مضت من ربيع الأول، وقيل: لثمان مضت منه، وقيل: لثماني عشرة ليلة خلت منه، وقيل: لثماني ليال خلت من شهر رمضان، وقيل: وُلِد في صفر، وقِيل في ربيع الآخر، وقيل في المحرم، وقيل: في عاشوراء.

ويظهر من دراسة هذه الروايات المختلفة أن رواية ولادته في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل، كانت هي الرواية الراجحة عند أهل الأخبار والسير في النصف الأول من الهجرة أما الروايات الأخرى التي ذكرتها فإنها متأخرة عن هذه الرواية، وقد تعددت بتعدد الرواة والموارد التي أخذ منها كتّاب السير المتأخرون.

والغالب بين أهل السير أن مولده كان في عام الفيل، على أن هنالك روايات أخرى تذكر خلاف ذلك. تذكر أن مولده كان بعد الفيل بعشر سنين، وقيل: بثلاث وعشرين سنة، وقيل: بثلاثين سنة: وقيل: بأربعين سنة، وقيل: بسبعين سنة. وفي بعض الروايات أن مولده كان قبل عام الفيل بعشر سنين، أو خمس عشرة سنة. وقد حاولت بعض الأخبار تعيين اليوم من عام الفيل، فقالت إنه كان في يوم الفيل، وفي روايات أخرى أنه كان بعد الفيل بخمسين يوماً، وقيل بأربعين يوماً، وقيل بخمسة وخمسين يوماً، وقيل بشهر واحد[٦٥].

---

(٦٤) ابن هشام (١/ ١٦٧)، المحبر (ص ٨ وما بعدها).

(٦٥) الحلبية (١/ ٦٧ وما بعدها)، أبو عبد الله الزنجاني: تاريخ القرآن (ص ن وما بعدها)، المقريزي، إمتاع الأسماع (١/ ٣ وما بعدها) (القاهرة ١٩٤١)؛ البدء والتأريخ (٤/ ١٣١ وما بعدها)، عبد الباسط الحنفي، غاية السول في سيرة الرسول، الآستانة (١٣٢٨)، (٦)، وسيكون رمزه: غاية.

وقد اختلف الرواة أيضاً في الوقت الذي وُلِد فيه، فقيل: وُلِد في النهار، وقيل: في الليل، كما اختلف في الوقت من النهار أو الليل: هل كان صباحاً أو سحَراً، واختلف أيضاً في اسم اليوم(٦٦).

ويرى بعض المستشرقين استناداً إلى دراسة كتب السير أن عام الفيل كان قد وقع قبل السنة ٥٧٠ للميلاد، وأن إيراد عام الفيل في كتب السير هو من قبيل السهو الذي وقع فيه المؤرخون، ويرون أن السنة ٥٨٠ للميلاد أو ٥٨١ أو ٥٨٢ للميلاد هي أوفق سنة يمكن أن تكون سنة لميلاد الرسول(٦٧).

ومردّ هذا الاختلاف إلى العادة التي كانت عند الجاهليين في عدم تسجيلهم تواريخ الميلاد. وهي عادة أكثر الشرقيين حتى الآن. ولم يتقيد الناس في الوقت الحاضر بتسجيل تواريخ الميلاد إلا بسبب القوانين الحديثة لدى الدولة وبسبب التعميد عند النصارى. ثم إن الجاهليين إن أرخوا، فإنما أرخوا الحوادث العظيمة عندهم فقط، كما قالوا عام الفيل مثلاً، ومن قبله عام الخنان، ونحو ذلك من غير

---

(٦٦) الحلبية (١/ ٧٠)، ابن سعد: الطبقات (١/ ١٠٠ وما بعدها)، «طبعة بيروت»، والموارد المتقدمة، إسلام تأريخي (١/ ٢٨١ وما بعدها)، «وُلِد بمكة بعد قدوم أبرهة بخمسين ليلة. وكان أول يوم من المحرم، عام الفيل يوم الجمعة. وقدم الفيل يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم، سنة ثماني مائة واثنين وثمانين للإسكندر الرومي، وستة عشر ومائتين من تأريخ العرب الذي أوله حجة الغدر وسنة أربع وأربعين من ملك أنوشروان بن قباذ ملك العجم فيما يروى. وكان مولده يوم الاثنين لثماني ليال خلون من ربيع الأول. وقال ابن إسحاق لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول»، البدء والتاريخ (٤/ ١٣١ وما بعدها).

(٦٧) الحلبية (١/ ٦٧ وما بعدها). Shorter, p. 391.

أن يقيدوه بالشهر واليوم والساعة، وهكذا كانوا يؤرخون دائماً حوادثهم الكبار، إلى أن جاء الإسلام، وتوفرت الداعية على اتخاذ التاريخ الهجري.

ولو كان أبرهة قد سجل حادث سير الحبش على مكة، لأفادنا بذلك كثيراً ولا شك، ولأستطعنا به تعيين تأريخ ذلك الغزو على وجه مضبوط أو قريب منه. ولكنه لم يفعل ذلك ويا للأسف، فلم يترك لنا لا هو ولا غيره كتابة تخص هذا الموضوع، إلا أن هذا لا يعني بالطبع، قطع كل أمل لنا بالعثور على كتابة ما قد تكون لها صلة بهذا الحادث، فلا يزال في باطن الأرض عدد عديد من النصوص ينتظر وصول الأيدي إليه لإخراجه من عالم الظلمات إلى عالم النور، وقد يكون من بينها ما له صلة مباشرة أو غير مباشرة بهذا الغزو. وقد تجود الأيام علينا بنص يوناني أو حبشي يرد فيه شيء عن حملة أبرهة على مكة، يكشف القناع عن تلك الحملة الخائبة وعن غاية أبرهة منها وعن العوامل التي دفعته للقيام بها. وسوف يكون لهذا النص أهمية كبيرة ولا شك في تثبيت هذا التأريخ.

أما أبوه، فهو عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فهو من قريش، ومن أهل مكة. وقد توفي عبد الله، والنبي في بطن أمه أو بعد ولادته بسبعة أشهر، أو بأكثر من ذلك، توفي بالمدينة، وكان عائداً من بلاد الشام بتجارة له، فدفن فيها عند أخواله بني عدي بن النجار[٦٨]، في دار عرفت بـ «دار

(٦٨) «وُلِد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم بمكة، وعاش يتيماً، إذ مات أبوه وهو عليه السلام لم يكمل له ثلاث سنين»، جوامع السيرة (ص ٥)، الإمتاع =

النابغة»[٦٩]. وقيل في دار من دور بني عدي بن النجار[٧٠].

وعبد الله من الأسماء المعروفة عند الجاهليين، وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الرجال عرفوا بعبد الله[٧١]. كما أنه من الأسماء الواردة في الكتابات الجاهلية الشمالية[٧٢]، وفي النصوص النبطية[٧٣].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن أبا الرسول لم يكن يُعرف بهذا الاسم، وإنما كان يسمى باسم آخر من الأسماء الوثنية، وأن الرسول هو الذي سمّاه «عبد الله» على قاعدته في تحويل الأسماء الجاهلية إلى أسماء إسلامية، أو أن المسلمين هم الذين سمّوه بهذا الاسم، لإثبات أن آباء النبي وأجداده كانوا جميعاً من الموحدين. وورود اسم «عبد الله» في الكتابات الجاهلية كما ذكرت آنفاً حجة كافية في إدحاض هذا الزعم. ثم إن الرسول حينما تفاوض مع

= (٥)، ابن قيم الجوزية زاد المعاد (١/١٧)، الحلبية (١/٤، ٥٨ وما بعدها)، الطبري (١/٩٦٧، ٩٧٩)، ابن سعد، الطبقات (١/٥٣ وما بعدها)، سيرة ابن هشام (٩٧ وما بعدها)، اليعقوبي (٢/٨)، الحلبية (١/ ٥٩)، سيرة ابن هشام (١/١٦٠ وما بعدها)، طبعة القاهرة ١٩٣٦، غاية (ص ٧).

(٦٩) «ويُقال إنه دفن في دار النابغة في الدار الصغرى»، حاشية (٢) على سيرة ابن هشام (١/١٦٧) «طبعة القاهرة ١٩٣٦»، ابن سعد (١/٩٩)، «طبعة بيروت»؛ Erey-, I, p. 21, Sprenger, I, S, 145، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس (القاهرة ١٣٥٦) «ودفن في دار النابغة»، (٢٦١).

(٧٠) عيون الأثر (٢٥١).

(٧١) راجع كتاب الاشتقاق لابن دريد وموارد أخرى.

(٧٢) Rep. Epi. Semi., III, I, p. 130, Mum: 1407.

(٧٣) Rep. Epi. Semi., III, I, p. 132, Num: 1414.

قريش وأمر بتدوين العقود معها ومع غيرها، كان يأمر بتدوين: «محمد بن عبد الله»، ولو كان اسم أبيه شيئاً آخر، لأشار المشركون إليه، ولطلبوا منه تدوينه، ولمانعوا في تدوين هذه التسمية الإسلامية الجديدة التي لا يدينون بها ولا يعترفون، كما اعترضوا عليه يوم أمر بتدوين: (بسم الله الرحمن الرحيم) في صلح الحديبية، وأبوا إلا كتابة جملة (بسمك اللهم)، وهي مصطلح الجاهليين في افتتاح الرسائل والعهود.

وقد ذهب المستشرق الإيطالي «كيتاني» إلى أن الرسول ووالده عبد الله، لم يكونا من أهل مكة في الأصل، بل كانا من أهل يثرب، أي المدينة، ثم حاول أن يجد مطعناً في النسب، بإبعاده عن قريش، وبإبعاد العدنانيين عموماً عن العرب، وتحدث عن روايات أهل الأخبار في «العرب المستعربة». والرسول كما هو معروف وكذلك بقية العدنانيين هم من هؤلاء العرب كما يذكر أولئك الرواة. بل ذهب إلى احتمال وجود نسب له بالإسرائيليين، وحجته في ذلك وجودهم في يثرب، وكون أهله من يثرب. وهذا التجاور والاتصال والسكنى في مكان واحد، يبعث على استخراجه ورأيه إلى الالتحام في النسب، والتزاوج في الرأي والعقائد وما إلى ذلك[٧٤].

وقد فعلت آراء هذا المستشرق وأمثاله في عقول بعض السذج السخفاء، فظنوا أن فيها اكتشافات عجيبة غريبة، وأن فيها التفاتات نبيهة لم ينتبه إليها الناس، وإني لأعجب من أولئك الذين يأخذون بنزوات وبترهات بعض الأخباريين، فيعدونها حجة يبنون أحكاماً

---

(٧٤) إسلام تاريخي (١/ ١٣٦ وما بعدها).

وقواعد عليها، وإذا قلنا كما قالوا إن العدنانيين لم يكونوا عرباً في الأصل، بل هم عرب استعربوا، وإن محمداً ليس عربياً، بل هو أعجمي مستعرب، ودليل عجمته نبوغه ونبوته، فهل يكون في المنطق هراء أقبح وأشنع من هذا الهراء؟

وسواء أكان عبد الله والد الرسول من أهل يثرب أو من أهل مكة، فإن محمداً لم يُولد بإجماع الرواة إلا في مكة، وفيها نشأ وعاش أكثر عمره إلى الهجرة، ولم يرد غير ذلك في أي خبر من الأخبار التي ذكرها الأخباريون.

وغاية «كيتاني» من هذا الزعم، الغمز والهمز واللمز للرسول، لإظهار أن ما جاء به كان بوحي من يهود يثرب وتعلّمه منهم، وبدس من عرق يهودي كان في دم الرسول. ولو فطن كمؤرخ لقيم روايات أهل الأخبار، ووجوب مناقشة الرواية أولاً، ومناقشة رجالها والأيام التي ظهرت فيها، وعلم أن ما روي وقِيل عن الرسول، وما استند إليه هو مما لا يقف أمام النقد والتعديل والجرح، وأنه من النوع الذي ظهر متأخراً في بعض كتب السير والأخبار، ثم لو أدرك أن أكثر ما يرويه أهل الأخبار عن الجاهلية وأيام الرسول الأولى هو مما يجب النظر إليه بحذر وتبصر، لكان حكمه، فيما أرى، حكماً آخر، ولكان رأيه في أكثر ما كتبه في السيرة مخالفاً لما ذهب إليه.

ولكن «كيتاني» ذو رأي وفكرة، وضع رأيه وكونه في السيرة قبل الشروع في تدوينها. فلما شرع بها، استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويها، وتمسك بها كلها، لا سيما ما يلائم رأيه، لم يبال بالخبر الضعيف، بل قواه وسنده، وعدّه حجة، وبنى حكمه عليه. ومن يدري؟ فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب

المشهورة المعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنها، وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها؛ لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها، إن ترك تلك الروايات، وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل، على أساليب البحث الحديث، فصار مسلكه في تدوين السيرة مسلك أولئك الذين قبلوا القصص الإسرائيلي من المسلمين، والقصص الموضوع المتأخر الذي يجافي روح القرآن وعمل الرسول، لما فيه من إغراق في رواية الخوارق وابتعاد عن حدود العقل، لظنهم أن ذلك مما يزين السيرة، ويكسبها رواء، ويقربها إلى أفهام الناس، دون أن يفطنوا إلى أن رواية هذا النوع من القصص مضرّ بالتأريخ ومضرّ بالحق. والطريقان بالطبع خاطئان مضللان: طريق «كيتاني» و«شبرنكر» قبله، في قبول كل شيء، يريان فيه تأييداً لوجهة نظرهما في الغمز واللمز، لمخالفتهما الإسلام في العقيدة. فاستعانا لذلك بالأخبار الضعيفة التي رواها هذا الفريق من رواة السيرة من الضعفاء والمتروكين، وطريق هذا الفريق الذي استقى من معين أخباره «كيتاني». وهو فريق ربما دفعته حسن النية والعاطفة الطيبة المناقضة لعاطفة «كيتاني» في الإسلام، إلى قبول كل رواية فيها إغراق، كما فعل كتبة اليهودية والنصرانية القدامى في تدوين سير الأنبياء والقديسين والشهداء، ظناً منهم أن في ذلك إرضاء للإسلام وللرسول متأثرين بأسلوب المذكورين في كتابة أخبار الرسل والأنبياء والشهداء، ولم يفطنوا إلى أن ذلك مخالف لجوهر الإسلام في الواقع، وأن ما ذكروه ورووه لا ينفع الإسلام ولا يرفع من شأنه، كما أن إهماله لا يضره شيئاً ولا يحط من قدره. ولكنها العاطفة،

عاطفة البغض وعاطفة الحب، والعاطفة متى دخلت قلب امرئ، أبعدته عن العقل والصواب.

ونظراً إلى ما نعرفه من وجود الأوبئة في يثرب، لا سيما وباء «الملاريا» (حمى يثرب)، فلا يستبعد أن يكون هذا المرض هو السبب في وفاة عبد الله في المدينة ودفنه هناك.

وتذكر كتب السير أن هاشم بن عبد مناف، جد عبد الله، كان قد خرج في تجارة له ببلاد الشام فلما كان في غزة توفي هناك[٧٥]. وكانت غزة من المدن التي يقصدها تجار الحجاز، فيبيعون فيها ما عندهم من تجارة، ويشترون منها ما في أسواقها من تجارة بلاد الشام أو ما ورد إليها من مصر أو من حوض البحر المتوسط، وهي من المدن الفلسطينية التي كان يقيم فيها العرب قبل الميلاد.

وأما أمه، فآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، تزوّجها عبد الله، وهو في الرابعة والعشرين من عمره. خطبها عبد المطلب وابنه عبد الله من أبيها وهب على رواية، أو من عمّها أهيب على رواية أخرى، لوفاة والدها قبل ذلك، فكانت آمنة في كفالة هذا العم[٧٦].

وكان بنو زهرة من الأسر الشهيرة بمكة، وكانت تتعاطى

---

(٧٥) ابن هشام (١/ ١٤٤)، الطبري (١/ ١٠٨٢) «طبعة أوروبة»، ابن سعد (١/ ٤٣ وما بعدها).

Sprenger, I, S, 139. Ency. of Islam, II, P. 286, Caetani, Annali, I, 109.

(٧٦) نسب قريش (ص ٢٠، ٢٦١)، ابن هشام (١/ ١٦٤ وما بعدها)، ابن سعد (١/ ٩٤ وما بعدها)، (طبعة صادر)، السيرة النبوية، للذهبي (ص ٥)، السيرة الحلبية (١/ ٥٣ وما بعدها)، سيرة ابن دحلان (١/ ٣٣ وما بعدها).

التجارة، فتذهب إلى بلاد الشام للإتجار، وكانت بين بني هاشم وبين بني زهرة وشائج نسب، كان لها أثر في هذا الزواج.

وقد وُلِد الرسول في الدار التي صارت من بعد تعرف ببيت «محمد بن يوسف الثقفي» أخي الحجاج، وتقع عند الصفا في جوف مكة، على رأي أكثر الرواة، وقيل في «الردم» ردم بني جمح، وقِيل: بعسفان. وقيل: بشعب بني هاشم[77]. وكانت الدار التي وُلِد فيها الرسول لعقيل بن أبي طالب، باعها أولاده بعد وفاته من أخي الحجاج، فأدخلها في داره، وسمّاها البيضاء، لأنها بنيت بالجص، ثم طُليت به، فكانت كلها بيضاء، وصارت تُعرف بدار ابن يوسف، ويُقال: إن عقيلاً هو الذي باعها، وباع معها جملة بيوت من بيوت إخوته. ومن هاجر من بني هاشم، باعها كلها[78] في حياة الرسول قبل الفتح[79]. وقد دعاها بعض أهل الأخبار «بدار التبابعة»[80].

---

(٧٧) السيرة الحلبية (١/ ٧٤)، الروض الأنف (١/ ١٠٧)، حاشية «٣» على سيرة ابن هشام (١/ ١٦٧) «طبعة القاهرة ١٩٣٦».

(٧٨) السيرة الحلبية (١/ ٧٤)، الروض الأنف (١/ ١٠٨)، حاشية (٣) على سيرة ابن هشام (١/ ١٦٧) «طبعة القاهرة ١٩٣٦».

(٧٩) السيرة الحلبية (١/ ٧٤)، «وهو في دار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف. كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي صلّى الله عليه وسلّم. وفيه وفي غيره يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، عام حجة الوداع حين قيل له: أين تنزل يا رسول الله؟ وهل ترك لنا عقيل من ظل. . .»، أخبار مكة للأزرقي (ص ٤٢٢) (طبعة لايبزك سنة ١٨٥٨)، ابن سيد الناس (١/ ٢٦).

(٨٠) القاموس (٣/ ٨)، رحلة البتانوني (ص ٥٢)، الأزرقي (ص ٤٢٢) «طبعة وستنفلد»، رحلة العياشي (١/ ٢٢٥)، إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين (القاهرة ١٩٢٥) (١/ ١٨٦ وما بعدها).

ويُقال: إن الخيزران أُم الرشيد اشترت تلك الدار، وأخرجتها من دار ابن يوسف، وجعلتها مسجداً. أو أن زبيدة هي التي بنتها مسجداً لما حجت. وقِيل: إن الخيزران اشترت دار الأرقم بن الأرقم، الدار التي كان يأوي إليها الرسول في زمان تستّره بالدعوة، كانت تقع أيضاً عند الصفا فبنتها مسجداً[٨١].

وباع عقيل دار خديجة زوج النبي كذلك، وهي الدار التي انتقل إليها الرسول بعد زواجه بخديجة، وعرفت بدار فاطمة. وقد اشتراها معاوية من عقيل، أو ممن اشتراها من عقيل، فحوّلها إلى مسجد[٨٢]. وفتح فيها باباً من دار أبي سفيان[٨٣].

ولم يبقَ، ويا للأسف، شيء من الدار التي وُلِد فيها الرسول. نعم، هناك موضع يقع في شعب بني عامر في أحياء مكة من شرقها، يُقال إنه الوضع الذي وُلِد فيه الرسول، أي موضع الدار التي وُلد فيها. وقد بنى عليه الملوك والسلاطين أبنية تخليداً لذكرى ذلك المكان[٨٤]. ولكنه أُهمل كما أُهمل موضع سائر الأماكن الأثرية الإسلامية في الحجاز بعد استيلاء الوهابيين على الحجاز.

ويُقال: إن القابلة التي سقط محمد على يديها، هي «الشفاء»،

---

(٨١) السيرة الحلبية (١/ ٧٤)، أخبار مكة (ص ٤٢٢)، (طبعة لايبزك)، «في الأرض التي تعرف بابن يوسف بمكة، فصيرتها الخيزران بنت عطاء امرأة المهدي مسجداً»، البدء والتاريخ (٤/ ١٣٢).

(٨٢) السيرة الحلبية (١/ ٧٤).

(٨٣) أخبار مكة (ص ٤٢٣) «طبعة لايبزك».

(٨٤) محمد حسين هيكل: في منزل الوحي (الطبعة الثانية) (١٩٥٢) (ص ٢٣٦ وما بعدها)، مرآة الحرمين (١/ ١٨٦ وما بعدها).

أم عبد الرحمن بن عوف، وأن أُم أيمن كانت دايته، فكانت تخدمه وتعتني به، وإن مرضعته الأولى هي ثويبة[٨٥].

وتذكر كتب السير من عادة أسر مكة المعروفة في ذلك العهد أنها كانت ترسل أطفالها إلى مرضعات من قبائل، لينشأوا نشأة صحية، وليتعلموا فصيح اللغة، وكان النبي في جملة من طبقت عليهم هذه العادة، فدُفع إلى «حليمة» من بني سعد بن بكر بنت أبي ذؤيب بن عبد الله بن الحارث، وقد عرف بنو سعد التي تنتمي حليمة إليهم بفصاحة اللسان، وقد عدّ لسانهم أحد الألسنة الفصيحة البليغة التي اشتهرت بين العرب[٨٦].

وقد أرضعت النبي قبل حليمة امرأة أخرى يُقال لها ثويبة مولاة أبي لهب، أرضعته أياماً وأرضعت معه أبا سلمة عبد الله بن عبد الأشد المخزومي بلبن ابنها مسروح، وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب. وقد كان حمزة مسترضعاً في بني سعد بن بكر عند حليمة، فكان حمزة رضيع رسول الله من جهة ثويبة ومن جهة حليمة[٨٧].

---

(٨٥) السيرة الحلبية (١/ ٧٥).

(٨٦) «. . . فعرض عليها رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فجعلت تقول: يتيم ولا مال له، وما عست أمه أن تفعل؟ فخرجت النسوة وخلفنها، فقالت حليمة لزوجها: ما ترى؟ قد خرج صواحبي وليس بمكة غلام يسترضع إلا هذا الغلام اليتيم، فلو أنا أخذناه، فإني أكره أن نرجع إلى بلادنا ولم نأخذ شيئاً. فقال لها زوجها: خذيه عسى الله أن يجعل لنا فيه خيراً. . .»، طبقات ابن سعد (١/ ١١١)، الطبري (١/ ٩٦٩ وما بعدها)، ابن الأثير (١/ ٣٣٣ وما بعدها)، تأريخ الخميس (١/ ٢٥٢ وما بعدها)؛ سيرة ابن هشام (١/ ١٦٩).
L. Caetani, Annali Dell Islam, Vol. I, p. 151, & 125.

(٨٧) ابن قيم الجوزية (١/ ١٩)، طبقات ابن سعد (١/ ١٠٨ وما بعدها) «طبعة بيروت».

ولم ينسَ الرسول مرضعته الأولى «ثويبة»، فكان يسأل عنها، ويبعث إليها بصلة وكسوة. بقي يفعل ذلك حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع، مرجعه من خيبر، فقال: ما فعل ابنها مسروح؟ فقيل: مات قبلها، ولم يبقَ من قرابتها أحد[٨٨].

وقد أقام محمد في بني سعد إلى الخامسة من عمره، ترضعه حليمة، وتحصنه ابنتها الشيماء، ويظهر أن جو البادية قد أثر تأثيراً كبيراً فيه، وأن حليمة قد عنيت به عناية حسنة، بدليل ما ورد عنه من أنه قال: «أنا أعربكم. أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر»، ومن أنه كان يحتفي بحليمة ويكرمها ويسبغ عليها ألطافه ويذكرها طول حياته بالخير. وقد منَّ على ابنتها الشيماء، وكانت في جملة من أسر مع بني هوازن بعد حصار الطائف، فلما جيء بها إلى الرسول وعرفها، أكرمها، وردها إلى أهلها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، رعاية لحقها ولحق أمها[٨٩].

وقد عهدت حليمة إلى محمد برعاية الغنم، شأن الأطفال في ذلك العهد، فكان يخرج مع أخيه من الرضاعة في الرعي، ثم يعودان إلى بيتهما في المساء. وقد كان الرسول يتذكر ذلك الزمان ويفتخر به، كما اشتغل بالرعي بعد عودته إلى مكة، وكان أجره قراريط من ذلك، يدفعها إليه أهل مكة[٩٠].

ولم تذكر كتب السير عمر الرسول يوم كان يرعى الغنم لأهل

---

(٨٨) طبقات ابن سعد (١/ ١٠٨ وما بعدها).

(٨٩) سيرة ابن هشام (١/ ١٧٠ وما بعدها، ١٧٦)، محمد حسين هيكل: حياة محمد (ص ١١٢)، (الطبعة السادسة سنة ١٩٥٦).

(٩٠) الروض الأنف (١/ ١١٢)، السيرة الحلبية (١/ ١٤٩ وما بعدها).

مكة، كما أنها لم تشر إلى المدة التي بقي فيها راعياً. ولكن بعض الروايات تذكر أنه كان فتى في ذلك العهد، وأنه كان يرعى مع جماعة من أقرانه الفتيان في «أجياد»، وأنه كان يبقى هناك مع غنمه لا يعود إلى داره ليلاً على عادة الرعاة في ذلك العهد، يقضي الليل مع غنمه في مواضع الرعي(٩١).

هذا وكأن الأقدار كانت على علم بأن أُم النبي لن تعيش طويلاً، ولهذا جاءت بالطفل وهو في الخامسة من البادية إلى أمه، ليعيش معها زهاء السنة، فيذوق حنان الأم ويشهد عطفها عليه بعد أن حُرم رعاية الأب، وكأنها كانت تريد أن يشهد وفاتها وجنازتها بعد أن حرمته رؤية وجه أبيه وجنازته.

أرادت آمنة زيارة أخوال والد رسول الله من بني عدي بن النجّار، لعرض غلامها عليهم، وكانت قد وعدتهم بزيارتهم، وذهبت به وبأم أيمن جاريتها التي خلّفها لها زوجها عبد الله، وبقيت وبقي ابنها معها شهراً في المدينة، ثم قررت العودة إلى مكة، وعادت بابنها وبجاريتها، ولكن القدر كان لها بالمرصاد، فلمّا كانت بالأبواء، وهي في طريقها إلى مكة، مرضت مرضاً قضى عليها فدفنت هناك(٩٢).

وقد بقي الألم من وفاة الأم كامناً في نفس الرسول، لقد كان

---

(٩١) عيون الأثر (١/ ٤٤).

(٩٢) أي بالأبواء، الطبري (١/ ٩٨٠)، ابن الأثير (١/ ٣٤٠)، تأريخ الخميس (١/ ٢٥٩)، البلدان (١/ ١٠٠)، الروض الأنف (١/ ١١٣)، ابن هشام (١/ ١١١)، إسلام تأريخي (١/ ٣٦٥)، البدء والتأريخ (٤/ ١٣٣)، السيرة النبوية، للذهبي (ص ٢٣)، ابن سعد (١/ ١١٦).

ألماً شديداً جداً. فلمّا «مرّ بالأبواء في عمرة الحديبية، قال: إن الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فأتاه وأصلحه، وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه»[٩٣]. ولا يعتد المؤرخون بالروايتين القائلتين إن قبر آمنة كان في «دار رابغة» بمكة، أو في الحجون بشعب أبي ذؤيب[٩٤]، «شعب أبي دب»[٩٥].

وعادت أُم أيمن بمحمد إلى جده عبد المطلب وقد شهد في هذه المرة بأم عينيه نهاية أُمه، والمكان الذي دفنت فيه. عاد وقد شهد في زيارته هذه ليثرب الموضع الذي توفي فيه أبوه، والقبر الذي ضمّه. عاد يتيم الأبوين وهو في سن أحوج ما يكون فيه إلى الأم والأب. لقد أثر هذا اليتم فيه كثيراً، وبقيت ذكراه عالقة في ذاكرته أبداً. وقد أدرك أهميته في حياة الإنسان وما يحدثه من أثر في نفوس من يوقعهم حظهم به، ويتجلى ذلك في هذه الآية: **﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى﴾**[٩٦]، وفي الآيات الأخرى التي تحض على إنصاف اليتامى، ومساعدتهم والترفيه عنهم، وفي كثير من الحديث.

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها محمد في المدينة، فقد بقيت ذكراها باقية في ذاكرته. فلما عاد إلى يثرب، تذكر المواضع

---

(٩٣) السيرة الحلبية (١/ ١٢٥).

(٩٤) السيرة الحلبية (١/ ١٢٥ وما بعدها)، «وقال ابن سعد: وهذا غلط، وليس قبرها بمكة، وقبرها بالأبواء»، طبقات ابن سعد (١/ ١١٧) «طبعة بيروت».

(٩٥) «وشعب أبي دب الذي يعمل فيه الجزارون بمكة، بالمعلاة، وأبو دب رجل من بني سوأة بن عامر، سكنه فسمي به»، أخبار مكة (ص ٤٣٣) «طبعة لايبزك».

(٩٦) الضحى، الآية ٦ وما بعدها.

التي كان يلعب فيها والأماكن التي كان يسلي نفسه بها، تذكر الدار التي أقامت أمه بها، وتذكر «أنيسة» وهي طفلة من أهل يثرب كانت تلعب معه، وأطفال الحي الذين كانوا يقضون وقتهم معه[٩٧]. «فلما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه وقال: كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً كان يقع عليه. ونظر إلى الدار فقال: ههنا نزلت بي أمي وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجّار[٩٨].

وكانت أُم أيمن هي كل ما تبقى له من إرثه من والده ومن أمه. لقد كانت امرأة حبشية، ورثها من أبيه. وهي قد عمرت على ما يظهر طويلاً، إذ أدركت وفاة الرسول. وتذكر الأخبار أنها حزنت على وفاته وبكت، وأن أبا بكر وعمر دخلا عليها وهي على هذه الحالة، فقالا لها: يا أم أيمن، ما يبكيك؟ فما عند الله خير لرسوله! وقد كانت داية الرسول. وزوجها من زيد بن حارثة، فولدت له أسامة[٩٩].

وحزن عبد المطلب حزناً عظيماً ولا شك على ما أصاب عزيزه «محمداً» من مكروه، وأخذ يريه كل ضروب الشفقة والعطف والحنان للتخفيف عن آلامه وأحزانه. يأخذه معه، ويجلسه في مجلسه في ظل الكعبة. ويرعاه كل رعاية؛ فكأنه وهو جده الطاعن في السن، أراد أن يكون في موضع الوالد والأم.

---

(٩٧) ابن سعد (١/١١٦) (طبعة بيروت ١٩٥٧)، Sprenger. I. S. 145.

(٩٨) طبقات ابن سعد (١/١١٦) «بيروت ١٩٥٧».

(٩٩) ابن قيم الجوزية (١/١٩).

قال أحد الأشخاص: «حججت في الجاهلية، فإذا أنا بشيخ مربوع يطوف بالبيت، وهو يقول:

ردَّ عــلــيَّ راكــبــي مــحــمــداً
واصــطــنــعــن بــرده عــنــدي يــدا

فقلت؛ من هذا الشيخ؟ قال: عبد المطلب بن هاشم. قلت: ما شأنه؟ قالوا: ضل إبل له، فخرج في طلبها بني ابنه: محمد بن عبد الله، وقد أبطأ عليه، فقد أخذه ما ترى. قال: فما برحت حتى رجع رسول الله (ﷺ) وهو غلام، وجاء بالإبل. فسمعت عبد المطلب يقول له: يا بني، لقد جزعت عليك جزعاً، لا يفارقني بعده حتى أموت»(١٠٠).

وشاءت الأقدار أيضاً أن تزيد في آلام النبي، وفي أحزانه. فما كاد يبلغ الثامنة من عمره حتى فجع بوفاة جده وهو على أبواب الثمانين من عمره(١٠١).

وكانت هذه الوفاة صدمة عنيفة عليه لم تقل عن الصدمة التي أصيب بها بوفاة أمه. لقد كان عبد المطلب على شيخوخته وتقدمه في السن يرعى محمداً رعاية الوالد القوي القدير، وكان البقية الباقية من والده عليه. فلما توفي، شيعه مع المشيعين إلى قبره، باكياً سائراً خلف سريره المحمول عليه إلى موضع قبره بالحجون. وظل يذكر

---

(١٠٠) البلاذري (١/ ٨٢)، عيون الأثر (١/ ٣٨).

(١٠١) «فتوفي عبد المطلب بعد الفيل بثماني سنين»، الطبري (١/ ١٩٤)، «ذكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأسبابه»، سيرة ابن هشام (١/ ١٧٨ وما بعدها)، إسلام تأريخي (١/ ٣٦٩ وما بعدها)، ابن الأثير (٢/ ٣٤٠).

جده طوال عمره، ويترحم عليه[١٠٢].

والحجون من مقابر مكة القديمة الجاهلية، وفيها قبر قصي زعيم قريش، وغيره من رؤساء مكة. وقد كان أهل مكة يزورون قبر قصي ويعظمونه[١٠٣]. وربما فعلوا ذلك مع قبور رؤساء آخرين.

هذا ونحن لا نعرف من أمر عبد المطلب إلا القليل، وكل ما نعرفه عنه أنه ابن هاشم، وأن اسمه شيبة؛ وأن كنيته أبو الحارث. وأما أمه فاسمها «سلمى»، وهي من بني النجار، أي من «يثرب»، وأن والده كان من أصحاب التجارات؛ خرج متاجراً، وتوفي في طريقه فيتم «شيبة» وكفله خاله «المطلب»، ورعاه وحماه، حتى عرف به، ونسب إليه، فقيل: عبد المطلب. وتذكر الموارد أن عبد المطلب كان وسيماً ذكياً ذا شخصية وقابليات، وأنه تمكن بعد مجيئه إلى مكة من تزعم قومه ومن كسب احترامهم وتقديرهم، فكان يجلس في صدر المجلس إلى البيت، وأنه حفر بئر زمزم، وتولى سقاية الحاج، وأنه كان شيخ مكة في أثناء حملة أبرهة على مكة، كما كان مبعوث القوم إليه[١٠٤].

ونسب اليعقوبي إصلاحات دينية إلى عبد المطلب، أقرها

---

(١٠٢) السيرة الحلبية (١٣٤١)، «ومات عبد المطلب فدفن بالحجون، وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة، ويُقال: ابن مائة وعشر سنين»، طبقات ابن سعد (١/ ٢١٩) «طبعة بيروت»، «ومات وله من العمر مائة وعشر سنين»، غاية (ص ٧)، البلاذري (١/ ٨٤).

(١٠٣) البلاذري (١/ ٥٢)، الأزرقي (ص ٤٨٢) «طبعة وستنفلد».

(١٠٤) الطبري (١/ ٩٣٧)، ابن هشام (١/ ٣٣).

Shorter, p. 7 ff, Sprenger, III, P. Cxliv, Caussin de Perceval, Essai Vol, I, p. 259, Muir, The Life, I. P. Ccli, Caetani I, p. 110, ff. Shorter, p. 7. f.

الإسلام[١٠٥]. وقد ذكر بعض الأخباريين أنه كان أول من تحنث بحراء، وكان إذا أهل هلال رمضان دخل بحراء، فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر، ويطعم المساكين. وكان يعظم الظلم بمكة، ويكثر الطواف بالبيت[١٠٦].

وعبد المطلب على منزلته في قومه، ومكانته بينهم، لم يكن غنياً ذا مال، وأسرته لم تكن أسرة ثروة وغنى. بل كان غناها غنى اجتماعياً، أي مكانة محترمة بين أهل مكة، لصلتها بالبيت. وعلى هذا النحو كانت حالة سائر أسرته، تعيش من وارد البيت، وتفتخر بخدمتها له وللحجاج الوافدين على مكة للتقرب إلى الكعبة. وهي منزلة لها قيمة، ولأصحابها مكانة روحية في المجتمع، وإن لم يكن صاحبها من أصحاب الثروة والمال.

وللأخباريين قصص عن سبب تسمية «عبد المطلب» بهذا الاسم، هو من القصص المألوف الذي ألفنا قراءته في الكتب القديمة عند وقوع الأخباريين في حرج ووقوفهم حيارى أمام مشكلة لا يعرفون من أصلها شيئاً. فيلجأون إلى الابتكار والخيال لإيجاد شكل من الأجوبة تحل على زعمهم تلك المشكلات، فلا يتعرضون لنسبتهم إلى الجهل والإفلاس في الوقوف على أخبار الماضين.

وعبد المطلب في رأيي مثل الأسماء الأخرى، قريش وقصي وعبد الملك[١٠٧] وعبد شمس وسعد الله وعبد الله ومحمد ومسلم

---

(١٠٥) اليعقوبي (٢/ ٨ وما بعدها).

(١٠٦) البلاذري (٢/ ٨٤).

(١٠٧) Rep. Epi. Semi., II. II, p. 181, 895, III, I. p. 123, Num. 1384, III, I, p. 128, Num. 1401. III. I, p. 130, Num. 1407, 132, Num. 1414,

ويحمد وأمثالها، أسماء عربية شمالية قديمة. وقد وردت في نصوص نبطية. فهي ليست من الأسماء التي عرفت قبيل الإسلام كما ذهب إلى ذلك أهل الأخبار.

وبمناسبة الحديث عن هذه الأسماء أقول: إن أكثر أسماء قريش يرد في الكتابات العربية الشمالية وفي النبطية منها بصورة خاصة، ولكنها قلما ترد في المسند. ولهذه الظاهرة أهمية كبيرة في دراسة موضوع الفروق بين العرب الشماليين والجنوبيين. كذلك نجد أن معظم أسماء أصنام قريش يرد في النصوص المذكورة، وقلما يرد في الكتابات العربية الجنوبية، مما يشير إلى وجود تفاوت كبير بين أهل مكة والعرب الجنوبيين، وتقارب كبير بين قريش والعرب الشماليين. ولهذه الظاهرة أهمية كبيرة في دراسة موضوع الفروق بين العرب الشماليين والجنوبيين.

وانتقل واجب الجد عبد المطلب إلى العم أبي طالب. وكان أبو طالب وعبد الله أخوين لأب وأم، هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم[١٠٨]، انتقل إليه هذا الواجب، وإن لم يكن أكبر أبناء عبد المطلب. فقد كان «الحارث» شقيقه أكبر منه سناً، لكنه لم يكن موسراً، وكان العباس أكثر منه مالاً، لكنه كان على ماله حريصاً[١٠٩]. أما أبو طالب، فقد كان يحب النبي حب

VII, 322, Num. 4693, IV, I, 55, 2117, II, II, 181, Num. 895, VII, 184, Num. 4304, VII, 422, 472.

(١٠٨) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٩).

(١٠٩) طبقات ابن سعد (١/ ١١٩ وما بعدها)، Life, p. 79، هيكل (ص ١١٤).

عبد المطلب له، وكان يقدمه على أولاده. ولهذا كانت رعايته وحمايته من حصته ونصيبه.

وأبو طالب هو عبد مناف، وهو والد علي بن أبي طالب صهر الرسول. ونحن نأسف على أننا لا نملك من أخباره شيئاً كثيراً. وكل ما نعرفه عنه هو مما له صلة بالرسول. وقد ورد في بعض الأخبار أنه ساد قومه. وقد عاش عشر سنين ما بعد البعثة، إلى أن توفي قبل ثلاث سنوات من الهجرة[١١٠].

ونجد في كتب السير قصائد تنسب إلى أبي طالب زعم أنه قالها، وشعراً كثيراً إذا قرأه الإنسان، ووقف على أكثر هذا الشعر، خرج جازماً بأنه من النوع الموضوع المفتعل المحمول عليه.

وذكر أن أبا طالب كان قد تزوج زوجين، ورزق أربعة أولاد، هم: طالب وهو أولهم وأكبرهم، وقد كان في جملة من اشترك في معركة بدر مع المشركين، ولم يعرف عنه أي شيء بعد بدر. وعقيل وقد وُلِد بعشر سنين بعد مولد طالب. وجعفر بعد عشر سنين من ميلاد عقيل، في جملة من هاجر إلى الحبشة من مهاجرة الإسلام، وعلي وقد كان أصغر من جعفر بعشر سنين كذلك. وكانت له ثلاث

---

(١١٠) «توفي أبو طالب للنصف من شوال في السنة العاشرة من حين نبيء رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة..»، طبقات ابن سعد (١/ ١٢٥)، نسب قريش (ص ١٧)، الطبري (١/ ١١٢٣، ١١٧٤)، ابن هشام (١/ ١١٥، ٦٧ وما بعدها)، ابن حجر، الإصابة (٤/ ٢١١ وما بعدها).

Caetani, Annali, I. p. 308, Goldzjher, Mu. Stu., II, S. 107. Shorter, p. 12, Buhl, Das Leben, S, 115, Noldeke, in ZDMG., lii, S. 27. ff., Ency. of Islam, I., p. 108. f.

بنات أو أربع. وأم هؤلاء الأولاد والبنات جميعاً هي: فاطمة بنت أسد بن هاشم.

وأما زوجه الأخرى، فلم يذكر الأخباريون من نسلها إلا ولداً واحداً دعوه طليقاً، لم يذكر الأخباريون اسمه ولا اسم ابنه حويرث في جملة المسلمين[١١١].

وكان أبو طالب مثل سائر أهل مكة في زمانه تاجراً، يقصد بلاد الشام للإتجار. ولما كان محمد في الثانية عشرة من عمره أو أقل من ذلك في رواية[١١٢]، خرج عمه لتجارة إلى بصرى سوق التجارة مع البلاد العربية في ذلك الحين، يقصدها تجار مكة لبيع ما عندهم من بضاعة، ولشراء ما فيها من سلع بلاد الشام وحوض البحر المتوسط، وأشفق أبو طالب على ابن أخيه أن يصحبه من مشقات السفر وصعوبته عليه وهو في تلك السن، وأبى محمد إلا مرافقة عمه فيها، وكان له ما أراد. فخرج معه ووقف على حالة الناس في خارج بلده، ورأى بصرى، ومدين ووادي القُرى ومواقع أخرى جميلة ذات زرع وضرع وعيون وآبار لا تُقاس بها مكة، ولا أي موضع آخر في الحجاز، وشاهد رهباناً ونصارى يقيمون في تلك الأماكن. وفي بصرى أوصى راهب تسميه كتب السير بحيرى أو جرجيس أو سرجيوس أبا طالب بمحمد خيراً. لما وجده عليه من النباهة والوسامة، ثم عاد به عمه إلى مكة[١١٣].

---

(١١١) Sprenger, I, S. 147.

(١١٢) السيرة الحلبية (١/ ١٤٠)، «وانطلق به إلى بصرى الشام، وهو ابن تسع سنين»، المحبر (ص ٩).

(١١٣) الطبري (١/ ١١٢٣ وما بعدها)، ابن الأثير (٢/ ٢٧ وما بعدها)، سيرة ابن =

وكانت بصرى أبعد مكان رآه الرسول في حياته، وأقصى مكان زاره في بلاد الشام. زارها وقد جلا الساسانيون عنها من عهد غير بعيد، بعد أن أنزلوا بها الخراب والدمار، مثل أذرعات في سنة ٦١٣ أو ٦١٤ للميلاد؛ وإلى صاحبها أرسل الرسول رسولاً يفاوضه ويرغبه في الدخول في الإسلام، والظاهر أنه كان حاكماً على بصرى، وكانت حاضرة «المقاطعة العربية Provincia Arabica».

وينظر معظم المستشرقين إلى قصة بحيرى على أنها أسطورة وقصة موضوعة. ليس لها أهمية تاريخية بالنسبة إلى نبوة الرسول، واتخذها البعض حجة لإثبات أن الرسول كان قد تعلم منه الدين، وأنه كان قد تلقن منه علم يهود والنصرانية فوضعه في الإسلام.

ويظهر أن أبا طالب لم يكسب من التجارة شيئاً، وأن حظه في السوق لم يكن حظاً حسناً، فلم يربح شيئاً يجعله مرتاحاً في معيشته وهو في آخر أيام حياته. ولهذا عاش عيشة ضنك وشدة، مما حمل الرسول وقد كبر وتزوج، على التخفيف عنه ومساعدته. ويلاحظ أن جل بني هاشم، لم يكونوا أغنياء موسرين، مع أنهم كانوا أصحاب تجارة وقافلة، يخرجون إلى بلاد الشام، للإتجار، فيبيعون ويشترون. ولكنهم لم يجمعوا مع ذلك من تجارتهم هذه ثروة كافية تجعلهم في طبقة أغنياء مكة الموسرين.

ويُقال إن قبر أبي طالب، في المقبرة المعروفة اليوم باسم مقبرة المعلاة، وهي في الشمال الشرقي في مكة، وهي مقبرة قديمة، يُقال

= هشام (١/ ١٩١ وما بعدها)، طبقات ابن سعد (١/ ١٠٩ وما بعدها)، Life, p. 70, Annali, I, P. 160, S. 195.

إنها من العهد الجاهلي، وهي لا تزال مقبرة لأهل مكة حتى اليوم. وفي هذه المقبرة قبر ينسب إلى عبد المطلب، وقبر آخر ينسب إلى عبد مناف، وقبر آخر ينسب إلى خديجة. وقد سويت كل هذه القبور وأزيلت معالمها(١١٤). وسد الطريق المؤدي إلى هذه القبور الأثرية المهمة. فأدى ذلك ويا للأسف إلى ضياع آثار ترجع إلى عهود مختلفة، وإلى ضياع معالم تاريخية مهمة. فقد كانت على هذه القبور وغيرها أبنية وشواهد تتحدث عن نوع من الريازة في بناء المقابر، وقد كانت عليها كتابات تمثل تطوراً في الخطوط أزيلت كلها بهذه النظرة الشديدة إلى القبور.

ولما كان محمد في الخامسة عشرة من عمره أو في العشرين، هزت مكة حرب وقعت في الأشهر الحرم. الأشهر المقدسة التي اتفقوا على ألا يكون فيها بغي ولا فساد، وأن تكون أمناً وسلاماً، يستصلح فيها الناس أحوالهم، ويتعهدون فيها شؤونهم دون خوف من غادر ولا وجل من مباغتة شقي. وقعت تلك الحرب بين كنانة وقيس عيلان، بسبب قتل البراض بن قيس الكناني، لعروة الرحال بن عتبة الهوازني في هذه الأشهر. قتله من غير أن يهتم بحرمتها وبقدسيتها وبمكانتها الدينية عند الجاهليين. قتله، لأنه كان قد عرض نفسه على النعمان بن المنذر ليخفر قافلته التي كان يرسلها في كل عام من الحيرة إلى عكاظ محملة بالتجارة النفيسة لبيعها في تلك السوق، ولتعود بالجلود وبأنسجة اليمن المزركشة وبالبضائع الأخرى إلى الحيرة. وكان الأجر على ذلك على ما يظهر عالياً مغرياً،

---

(١١٤) محمد حسين هيكل: في منزل الوحي (الطبعة الثانية، ١٩٥٢) (ص ٢٢٢ وما بعدها).

والاسم الذي يناله حارس القافلة من هذه الخفارة كبيراً. وعرض عروة نفسه على النعمان كذلك، ليقوم بحماية القافلة وإيصالها سالمة إلى عكاظ، فاختار النعمان عروة وقدمه على البراض وهذا ما أغاظه وأزعجه وجعله يحقد عليه ويضمر الشر له، فتتبعه، ووثب عليه وعلى قافلة النعمان؛ وقتل عروة، واستولى على القافلة دون مبالاة بحرمة الأيام التي قتله فيها ولا بقدسية الشهر ومنزلته في النفوس. وهذا ما غاظ هوازن رهط عروة، وأوقع الحرب بينها وكنانة.

واستمرت الحرب متقاطعة أربع سنوات إلى أن انتهت بصلح. وقد شاهدها الرسول واشترك فيها أو اشترك في بعضها. وكان عمله يومئذ جمع السهام التي ترسلها هوازن على قومه، وتقديمها إلى أعمامه لرمي هوازن بها. ويُقال إنه اشترك نفسه برمي السهام فيها[١١٥]، وعرفت هذه الحرب بحرب الفجار لأن العرب فجرت فيها بحربها وخرجت على الحرمة والمقدسات بحربها في تلك الأشهر الحرم[١١٦].

---

(١١٥) الطبري (١/ ١١٢٧ وما بعدها)، ابن الأثير (٣/ ٤٣٩ وما بعدها)، تاريخ الخميس (١/ ٢٨٨) السيرة الحلبية (١/ ٥١)، سيرة ابن هشام (١/ ١٩٥ وما بعدها)، الأغاني (١٩/ ٧٤ وما بعدها)، طبقات ابن سعد (١٠/ ١٦ وما بعدها)، «طبعة بيروت»، البدء والتاريخ (٤/ ١٣٤ وما بعدها)، هيكل (ص ١١٦ وما بعدها).

Life, p. 82, Annali, p. 163, weil, Das Leben Mohammed's nach Mohammed Ibn Ishaq, S. 88.

(١١٦) «وشهد حرب الفجار الأيام سائرها إلا نخلة؛ وكان يناول عمه ـ الزبير بن عبد المطلب النبل» وكان عمره صلّى الله عليه وسلّم يومئذ عشرين سنة؛ وقيل أربع عشرة أو خمس عشرة سنة»، الإمتاع (١ـ٩)، السيرة الحلبية (١/ ١٥١).

وشهد محمد حلف الفضول: شهده في دار عبد الله بن جدعان، وكان قد أولم وليمة منصرف قريش من الفجار، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم وبنو أسد بن عبد العزى، فتعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه، وألا يتركوا مظلوماً بمكة من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه[١١٧]. قاموا بهذا الحلف لإعادة السكينة والطمأنينة إلى هذه المدينة المقدسة، التي تعيش على التجارة وعلى دخلها من مواسم الحج وزيارة البيت والتقرب إلى الأصنام والأوثان التي كانت فيها. ولم يكن من مصلحة قريش وبقية سكان مكة، وهم حضر مستقرون، انتشار الفتن، وظهور الاعتداء في مدينتهم وحواليها. لقد كانوا يرون العافية في السلامة وفي الاستقرار والطمأنينة وراحة البال، ولهذا كانوا لا يشتركون في قتال إلا اضطراراً، ودفاعاً عن مال ونفس. وقد كانت أضرار «الفجار» وأمثالها من الحروب شديدة الوقع عليهم ولا شك.

ويذكر أهل الأخبار أن السبب في هذا الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً وجمح وسهماً وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوا على العاص، وانتهروه. فلما رأى الزبيدي الشر، رقى على أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، ونادى بأعلى صوته مستنجداً على عادة الناس في ذلك العهد، طالباً

---

(١١٧) طبقات ابن سعد (١/ ١٢٨ وما بعدها) (طبعة بيروت)، الخضري (١/ ٦٣)، هيكل (١١٧).

من آل فهر إحقاق حقه والأخذ بناصره، فقام الزبير بن عبد المطلب عم النبي، فدعا القوم إلى دار عبد الله بن جدعان، فكان من اجتماعهم عقد ذلك الحلف[١١٨].

وورد في روايات أخرى أن العباس عم النبي كان هو الداعي إلى ذلك الحلف، كما ورد أن أبا سفيان كان هو الداعي إليه[١١٩].

ويظهر من دراسة الأصول القديمة لروايات حلف الفضول أن الحاجة إلى الأمن والاستقرار بعد تلك الحرب، هي التي دفعت قبائل من قريش إلى الاجتماع في دار عبد الله بن جدعان، للتفاوض في أمر إحلال الأمن والسلام في مكة، وحياة أهل مكة على الوافدين إليها من الحجاج والتجار. وأن الذي دعا إلى ذلك نفر من قريش. وأن الذي تزعم الدعوة وتبناها وجمع بين الرؤساء هو عبد الله بن جدعان من أثرياء مكة، أما إقحام اسم الزبير بن عبد المطلب والعباس وأبي سفيان وغيرهم، فقد وقع فيما بعد، لغايات سياسية ودوافع عصبية تمت إلى هذه السياسة العنيفة التي كانت بين آل الزبير وآل أبي سفيان وآل العباس. أدخل هذه الأسماء الرواة في أيام بني أمية وفي أيام العباسيين، لما كان لحلف الفضول من أهمية ومكانة، ولما في إقحام هذه الأسماء في ذلك الحلف من أهمية في سياسة عالم ذلك الوقت.

ونما محمد وشب وفكّر في حياة حرة مستقلة، وفي إعاشة نفسه ومساعدة عمه بعد أن قارب الخامسة والعشرين من العمر.

---

(١١٨) السيرة الحلبية (١/ ١٥٦)، «وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب...»، طبقات ابن سعد (١/ ١٢٨) «طبعة بيروت»، البدء والتأريخ (٤ـ١٣٧).

(١١٩) السيرة الحلبية (١/ ١٥٧).

وجد عمه قد نهكته السنون، ونضبت ثروته، فلم تعد أمواله تكفيه لإعاشته وإعاشة أبنائه، ورأى في نفسه حاجة إلى أسرة، ولا تكون الأسرة بغير مال. لقد قام منذ صباه برعي الأغنام، رعى غنم أهله وغنم أهل مكة، وقام بأعمال أخرى لمساعدة عمه، ولكن الرعي وهذه المساعدات لن تفيده وقد بلغ هذا العمر، ولهذا كان يفكِّر في رزق يسوقه الله إليه، يكون فيه أمنٌ وطمأنينة له، وكان ذلك عن طريق البيع والشراء والتجارة على عادة معظم أهل مكة في ذلك العهد.

وقد تكسب محمد بالاشتغال بالبيع والشراء مستقلاً بأعماله أحياناً، ومشتركاً مع غيره أحياناً أخرى، فكان يبيع ويشتري بمكة، أو في أسواق الحجاز وبعض أسواق اليمن مثل سوق حباشة، وهو موضع بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال، يقام لمدة ثلاثة أيام من أول شهر رجب في كل عام[١٢٠]. تكسب من عمله هذا قبل المبعث وقبل أن يتزوج من خديجة، وقد تاجر الرسول بشراء البز وبيعه، يشتريه من سوق حباشة، وهي سوق مشهورة ببيع هذه البضاعة، ويبيعه في مكة.

وكان في جملة من شارك محمداً في التجارة السائب بن أبي السائب صيفي. تاجر معه قبل النبوة وقبل أن يتجر لخديجة، وقد بقي حياً إلى ما بعد فتح مكة، فلما فتحها الرسول، جاء السائب إليه وقال: «مرحباً بأخي وشريكي. كان لا يداري ولا يرائي ولا يماري»[١٢١]. وقيل: إن السائب المذكور هو السائب بن يزيد،

---

(١٢٠) السيرة الحلبية (١/ ١٦١).

(١٢١) السيرة الحلبية (٦/ ٦٦٦)، الإمتاع (٦/ ٩).

وقيل: إن السائب بن أبي السائب قتل يوم بدر كافراً، وقيل: إنه كان من المؤلفة قلوبهم، وقد أعطاه النبي يوم الجعرانة من غنائم حنين. وكان حكيم بن حزام في جملة من اشترى من الرسول، اشترى منه بزاً من بز تهامة بسوق حباشة، فقدم به مكة[١٢٢].

وقد عرف الرسول بالأمانة والصدق في المعاملة، ولكنه لم يكسب من عمله في البيع والشراء مالاً يذكر، ولا ثروة تساعده وتساعد عمه أبا طالب في تمشية أموره. وقد كانت أحواله المالية قد ساءت، ولم يعد يتمكن من إعالة أهله، فذكر أهل الأخبار أنه فاتح محمداً في يوم من الأيام بهذا الوضع قائلاً له: «يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان، وألحت علينا ودامت سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة. وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرانها، فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع فلو جئتها فوضعت نفسك عليها، لأسرعت عليك، وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود، ولكن لا تجد لك من ذلك بداً»[١٢٣]. فذهب الرسول إليها، وتحدث معها، فوافقت على أن يقوم بتجارتها إلى بلاد الشام.

ويفهم من رواية أخرى أن الذي ذهب إلى خديجة فكلمها في ذلك هو أبو طالب نفسه، وأن الرسول كان فوضه بعدما سمعه من عمه بالذهاب إليها وتحديثها في الموضوع. فلما ذهب إليها وحدثها،

---

(١٢٢) السيرة الحلبية (١/ ١٦٢ وما بعدها)، الإمتاع (١/ ٨).

(١٢٣) السيرة الحلبية (١/ ١٥٨)، طبقات ابن سعد (١/ ١١٩ وما بعدها)، ابن سيد الناس (١/ ٤٨ وما بعدها).

وافقت في الحال لما سمعته عن محمد من العفة والصدق والأمانة والاستقامة في المعاملات، وقام الرسول بعمله خير قيام(١٢٤).

وورد في رواية أن خديجة هي التي أرسلت إلى محمد، فكلمته في موضوع قيامه بتجارتها، لما سمعته من رغبته في العمل، وخروجه مع قافلة قريش التي كانت قد أزمعت السفر إلى بلاد الشام، وأنها قالت له لما اجتمع بها: «إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أُعطي رجلاً من قومك». ففعل محمد، ولقي عمه أبا طالب، فذكر له ذلك، فقال: إن هذا رزق ساقه الله إليك(١٢٥).

وكانت خديجة بنت خويلد، وهي من بني أسد امرأة ذات شرف في قومها ومال، تاجرة، تستأجر الرجال في مالها يضاربون لها به بشيء تجعله لهم. وكانت قد تزوجت مرتين في بني مخزوم، مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى. وكان يساعدها في تدبير مالها أبوها خويلد وبعض ذوي قرابتها ومن تثق بهم من الناس. ولثروتها هذه ولشرفها ومنزلتها في قومها، طمع فيها الطامعون، فعرضوا عليها الزواج، ولكنها رفضت لما علمته من طمع الرجال في أموال المرأة قبل المرأة، واقتنعت من حياتها بالتجارة تنميها وتعيش عليها ما بقيت حية حتى يقضي الله فيها أمره(١٢٦).

---

(١٢٤) سيرة ابن هشام (٦/ ٦٩٧ وما بعدها)، البدء والتأريخ (٤/ ٦٦٧ وما بعدها)، السيرة الحلبية (٦/ ٦٥٨).

(١٢٥) السيرة الحلبية (٦/ ٦٥٨)؛ طبقات ابن سعد (٦/ ٦٦٩ وما بعدها).

(١٢٦) الطبري (٦٦/ ٦٩) «ذكر تزويج النبي صلّى الله عليه وسلّم خديجة رضي الله عنها»، «خديجة بنت خويلد بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب. =

وسر محمد بموافقة خديجة على تكليفها إياه هذا العمل الذي عاد عليه بأول رزق كتبه الله له، وخرج مع ميسرة غلامها بأموالها وبتجارتها إلى بلاد الشام. ولما باع كل ما كان قد أرسلته معه، عاد ببضاعة جديدة، أمرت خديجة بشرائها لها، وأعطته أجره. وكانت هذه التجارة السبب الذي وصل بين محمد وخديجة وربط بينهما برابطة الزواج[١٢٧].

وورد في بعض كتب السير أن محمداً قام لخديجة بسفرة أو سفرتين أو أربع سفرات إلى اليمن إلى سوق حباشة أو إلى جرش، وذلك قبل قيامه بسفرته المشهورة إلى بصرى، وأنه استصحب في إحدى سفراته ميسرة غلام خديجة. وصاحبه في سفرته إلى بصرى؛ وتذكر أيضاً أنها دفعت له قلوصاً عن كل سفرة قام بها إلى اليمن، وأربع بكرات عن سفرته إلى بلاد الشام[١٢٨].

وورد أيضاً أنه لم يكن يتجر وحده بمال خديجة، بل كان معه شريك[١٢٩]. وربطت هذه التجارة بين النبي وبين خديجة. فتذكر

= وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب»، نسب (ص ٦٦)؛ طبقات ابن سعد (١/ ٦٦٦٩ وما بعدها).

(١٢٧) ابن سيد الناس (١/ ٣٧ وما بعدها).

(١٢٨) «فذلك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تدعوه أن يخرج في تجارة إلى سوق حباشة، وبعثت معه غلامها ميسرة. فخرجا فابتاعا بزاً من بز الجند وغيره مما فيها من التجارة، ورجعا إلى مكة فربحا ربحاً حسناً)، الإمتاع (٨/ ١٠)، السيرة الحلبية (٧/ ٧٦٧).

(١٢٩) الروض الأنف (١/ ١٧)؛ (فلما استوى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبلغ أشده وليس له مال كبير، استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة، وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو يحدث عنها، ما رأيت من صاحبة =

كتب السير أن خديجة لما رأت ما رأته من إخلاص محمد ومن أمانته وحسن تصرفه، مالت إليه، وفكرت في الزواج منه، مع أنها كانت أكبر سناً منه، كانت في الأربعين من عمرها، وكان هو في الخامسة والعشرين، وأعربت عن رغبتها هذه لأختها على قول، أو لصديقة لها تدعى نفيسة بنت منية على قول آخر، وقد قامت نفيسة كما تقول هذه الكتب بوساطة الزواج. أما الذي زوجها، فكان عمها عمر بن أسد؛ لأن خويلداً كان قد مات قبل حرب الفجار. وتذكر رواية أخرى أن خويلداً كان حياً، وأنه لم يكن راضياً عن الزواج في بادئ الأمر، ثم وافق عليه(١٣٠). ولم تشر روايات أخرى إلى معارضة خويلد لهذا الزواج(١٣١).

وفي الرواية التي تزعم أن خويلداً كان حياً عند زواج النبي بخديجة ما يفيد أنه كان قد امتنع عن تزويج ابنته له، بسبب فقر محمد ويتمه. فقد جاء في هذه الرواية أن خديجة كانت على علم بأن أبيها يرغب عن أن يزوجها له، «فصنعت له طعاماً، ودعت أباها ونفراً من قريش، فطعموا وشربوا، فلما سكر أبوها، قالت له: إن

= لأجير خيراً من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي، إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبؤه لنا)، ابن سيد الناس (٧/ ٥٠).

(١٣٠) الطبري (١/ ١١٢٧ وما بعدها)، ابن حجر: الإصابة (٣/ ١٣٠)، ابن سعد (٨/ ٧ وما بعدها)، سيرة ابن هشام (١/ ١١٩ وما بعدها، ١٥٣ وما بعدها)، الأزرقي (ص ٤٦٣)، سيرة ابن هشام (١/ ١٩٨ وما بعدها) «القاهرة ١٩٣٦»، طبقات ابن سعد (١/ ١٣١ وما بعدها).

Shorter, p. 231 f., Sprenger, I, S. 194, Caetani, Annali., I, 138. ff., 166. Lammens, Fatima, p. 12, Buhl, Das Leben, S. 118.

(١٣١) الطبري (٢/ ١٩٧) «وذكر تزويج النبي، صلّى الله عليه وسلم، خديجة رضي الله عنها»، البدء والتاريخ (٤/ ١٣٨ وما بعدها).

محمد بن عبد الله يخطبني، فزوجني إياه، فزوجها، فخلقته، وألبسته، لأن ذلك، أي إلباس الحلة وجعل الخلوق به، كان عادتهم. إن الأب يفعل به ذلك إذا زوج ابنته. فلما صحا من سكره، قال: ما هذا؟ قالت له خديجة: زوجتني من محمد بن عبد الله، قال: أنا أزوج يتيم أبي طالب إلا لعمري! فقالت له خديجة: ألا تستحي؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبرهم أنك كنت سكران، فلم تزل به حتى رضي»(١٣٢).

وفي رواية أن حمزة بن عبد المطلب هو الذي دخل على خويلد بن أسد، فخطبها منه، وأنه وافقه على ذلك. ذكر أن الرسول أصدقها عشرين بكرة. وفي رواية أخرى أن الذي توسط في هذا الزواج هو ميسرة غلام خديجة، وقِيل: مولاة لها مولدة(١٣٣).

وقد رفض محمد بن عمر الواقدي صاحب «الطبقات» خبر إسكار خديجة أباها من أجل أن تضمن موافقته على تزويجها بمحمد، وقال: «فهذا كله عندنا غلط ووهل، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار، وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ»(١٣٤). وهذا الرأي هو الراجح والصحيح عند أهل الأخبار، وليس من الممكن ولا من المعقول لجوء امرأة بمنزلة خديجة في مثل أسرتها إلى هذه الطريقة من إكراه أبيها على الموافقة على تزويجها من محمد. وقد كانت قد

---

(١٣٢) السيرة الحلبية (١/ ١٦٤)، سيرة ابن هشام (١/ ١٩٨ وما بعدها).

(١٣٣) السيرة الحلبية (١/ ١٦٤)، وتجد فيها معظم الروايات الواردة في هذا الباب، سيرة ابن هشام (١/ ٢٠١).

(١٣٤) طبقات ابن سعد (١/ ١٣٣)، ابن سيد الناس (١/ ٥٠).

تزوجت من قبل وفي سن لا تؤهل والديها أو أياً كان من ذوي قرابتها للتدخل في شأن من شؤونها، كما لا تعقل موافقة محمد وعمه أبي طالب على اللجوء إلى هذه الطريقة التي تنافي آداب الأسر الكريمة[١٣٥].

وكان تزويج محمد بخديجة بعد مجيئه من الشام بشهرين أو خمسة عشر يوماً[١٣٦].

وورد أيضاً أن عمر خديجة كان يوم تزوجت خمساً وأربعين، وقِيل ثلاثين، وقِيل: ثماني وعشرين، وقِيل: خمساً وثلاثين، وقِيل: خمساً وعشرين[١٣٧]. ولكن الأشهر والأعرف عند أهل السير هو ما ذكرته من أنها كانت في الأربعين.

كما ذكر في بعض الروايات أن عمر الرسول حين تزوج خديجة كان إحدى وعشرين سنة، وقِيل: ثلاثين، وقِيل: سبعاً وثلاثين[١٣٨].

وكان زوج خديجة الأول أبو هالة بن زرارة التميمي، وكان اسمه هنداً ومات في الجاهلية. وقد وَلِدت له خديجة ولداً سمّاه هنداً كذلك، وهو من الصحابة الذين شهدوا بدراً، وقِيل: أُحُداً. وهو صاحب خبر صفة الرسول. وقد قتل مع علي في يوم الجمل. وقِيل: مات في الطاعون بالبصرة. وولدت له خديجة هالة بن أبي هالة، وله صحبة أيضاً.

---

(١٣٥) «وقد رد هذا القول بأن أباها توفي قبل الفجار»، الإمتاع (١/ ١١).

(١٣٦) السيرة الحلبية (١/ ١٦٦).

(١٣٧) السيرة الحلبية (١/ ١٦٧)، أسد الغابة (٥/ ٤٣٥).

(١٣٨) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٨)، حاشية رقم ٣ «طبعة القاهرة ١٩٣٦».

وبعد أن مات أبو هالة عن خديجة، تزوجها عتيق بن عائذ «عايد» المخزومي، وقد رزقت بنتاً منه هي هند، وقد أسلمت وصحبت[١٣٩]. وهي أم محمد بن صيفي المخزومي[١٤٠].

وقد وُلِد لمحمد من خديجة جملة أولاد وبنات، هم: القاسم، وبه كان يكنى لأنه أكبر أولاده، وقد مات طفلاً. وقيل: عاش إلى أن ركب الدابة وسار على النجيبة. ثم زينب، وقيل: هي أسن من القاسم. ثُم رقية، وأُم كلثوم، وفاطمة، وقِيل في كل واحدة منهن إنها أسن من أختيها. ورويِ أن رقية، أسن الثلاث، وأُم كلثوم أصغرهن، ثم وُلِد له عبد الله. وقد اختلف في وقت ولادته، فقيل:

(١٣٩) السيرة الحلبية (١/ ١٦٧)، سيرة ابن هشام (١/ ١٩٨) «حاشية رقم ٤، «وكانت خديجة قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحت أبي هالة بن زرارة. . . كل ذلك ذكره الزبير. وهذا عكس ما نقله أبو عمرو عن الزير، فإن أبا عمر «نقل عن الزبير أنها كانت عند أبي هالة أولاً ثم بعده عند عتيق، ونقل أبو نعيم عن الزبير، فقدم عتيقاً على أبي هالة، وأما الذي رويناه في نسب قريش للزبير: قال: وكانت يعنى خديجة قبل النبي صلّى الله عليه وسلّم عند عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فولدت له جارية. وهلك عنها عتيق فتزوجها أبو هالة. . . وبعض الناس يقول: أبو هالة قبل عتيق. . .» أسد الغابة (٥/ ٤٣٤ وما بعدها).

(١٤٠) السيرة الحلبية (١/ ١٦٧)، «تزوجت خديجة بنت خويلد بن أسد قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجلين. الأول منهما: عتيق بن عايذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فولدت له جارية، وهي أم محمد بن صيفي المخزومي، ثم خلف على خديجة بعد عتيق بن عايذ، أبو هالة التيميمي، وهو من بني أسيد بن عمرو، فولدت له هند بن هند، كذا وقع في هذه الرواية عتيق بن عايذ. والصواب عابد بالباء. قاله الزبير. وسمى الجارية التي ولدتها منه هنداً. واسم أبي هالة: هند بن زرارة بن النباش بن غذي بن خبيب بن صرد بن سلامة بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم فيما رويناه عن الدولابي»، ابن سيد الناس (١/ ٥٠ وما بعدها).

ولد بعد النبوة، وقِيل: بل قبلها، وقِيل: إنه «الطيب»، وقِيل: إنه «الطاهر»، وقِيل: بل هو غيرهما. ويرى بعض أهل الأخبار أنهما لقبان له(١٤١).

وانتقل الرسول بعد زواجه بخديجة إلى بيتها، وقد عرف في الإسلام بمنزل خديجة. وكان معاوية قد اشتراه، فجعله مسجداً يصلِّي فيه الناس. وكان على باب البيت عن يسار من يدخل البيت حجر كان الرسول يجلس تحته يستتر به من الرمي إذا جاءه من دار أبي لهب ودار عدي بن حمراء الثقفي خلف دار ابن علقمة. والحجر ذراع وشبر في ذراع(١٤٢). وتقع الدار في المناطق الراقية من مكة. ولم يكن يعكر صفوه منها غير جيرته الذين أخذوا يؤذونه بعد جهر النبي الدعوة إلى الإسلام(١٤٣).

لقد أسعد هذا الزواج الرسول وأراحه، وعاش الزوجان عيشة هانئة: ترعاه خديجة وتهيّئ له كل وسائل الراحة، مما يسر له التفكير في الخالق وفي الكون وفي حالة الناس في أيامه، وما كانوا عليه من ضلال في الدين، ومن فوضى في الحياة في مختلف نواحيها. يجالس مختلف الطبقات، لا سيما الطبقات الضعيفة الفقيرة، وذي

---

(١٤١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد (١/ ٢٥)، نسب (ص ٢١)، «فأما القاسم والطاهر والطيب، فهلكوا في الجاهلية»، الطبري (٢/ ١٩٧)، «ذكر تزويج النبي، صلّى الله عليه وسلّم، خديجة رضي الله عنها»، الروض الأنف (١/ ١٢٣)، سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٢)، طبقات ابن سعد (١/ ١٣٣ وما بعدها)، ابن سيد الناس (٢/ ٢٨٨ وما بعدها)، البدء والتأريخ (٤/ ١٣٩).

(١٤٢) الطبري (٢/ ١٩٧ وما بعدها) «ذكر تزويج النبي، صلّى الله عليه وسلّم، خديجة رضي الله عنها».

(١٤٣) Sprenger, I, S. 152.

الفاقة والحاجات، وهم الأكثرية والغالبية العظمى، يسمع منهم، ويرى سوء حالهم، وقد خبر هو نفسه حالة الإنسان حين يكون يتيماً، وحين يولد فقيراً. ومن هنا نجد مصدر عطفه على اليتامى والفقراء ودفاعه عنهم دفاعاً لم يرد مثله في أي دين من الأديان.

كانت المدة التي قضاها الرسول مع خديجة من أحلى أيام الرسول، ظلّت ذكراها عالقة بذهنه، فلم ينسها، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى. أخلصت خديجة له، وأمعنت في خدمته، وأحبته، فكيف لا يتذكرها بعد وفاتها؟ ومن دلائل حبه لها وتعلقه بها أنه لم يتزوج امرأة أخرى في حياتها، ولم يفكّر في امرأة سواها وأنه ظل يذكرها بعد وفاتها ويترحم عليها. روي عن عائشة أنها قالت كان رسول الله ﷺ، لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها. فذكرها يوماً من الأيام، فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً؟ فقد أبدلك الله خيراً منها! فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها. آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها، إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء. قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً..»[١٤٤].

وكان محمد في الخامسة والثلاثين من العمر، أو الخامسة والعشرين يوم أعادت قريش بناء الكعبة لتصدع حدث في جدرانها على أثر سيل عظيم. وهو الذي وضع الحجر الأسود في مكانه في احتفال كبير مهيب[١٤٥].

---

(١٤٤) أسد الغابة (٥/ ٤٣٨ وما بعدها).

(١٤٥) خبر هدم الكعبة وإعادة بنيانها واختلاف قريش في ذلك في تاريخ الطبري =

وقد ورد في بعض الروايات أن الرسول كان غلاماً حين هدمت الكعبة، فكان ينقل الحجارة مع الناقلين[١٤٦]، أي أنه كان دون العمر المذكور.

هيأت خديجة لزوجها كل أسباب الراحة، وشعر الرسول بالسعادة والراحة، له زوج صالحة، وله بيت ساقه الله إليه، وله مال من زوجه هذه يكفيه. ثم إنه رجل قانع لا يميل إلى متاع الدنيا، ولا يرغب في النعيم، لولا حادث كدر صفوه، وأثر فيه كثيراً كما أثر في خديجة أيضاً، هو وفاة ابنهما البكر القاسم، مات قبل المبعث، ثم وفاة ابنهما الآخر عبد الله قبل النبوة على رواية. وقد كانا الولدين الوحيدين اللذين رزقهما النبي من خديجة. ولما نعرفه من أهمية الولد عند العرب، ندرك مبلغ حزن الرسول وخديجة على الحادثين، ومقدار تأثرهما به.

والغريب أن الولد الثالث الذي رزقه الرسول من سريته مارية القبطية، وهو إبراهيم الذي وُلِد له بالمدينة سنة ثمان من الهجرة، لم يعش أيضاً، إذ توفي وهو طفل قبل الفطام[١٤٧]. وحرم محمد بوفاته كل ولد ذكر.

ولم تتحدث كتب السير عن تجارة الرسول قبيل نزول الوحي عليه، ولم تتحدث عن قيامه برحلات تجارية إلى خارج مكة كذلك

= (٢/ ١٩٨)، ابن هشام (١/ ٢٠٤ وما بعدها)، ابن سعد (١/ ١٤٥ وما بعدها)، الروض الأنف (١/ ١٢٧)، الحلبية (١/ ١٧٢)، ابن سيد الناس (١/ ٥٢).

(١٤٦) أخبار مكة (ص ١٢٤).

(١٤٧) السيرة الحلبية (١/ ٢٥)، نسب (ص ٢١).

في هذا الوقت. وليس في هذه الكتب أي خبر يفيد ذهاب الرسول إلى الحبشة وعبوره البحر الأحمر أو ركوبه البحر، لا قبل هذه الأيام ولا بعدها. والظاهر أن تغلّب حب الخلوة عليه قبيل نزول الوحي قد حمله على الاكتفاء بما قد جمعه هو وبما جمعته خديجة من تجارتها، فلم يذهب إلى الأسواق البعيدة النائية، ولا إلى الأسواق المحلية يقضي وقته فيها على عادة التجار، بل اكتفى بتجارة خفيفة وربما اكتفى بالإشراف على إدارة أموال زوجه أيضاً. وبذلك هيأ نفسه للتفكير في الخالق وفي الكون وفي التفكير في أحوال قومه وفيما كانوا عليه. ولو انصرف إلى التجارة وتعاون مع زوجه خديجة في تنمية ثروتها والمضاربة بأموالها، لصار له شأن يذكر بين التجار، ولصار له مال وثراء، ولم يذكر أحد أنه حاز على هذه الثروة أو أنه طمع فيها ولا سعى وراء المال والثراء، لا قبل نزول الوحي عليه ولا بعد نزوله.

وقد كان بين من أسلم وآمن بالله نفر كانت ثروتهم تفوق ما كان عند الرسول وتزيد عليها أضعافاً مضاعفة، فساعدوا الرسول بأموالهم في إبلاغ الناس رسالته وفي مساعدة الفقراء وفي تحرير الرقاب، لم يبالوا بما بذلوه من جهد سابق في تحصيلها ولا من نصب في جمعها، ولم يفكروا في ضياعها وفي خروجها منهم، ذلك لاعتقادهم بعد دخولهم في الإسلام أن الثروة عرض، وأن الإيمان جوهر أثمن من المال ومن متاع هذه الدنيا الفانية، فجادوا بما جمعوه وتباروا به في نشر الإسلام.

وقد كانت قريش جماعة تجارة، أفرادها تجار، ومجتمعها مجتمع تجارة، ومال، حتى الكعبة وما يتعلق بها جعلتها مكسباً

وتجارة تستغلها. عملت كل ما في إمكانها لتهيئة جميع وسائل الراحة لمن يقصد مكة للحج في المواسم وللطواف في غير المواسم المقررة. ولهذا نجد القرآن الكريم يخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها، وبالمصطلحات التي كانوا يستعملونها، فقد وردت فيه مصطلحات يفرط التاجر في استعمالها في حياته التجارية، مثل: تجارة، وخسرت، وخسر، وربح، وربا، ويقرض، وقرضاً حسناً، ورحلة الشتاء، ورحلة الصيف، ورزق، وقسط، ووزن، وقسطاس، وقسمة، وأمثال ذلك وردت في آيات يفهمها التاجر ويدركها بكل سهولة.

لم يكن في طبع محمد وسجيته ميل إلى لهو وعبث، فلم يقع له ما يقع فيه لذاته من ارتياد مجالس الأنس والطرب. وقد كان ينفر من الغناء والموسيقى، فلم يحضر حتى مجالس الطرب التي تُقام في الأفراح وتحييها القيان، ويغني فيها المغنون. ذكر أنه أراد مرة أن يسمر بمكة كما يسمر الفتيان، وكان بأعلى مكة يرعى الغنم، فقال لفتى من قريش كان معه: أبصر لي غنمي، حتى أسمر هذه الليلة كما يسمر الفتيان، فوافق. وجاء إلى مكة، فلما بلغ أدنى دار من دور مكة، سمع غناء وصوت دفوف ومزامير، وكان فيها عرس، فلها بذلك الغناء وبذلك الصوت، حتى غلبه النعاس، فنام ولم يوقظه إلا مس الشمس له. وأراد مرة أخرى أن يسمر، ولكنه لم يفعل أكثر مما فعله هذه المرة. وذكر أن الرسول قال: «والله، ما هممت بغيرهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية، حتى أكرمني الله عزّ وجلّ بنبوته»[١٤٨].

---

(١٤٨) عيون الأثر (١/ ٤٤ وما بعدها).

ولم يكن يميل إلى مخالطة الناس كثيراً، ولا الاجتماع بأقرانه طويلاً؛ لشغفه بالوحدة وجنوحه إلى الخلوة، حتى أعياد قومه لم يكن يرغب في حضورها وشهودها. وطالما حثه عمه أبو طالب وعماته على مشاركته قومه أفراحهم في أعيادهم، ولكنه كان يجد مشقة وصعوبة في الاستجابة لطلبهم ويعتذر إليهم عن حضورها. ذكر عن «أم أيمن» أنها قالت: كان بوانة صنماً تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلق عنده وتعكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه، ويكلم رسول الله، صلَّى الله عليه وسلّم، أن يحضر ذلك العيد معهم، فيأبى ذلك. قالت: حين رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا؛ ويقلن: ما تريد ـ يا محمد ـ أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً؟ فلم يزالوا به، حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع مرعوباً فزعاً، فقلنا: ما دهاك؟ قال: إني أخشى أن يكون بي لمم. فقلنا: ما كان الله عزّ وجلّ ليبتليك بالشيطان، وكان فيك من خصال الخير ما كان، فما الذي رأيت؟ قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل، يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسه! قالت: فما عاد إلى عيد لهم، حتى تنبأ»[١٤٩].

ووصف الرسول أحد من رآه وشاهده بالكلمات الآتية: «ولم أرَ منه ولا ضحكاً، ولا جاهلية، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون»[١٥٠]. وكذلك كان وصف الآخرين ممن شاهدوه منطبقاً

---

(١٤٩) عيون الأثر (١/ ٤٥).

(١٥٠) تفسير روح المعاني (٣٠/ ١٦١ وما بعدها).

على هذا الوصف: تأمل وتفكير، وهدوء، وميل إلى الانزواء والابتعاد عن الأعمال التي يقوم بها لداته ممن هم في عمره، وهجر لجاهلية الجاهليين تام.

انصرف الرسول بعد زواجه إلى التفكير في خلق السماوات والأرض وفي الخالق وفي أحوال قومه، لقد تغلب هذا التفكير عليه وزاد كلما تقدم في السن، حتى دفعه إلى اعتزال الناس والابتعاد عنهم خارج مكة، ليكون في خلوته هذه بعيداً عن المزعجات والمضايقات، منصرفاً إلى التفكير انصرافاً تاماً، وصارت هذه الخلوة أحب شيء إليه(١٥١). فطالت ساعاتها واتسع وقتها، وظل يواظب عليها إلى إبلاغ الناس رسالته.

وقد حمله تفكيره هذا في خلق السماوات والأرض وفي أحوال قومه على السهر في الليالي، لا سيما في أواخرها متأملاً الخلق، ناظراً إلى السماء فاحصاً ما فيها، ناظراً إليها نظرة تدقيق وإعجاب، باحثاً عن القوة المهيمنة عليها والخالق الذي أوجدها والنظام البديع المسيّر لها. دأب على ذلك قبل الوحي، واستمر عليه مضيفاً إليه الصلاة في الإسلام.

لقد كان الرسول يشعر قبل نبوته أن عليه رسالة وواجباً تجاه قومه، وأن له رأياً يختلف عن رأي قومه في كثير من الأمور. وكان كلما تقدم في السن ازداد شعوره بذلك، وازداد يقيناً برسالته هذه وبوجوب هداية قومه وإرشادهم، وهذا الشعور هو الذي حمله على التحنث والانزواء عن الناس والابتعاد عن عبادة الأصنام وعدم

---

(١٥١) «وحيث إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه منها»، طبقات ابن سعد (١/ ١٩٤)، «طبعة بيروت».

مشاركة قومه في احتفالاتهم بأعيادهم، لما لها من علاقة بالوثنية والأوثان.

هذا كل ما نعرفه عن حياة النبي منذ وُلِد إلى يوم نزل الوحي عليه، وهو يوم بلوغه الأربعين من عمره، وهي مدة تساوي ثلثي عمر الرسول. وقد أخذنا كل ذلك من كتب الحديث والأخبار والسير. أما القرآن الكريم، فلم يتعرض لحياته في هذه المدة إلا ما ورد في سورة الضحى:

﴿والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى؟ فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

وكل ما ورد في هذه الموارد هو روايات شفوية بنيت على الرؤية والسماع. وطبيعة هذا النوع من الرواية، تجعل من الصعب على الرواة المحافظة على ما سمعوه وأخذوه، لا سيما في الأمور التي تحتاج إلى ضبط في مثل الأيام والأشهر والسنين. ولهذا نجد في السير والتواريخ اختلافاً بين الرواة يظهر على الأكثر في ضبط الأيام والأشهر والسنين. وسنرى أمثلة عديدة من ذلك في الفصول الآتية. وما كان يقع ذلك، ولا شك، لو أن تلك الروايات دوّنت في أيام الرسول، أو الأيام القريبة منه.

ومرد الاختلاف الذي رأيناه في ضبط الأيام والسنين إلى عدم تدوين تواريخ الميلاد في ذلك العهد. وإلى عدم اهتمام الإنسان بضبط أيام طفولته وشبابه في الغالب، ولجوء الأخباريين إلى

أشخاص عديدين في معرفة أخبار الرسول. وقد أخذ هؤلاء علمهم شفاهاً ورواية، ومن أناس متعددين رجالاً ونساء، ولهذا تعددت الروايات واختلفت الأقوال في موضوع التواريخ بصورة خاصة، وقلما تتمكن الذاكرة من ضبطها ضبطاً تاماً. ثم إن حياة الرسول قبل النبوة، لم تكن ذات صلة بكثير من الناس، وكانت ذات وتيرة واحدة، تغلب عليها العزلة والانزواء والانطواء والتأمل، وحياة مثل هذه، وفي هذا الدور من حياة الإنسان لا يمكن بالطبع أن تعي منها الذاكرة شيئاً كثيراً.

وأما ما بعد ذلك، فسيرة الرسول واضحة مفصلة، ثبتها القرآن الكريم، وثبتها الصحابة الذين لازموا الرسول وشهدوا معه الأحداث والمواقع، لا سيما أولئك الذين كانوا يلازمونه فلا يفارقونه في غالب الأحيان. وسيرة الرسول في هذا العهد هي مبدأ تأريخ الإسلام، وتأريخ نشوئه، وهي في دورين بالطبع دور مكة، ثم دور يثرب مدينة الرسول بعد هجرته ومثواه الأخير.

وسيرة الرسول هذه على إيجازها واختصارها، أوضح وأصح صورة وردت عن حياة رسول من الرسل ونبي من الأنبياء. وردت في القرآن الكريم، على خلاف ما نجده في الكتب السماوية وفي الكتب المقدسة الأخرى. سيرة إنسان وُلد إنساناً كما يُولد سائر الناس، وعاش مثل غيره، ومات كما يموت الآخرون.

الفصل الرابع

محمد رسول الله

تعد السنة الأربعون، أو حوالى هذه السنة من حياة محمد، سنة مهمة جداً في تأريخ العرب والإسلام والعالم. ففي هذه السنة نزل الوحي عليه، مبلغاً إياه بأنه رسول الله رب العالمين إلى العالم أجمعين، وأن عليه إبلاغ رسالته للناس ونشر دعوته بينهم[1]. وتصادف هذه السنة سنة ٦١٠ تقريباً للميلاد.

وقد كان ذلك في ملك كسرى أبرويز، وعلى الحيرة إياس بن قبيصة الطائي[2].

ويعد المسلمون السنة الأربعين من حياة الإنسان سنة الكمال والنضج وبلوغ العقل نهايته من الصفاء والوضوح، وهي سنة النبوة في حياة الأنبياء[3].

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، للحسين بن المبارك الزبيدي، (١/ ٦٢) «باب مبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم».

(٢) البلاذري (١/ ١٠٣ وما بعدها).

(٣) «بعث الله على رأس أربعين، وهي رأس الكمال. قيل: ولها تبعث الرسل. وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء، وله ثلاث وثلاثون سنة؛ فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه»، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد (١/ ١٩).

وما ذكرته عن نزول الوحي عليه، وهو في الأربعين من العمر، هو رأي أكثر أهل السير والأخبار. غير أن هنالك روايات أخرى ذكرها الطبري وغيره، تخالف هذه الرواية المألوفة فهناك خبر يتصل سنده بابن عباس ذكر فيه أن الرسول نبئ حين نبئ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة[٤].

وأما كيفية ابتداء نزول الوحي عليه، فكانت على ما تقوله رواية عن عائشة على هذا النحو:

«أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه. وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني «فغتني» حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطني «فغتني» الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ: فقلت: ما أنا بقارئ. فغطني «فغتني» الثالثة، ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم. فرجع بها رسول الله، ﷺ، يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني. زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع»[٥]. فكان هذا أول الوحي. وكانت هذه الآيات أول القرآن.

---

(٤) الطبري (٢/ ٢٠١ وما بعدها)، إمتاع الأسماع (١/ ١٣)، تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٦٩).

(٥) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، للزبيدي (١/ ٤)، «باب كيف =

ولم تشر الروايات عن ابن عباس وعن جابر بن عبد الله وعن غيره إلى نزول شيء من القرآن على الرسول في المرة الأولى التي ظهر فيها جبريل للرسول، بل تذكر أنه «بينا رسول الله بأجياد إذ رأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح: يا محمد، أنا جبريل، يا محمد، أنا جبريل. فذعر رسول الله، ﷺ، من ذلك، وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء، فرجع سريعاً إلى خديجة، فأخبرها خبره، وقال: يا خديجة، والله، ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان، وإني لأخشى، أن أكون كاهناً»[٦]. فطمأنته خديجة، وهدأت من روعه، وشجعته، ثم ذهبت إلى ورقة لتسأله الخبر على نحو ما ورد في بقية الروايات.

وهناك روايات تفيد بأن الوحي نزل على الرسول، وهو نائم في غار حراء[٧]. ولكن أكثر أهل الأخبار على أنه كان في يقظة، لأن الوحي بالنبوة لا يمكن أن يكون في حالة نوم. ثم إنه لا يختلف في هذه الحالة عن الرؤيا التي تظهر للأشخاص في أثناء النوم.

والوحي في تعريف العلماء، هو الكلمة الإلهية التي تلقى إلى

= كان بدء الوحي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٢)، «طبعة البابي»، الطبري (٢/ ٢٠٣ وما بعدها)، أخبار مكة (ص ٤٢٦ وما بعدها)، «طبعة لايبزك»، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس (١/ ٨٤ وما بعدها)، القاهرة ١٣٥٦هـ، السيرة الحلبية (١/ ٢٧٢)، تأريخ الإسلام، للذهبي (١/ ٦٩).

(٦) طبقات ابن سعد (١/ ٩٤ وما بعدها)، «طبعة بيروت».

(٧) «فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب.. فقرأته، ثم انتهى، ثم انصرف عني، وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً»، الطبري (٢/ ٢٠٧).

أنبيائه ورسله وأوليائه، وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي في صورة معيّنة، أي بتنزيل، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاء في الروع، وإما بإلهام، وإما بتسخير، وإما برؤيا[٨]. وعقيدة الوحي، معروفة عند النصارى وعند اليهود قبلهم. وهو عندهم على درجات أيضاً[٩]. وهو (أوحى Aohy) في العبرانية والآرمية و(وحي) Wahaya في الحبشية[١٠].

والوحي كلام الله، أنزل على رسوله، وهو القرآن الكريم الذي حفظه الرسول عن جبريل وألقاه إلى المسلمين، فهو كتاب الله. وكذلك اعتقد اليهود أن الوحي هو كلام يهوه أوحي إلى أنبيائه، فكتبهم هي [كتب يهوه Jahve Zebaoth][١١].

وقد كان الجاهليون كما سنرى يعتقدون بالإلهام، وبالتكليم من السماء. فقد كان الكاهن ملهماً في نظرهم، يتلقى إلهامه من «تابع» أو «رئي» يلقي إليه الغيب، كما كان للشاعر شيطان يوحي إليه القول. واعتقدوا بتكليم السماء للإنسان، فقد ذكر أن قريشاً كانوا إذا مرّ بهم النبي «في مجالستهم يشيرون إليه، ويقولون: غلام بني عبد المطلب، يُكلَّم من السماء»[١٢]. وإن قالوها هزءاً به واستخفافاً.

---

(٨) المفردات (ص ٥٢٦)، Noldeke, I, S. 21, Goldziher, Muh. Stud., II, 7, Dictionary of Islam, p. 213. f.

(٩) Hastings, p. 383.

(١٠) Handwoterbuch, S. 764, Fraenkel, Aram. Fremdworter, S. 245.

(١١) Noldeke, I, S. 5.

(١٢) البلاذري (١/ ١١٥)، Noldeke, I, S. I.

ويرى بعض العلماء أن الوحي حينما نزل على الرسول، إنما نزل عليه بادئ بدء بالنبوة فصار نبي قومه، ثم نزل الوحي عليه في السنة الرابعة من الوحي بالرسالة، فصار رسولاً إلى الناس أجمعين. واستمرت رسالته عشرين سنة أو تسع عشرة سنة، وتكون بذلك مدة نبوته ورسالته ثلاثاً وعشرين سنة. وهذا الرأي هو رأي العلماء المتأخرين، وليس في القرآن الكريم وفي كتب الحديث ما يشير إليه.

والذي يظهر من تتبع ورود لفظة «النبي» والألفاظ المتعلقة بها، ولفظة «الرسول» وما يتعلق بها من ألفاظ، في القرآن الكريم، أن لفظة «رسول» قد وردت أول مرة في سورة «المزمل»[١٣]، وصورة المزمل من السور المكية القديمة التي نزلت في الدور الأول من أدوار نزول الوحي على الرسول. ولفظة الرسول هي وأخواتها في المعنى، من الألفاظ العربية الأصيلة، وقد وردت في هذه السورة بفكرة مبعوث ومرسل برسالة إلى قوم. أما لفظة «النبي» و«نبي» وما إليها من بقية ألفاظ، فقد جاءت في سور مكية كذلك. ولكنها لم ترد في السورة المذكورة ولا في السور الأخرى التي نص العلماء على أنها من السور المكية القديمة التي نزلت في السنين الأولى من الوحي، بل في سور متأخرة عنها. ولهذا قلت: إن الرأي المذكور الذي يذكر أن السنين الأولى الثلاث من نزول الوحي كانت نبوة والسنين الباقية هي رسالة، هو رأي متأخر قال به علماء متأخرون. قالوا به على ما يظهر بعد توسعهم في العلوم، ووقوفهم على معنى

(١٣) الآية ١٥ وما بعدها.

النبوة عند أهل الكتاب. وتخصص لفظة «نبي» عند اليهود بأنبيائهم الذين جاءوا خاصة إلى بني إسرائيل. فذهبوا إلى هذا التفريق، لأن النبوة في الإسلام هي أوسع من مراد النبوة في اصطلاح أخبار يهود. فذهبوا من أجل هذا إلى أن الوحي حينما نزل، إنما نزل بالنبوة في بادئ الأمر، ثم بالرسالة بعد توسع الدعوة وشمولها أهل مكة وغير مكة من العرب ثم شمولها العرب والعجم على حد سواء.

وقد كان الرسول نذيراً وبشيراً لقومه، ولذلك دعي بـ «النذير» وبـ «البشير» في القرآن الكريم، في سور مكية ومدنية. وقد عبر عن الرسل بـ «منذرين» أيضاً وبـ «مبشرين»؛ لأن الرسول لم يكن مخوفاً، ينذر الناس بعذاب أليم، بل هو مبشر لهم أيضاً، يبشرهم بالحق وبما يصلح الإنسان. ومن هنا نجد في السور المكية الأولى إنذاراً للمشركين بعذاب أليم، وبنار لا تترك ولا تذر، لواحة للبشر، وذلك لعنادهم ولمقاومتهم الدعوة إلى الحق. ونجد فيها تبشيراً للمؤمنين برحمة وبنعيم مقيم. وكلما قاومت قريش الإسلام واشتطت في إيذائها للمسلمين، اشتد الوحي في إنذارها بمصير يشبه مصير ثمود وقوم لوط والعاصين الماضين، وبعذاب في الآخرة بعد الموت.

وذكر بعض العلماء: أن أول ما نزل من القرآن، هو ﴿**إقرأ**﴾. وبهذا النزول ابتدأت النبوة[١٤]. ولم ينزل بعد آيات ﴿**إقرأ**﴾ من الآيات شيء إلى ثلاث سنين[١٥]. ثم نزلت المدثر، أو المزمل، بعد ثلاث سنين، فكانت أول ما نزل للرسالة[١٦]. وهم يقصدون بذلك

---

(١٤) السيوطي، الإتقان (١/ ٤٠).
(١٥) الزنجاني، تاريخ القرآن (ص ٩).
(١٦) الإتقان (١/ ٤٠).

عدم نزول شيء من القرآن مدة السنوات الثلاث التي تحدثنا عنها، أي مدة الاستخفاء، فيجعلون بذلك فترة انقطاع الوحي وفترة الاستخفاء شيئاً واحداً. فلما نزلت المدثر، استمر الوحي عليه، يأتيه منجماً طيلة هذه المدة التي تلت النبوة، ومدتها عشرون عاماً.

وقد اختلف في اليوم الذي نزل فيه «جبريل» على الرسول بالوحي، كما اختلف في ضبط اسم اليوم، فقيل: إنه كان في ليلة السابع عشر من شهر رمضان، وقيل: رابع عشر منه، وقيل: لأربع وعشرين ليلة خلت من شهر رمضان، وقيل: كان ذلك ليلة ثمان من شهر ربيع الأول، وقيل: إنه ليلة أو يوم السابع والعشرون من شهر رجب[١٧]. ثم قيل: إنه السبت، وقيل: إنه الأحد، وقيل: إنه الاثنين، إلى غير ذلك من الروايات[١٨].

وإذا جاز وقوع الاختلاف في اليوم، فإنه لا يجوز الاختلاف في الشهر، ذلك لأن الاختلاف فيه معناه معارضة صريحة للقرآن الكريم. فقد نص في سورة البقرة عليه في هذه الآية: **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾**[١٩]. وورد في سورة القدر: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾**[٢٠]. وتقع ليلة القدر في شهر رمضان[٢١]. ولما كان الوحي

---

(١٧) «عن ابن عباس قال «نبيء نبيكم، صلّى الله عليه وسلّم؛ يوم الاثنين»، طبقات ابن سعد (١/ ١٩٣ وما بعدها) «طبعة بيروت»، السيرة الحلبية (١/ ٢٧٢)، عيون الأثر (١/ ٨٨).

(١٨) الطبري (٢/ ٢٠٣ وما بعدها)، إمتاع الأسماع (١/ ١٤).

(١٩) البقرة، الآية ٨٥.

(٢٠) القدر، الآية ١.

(٢١) ابن هشام (١/ ٢٥٦).

قد نزل مع القرآن، فيجب أن يكون نزول الوحي في شهر رمضان إذن.

ثم إن أصحاب الأخبار يشيرون إلى أن الرسول كان يتحنث في غار حراء في كل سنة أياماً أو شهراً كاملاً، وكان ذلك الشهر كما يذكرون هو شهر رمضان يتحنث على عادة المتحنثين من أهل الجاهلية، أو من أهل قريش. ولما كان الوحي قد نزل عليه في أثناء تحنثه كما يذكر أهل الأخبار، فيجب أن يكون نزول الوحي عليه إذن في هذا الشهر الذي هو شهر رمضان.

والظاهر أن الذين قالوا إنه نزل في شهر ربيع الأول أو في شهر رجب، إنما أخذوا قولهم هذا من أحاديث متأخرة، رويت من دون مناقشة مع تعارضها صراحة مع ما ورد في القرآن عن نزوله في شهر رمضان. وقد نشأ خطأهم هذا فيما أرى من سهو حدث من بحث أهل الأخبار والسير عن وصف كيفية نزول الوحي على الرسول في مكان، وعن نزول القرآن في موضع آخر، وإقحامهم تلك الأحاديث في فصل نزول الوحي على الرسول.

وأما المكان الذي سمع فيه النبي صوت الوحي، فكان غاراً في خارج مكة، على مسافة فرسخين من شمالها، عرف بـ «غار حراء». كان النبي يخرج إليه يتحنث، يبقى فيه أياماً لا يرى أحداً ولا يتصل به إنسان. وكان خروجه إلى هذا الموضع عادة ظهرت له كما يفهم من الأخبار بعد زواجه بخديجة وقبل بلوغه سن الأربعين ونزول الوحي عليه(٢٢).

وتذكر بعض الروايات أن الرسول كان يجاور في حراء من كل

---

(٢٢) السيرة الحلبية (١/ ٢٧١).

سنة شهراً وكان ذلك مما تحنثت به قريش في الجاهلية. وكان يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر من السنة عاد إلى جواره[٢٣].

ويفهم من هذه الروايات أنه كان يذهب وحده إلى الغار، فلا يأخذ زوجه خديجة معه، لينصرف إلى التفكر والتأمل انصرافاً كلياً، وأنه كان يأخذ معه من الزاد ما يكفيه لتلك المدة، وكان زاده الكعك والزيت. وقد ينضب ذلك قبل انقضاء الشهر فيترك عندئذ الغار إلى بيته، ليأتي بزاد جديد يكفيه للمدة المتبقية. وكانت هذه الخلوة من أحب الأيام إليه. ينقطع فيها عن الناس وعن أشغال الدنيا. وكان من يرد إلى الغار من الناس[٢٤].

وهناك روايات أخرى تفيد أنه كان يأخذ عياله معه أيضاً، أي خديجة، إما مع أولاده وإما بدونهم[٢٥]، وهي روايات تتعارض مع فكرة التحنث والانزواء والخلوة، ومع ما ذكر من أنه كان يقصد مكة في أيام نقص طعامه ليذهب إلى خديجة ليتزود منها بالطعام، ومع الأحاديث التي تذكر صراحة أنه كان وحيداً في الغار وعلى عادته في كل مرة يوم، ظهر الوحي عليه، وأنه ذهب عندئذ مذعوراً خائفاً إلى خديجة حيث قص الذي حدث له عليها، فذهبت هي إلى ورقة، فحدثته بالذي كان.

---

(٢٣) الطبري (٢/ ٢٠٦)، ابن هشام (١/ ٢٥١)، «طبعة البابي».

(٢٤) السيرة الحلبية (١/ ٢٧٠ وما بعدها).

(٢٥) السيرة الحلبية (١/ ٢٧٢).

وفي بعض الروايات أن عادة التحنث في غار حراء، إنما سنها عبد المطلب جد النبي، وكان أول من تحنث في هذا المكان شهراً من كل عام. وكان ذلك الشهر هو شهر رمضان. فكان إذا دخل هذا الشهر، صعد حراء، وأطعم المساكين. ثم تبعه على ذلك من كان يتأله ويتعبد، كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة(٢٦) فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر(٢٧).

وجاء في بعض الروايات: «كانت قريش إذا دخل رمضان، خرج من يريد التحنث منها إلى حراء، فيقيم فيه شهراً، ويطعم من يأتيه من المساكين. حتى إذا رأوا هلال شوال، لم يدخل الرجل على أهله حتى يطوف بالبيت أسبوعاً فكان رسول الله (ﷺ) يفعل ذلك»(٢٨). ويذكرون أن التحنث: التبرر(٢٩).

وإذا صحت روايات أهل الأخبار عن عادة التحنث في هذا الشهر، شهر رمضان، فإنها تدل على احترام الجاهليين له، واعتقادهم بوجود خاصية وحرمة وميزة له. أو احترام بعض الجاهليين، وهم الأحناف، له، واعتكافهم فيه على عادة الناسكين والزهاد في الانزواء في أماكن خلوة، بعيدة عن الناس، ليكونوا بذلك في خلوة تامة، لا صلة لهم بالعالم وبالناس، فلا يصرفهم صارف عن التفكير في الخلق وفي العالم. ولا يعقل اختيار الجاهلين

---

(٢٦) السيرة الحلبية (١/ ٢٧١)، «وكان «أي عبد المطلب» أول من تحنث بحراء»، البلاذري (١/ ٨٤).

(٢٧) البلاذري (١/ ٨٤).

(٢٨) البلاذري (١/ ١٠٥).

(٢٩) تاريخ الإسلام، للذهبي (١/ ٧٤ وما بعدها).

لشهر رمضان من بين سائر الأشهر عن عبث، وعن مجرد مصادفة. بل لا بدَّ أن تكون هنالك حرمة له عندهم قبل الإسلام بزمان.

وقد تكون هذه الحرمة هي التي ميزته وفضلته على سائر الشهور، بأن صار شهر الصيام والشهر المبارك في الإسلام، وفضل بذكر اسمه في القرآن الكريم. ويظهر من إهمال أهل الأخبار له، بعدم إدخال اسمه في الأشهر الحرم المعروفة المذكورة في الكتب ـ وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وهي أشهر متصلة ثم شهر رجب الفرد أو شهر رجب الأصم. إن الجاهليين لم يكونوا يعدونه شهراً محرماً كالأشهر المذكورة في أيام الرسول، ولكنهم كانوا ـ أو كان بعض منهم كما ذكرت يعظمونه ـ ويحترمونه ويقدرونه تقديراً خاصاً بتحنثهم به. ومن يدري؟ فلعله كان من الأشهر المقدسة الدينية عند الجاهليين، في الجاهلية البعيدة عن الإسلام، ولهذا بقيت حرمته هذه في التحنث المذكور وفي إطعام الفقراء فيه والمحتاجين.

وتذكر بعض الروايات أن الرسول حينما عاد من الطائف، بعد أن ذهب إلى أهلها طمعاً في إقناعهم بالإيمان به، اختفى فيه مدة، ثم عاد منه إلى مكة، ولما لهذا الغار من مكانة في الإسلام، عرف الجبل الذي هو فيه بجبل النور. وهو مقابل جبل آخر يسمى «ثبير»، وما زال غار حراء باقياً يقصده الناس[٣٠].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن عادة التحنث هذه هي عادة يهودية نصرانية. دخلت إلى الجاهليين من الرهبان الذين كانوا قد انزووا واعتكفوا في مواضع متعددة من جزيرة العرب. وقد ذهب

---

(٣٠) Ency. of Islam, II, p. 315, Wustenfeld, Die chroniken der stadt Mekka, I, S. 426, Burckhardt, Travel in Arabia, I. p. 302.

«هرشفلد H. Hirschfeld»، وهو من المستشرقين الذين يرجعون أصول الإسلام إلى اليهودية بالدرجة الأولى لعاطفته اليهودية وإلى النصرانية بالدرجة الثانية، ليرجعها بعد ذلك إلى اليهودية، أن «التحنث» معربة عن أصل عبراني، هو «تحينوت Tehinnot»، أو «تحينوث Tehinnoth»، معناها الاعتكاف والتوجه بالصلاة إلى الله[(٣١)].

وقد خوطب الرسول في القرآن الكريم بـ «النبي» وبـ «الرسول». وقد سبق الرسول أنبياء ورسل. ويُقال للنبي «نابي Nabi» في العبرانية. وقد وردت اللفظة في أكثر من ثلاث مئة موضع من العهد القديم[(٣٢)]. وتقابلها لفظة «نبيا» Nabiia[(٣٣)] «نبيو» Nabiio[(٣٤)] في السريانية وتعني الرائي، أي الناظر والمنذر بوحي من الله الكائنات قبل كونها في هذه اللغة[(٣٥)]. وكل رسول نبي، غير أن من الأنبياء من هم ليسوا رسلاً. والرسل عند المسلمين أقل عدداً من الأنبياء بكثير[(٣٦)].

والرسول هو (شليحو Shliho) في السريانية. من أصل «شلح

---

(٣١) M. watt, Muhammad at Mecca, p. 44, H. Hirschfeld, New Researches into the Composition and exegesis of the Qoran, London, 1902, p. 10, C.J. Lyall, in JRAS, 1903, P. 1903. p. 780, Caetani Ann., p. 222.

(٣٢) Hastings, p. 757.

(٣٣) Shorter, p. 563.

(٣٤) برصوم (ص ١٧٥).

(٣٥) برصوم (ص ١٧٥).

(٣٦) Shorter, p. 611.

«Shlah» بمعنى أرسل وبعث، والجمع (شليحون)[٣٧]. وهي من المصطلحات النصرانية، وترد في العبرانية كذلك[٣٨]. وقد عرفت في المؤلفات العربية بـ «السليح» أخذت عن النصارى، واستعملت في معنى الرسول[٣٩]. ولكن استعمال النصارى لها يختلف عن استعمال المسلمين، فقد أطلقوها على رسل المسيح. فالرسول عندهم إذن هو دون المفهوم من معناها عند المسلمين. وقد وردت جملة: «شيليحه دالاها» في السريانية، وهي في معنى «رسول الله»[٤٠].

وأما الملك جبرائيل أو جبريل فإنه الملك المكلف إبلاغ الوحي إلى الرسل، وقد ذكر اسمه ثلاث مرّات في القرآن الكريم[٤١]. وهو من الملائكة الأربعة المقربين، وهم: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل[٤٢]. ولكل واحد من هؤلاء واجب ووظيفة وهو «Gabriel» في اليهودية والنصرانية، ومعناها رجل الله، وهو أحد الملائكة السبعة المقدمين المقربين من الله في هاتين الديانتين[٤٣]. وهو الذي حمل البشارة لزكريا في شأن ولادة يوحنا، ولمريم في شأن ولادة المسيح[٤٤].

ولم يرد اسم جبريل في القرآن الكريم إلا في سورتين، هما:

---

(٣٧) برصوم (ص ٨٩).

(٣٨) Hastings, p. 44.

(٣٩) برصوم (ص ٨٩ وما بعدها).

(٤٠) Shorter, p. 611.

(٤١) Shorter, p. 79. Handworterbuch des Islam, S. 100, f. Noldeke, 1. S. 20 f.

(٤٢) Shorter, p. 79.

(٤٣) Hastings, p. 275, J. Horovitz, Koranishe Untersue-chungen, S. 107.

(٤٤) قاموس الكتاب المقدس (١/ ٣١١).

سورة البقرة[٤٥] وسورة التحريم[٤٦] وهما سورتان مدنيتان، أما السور المكية، فقد ورد فيها ﴿الروح﴾» و﴿روح القدس﴾ ﴿قل نزله الروح القدس﴾ [٤٧]. ﴿نزل به الروح الأمين﴾[٤٨]. أما في كتب الحديث فيرد فيها بكثرة، لا سيما في باب كيفية نزول الوحي. وقد أريد بالروح وبروح القدس، الملك الموكل بالوحي الذي نزل بالقرآن على الرسول، أي جبريل. وقد ورد في كتب الأخبار أن «طليحة الأسدي» المتنبي كان يزعم أن جبريل نزل عليه[٤٩].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن الرسول حينما سمع الوحي، تصور أنه إنما يسمعه من الله مستدلين على زعمهم هذا بآيات من سورة النجم: **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. افتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عند جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ كالبصر وما طغى﴾**[٥٠]. وبشيء آخر هو عدم ورود اسم «جبريل» في السور المكية[٥١]. وهو زعم يتعارض

---

(٤٥) الآيتان: ٩٧ و٩٨.

(٤٦) الآية ٤.

(٤٧) السورة ١٦، الآية ١٠٤.

(٤٨) الشعراء، الآية ١٩٣.

(٤٩) تاريخ الطبري (١/ ٨٩٠) «طبعة ليدن»، Noldeke, S. 21.

(٥٠) سورة النجم، الآيات ٣ وما بعدها.

(٥١) Muhammad at MECCA, by: W. Montgomery Watt, p. 43, Karl Ahrens, Muhammad als Religionsstifter, Leipzig, 1935.

بالطبع مع ما ورد في كتب التفسير الحديث والسيرة عن نزول الوحي على الرسول.

وأما كيفية نزول جبريل على الرسول وسماعه له، فتذكر كتب الحديث أنه كان يأتيه الوحي أحياناً مثل صلصلة الجرس، وهو أشده على الرسول، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعي ما يقوله، وأحياناً كان يتمثل له على هيئة ملك يكلمه من السماء. وقد كان يتأثر حين نزول الوحي عليه تأثراً شديداً، فكان يتفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد، من شدته عليه[٥٢]. ويكاد يغشى عليه، وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه وتأخذ حالة تشبه البرحاء من شدة الوحي عليه. تنتابه أحياناً رعدة شديدة وكرب، ويربد وجهة، ويغمض عينيه. يدوم ذلك به، على قدر نزول الوحي عليه[٥٣].

وقد رأى بعض الصحابة الرسول وقد ظهرت وبدت عليه علائم نزول الوحي، ورأوه وقد نزل عليه الوحي واشتد به، وقد أجمعوا كلهم على أنه كان يعاني في أثنائه شدة وصعوبة، يبقى على ذلك ما شاء الله، فلا يهدأ ولا يذهب عنه الروع إلا بعد انتهاء الوحي، فيجلس عندئذ وقد تصبب عرقاً، يجلس ليرتاح وليجفف عرقه. ثم يتلو على من عنده من أصحابه ما وعاه وما حفظه من الوحي. فإذا فصم عنه، كان قد وعى كل ما قاله الملك له وحفظه، لا يذهب عنه حرفاً[٥٤]. وقد ورد في سورة «طه»، وهي من السور المكّية، ما

---

(٥٢) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (١/ ٤ وما بعدها) «باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، السيرة الحلبية (١/ ٢٩٢ وما بعدها).

(٥٣) السيرة الحلبية (١/ ٢٩٢ وما بعدها)، ابن سعد (١/ ١٩٧).

(٥٤) «فيفصم عني وقد عيت عنه ما قال»، التجريد الصريح (١/ ٤ وما بعدها).

يفيد أن الرسول كان يعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليه وحيه، وذلك في الآية: ﴿**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه. وقل: رب زدني علماً**﴾[٥٥]، فحث على التثبت في السماع وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه[٥٦]. وقد ورد في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿**لا تحرك به لسانك، لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه**﴾[٥٧]. وهي من سورة القيامة، وهي سورة مكية. وقد ورد أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة، وكان يحرك شفتيه استعجالاً في الحفظ. فلما نزل الوحي عليه بذلك، كان إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق قرأه كما قرأه[٥٨]. ويدل ذلك على أن الرسول كان في بدء المبعث يسرع، يستعجل في حفظ ما يوحى إليه، يعيده في لسانه ويحرك شفتيه خشية ذهاب الوحي عنه، وهو بعد لم يحفظه كله، أو لم يعه كاملاً، إلى أن نزل الوحي عليه بوجوب التأني وترك التسرع كما جاء في الآيات السابقة.

وقد ورد في بعض الأخبار أن جبريل كان يظهر على صورة دحية الكلبي، وفي خبر عن عمر بن الخطاب أنه قال: «بينا نحن عند رسول الله، ﷺ، ذات يوم، طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد»[٥٩]. ويذكر رواة هذا الخبر أن المراد به جبريل. ولكن الغالب

---

(٥٥) الآية ١١٤.

(٥٦) المفردات (ص ٥٢٧).

(٥٧) القيامة، الآية ١٦ وما بعدها.

(٥٨) التجريد الصريح (١/٦).

(٥٩) السيرة الحلبية (١/٢٨٨).

أنه يتمثل له على هيأة دحية المذكور، إذا تمثل له على صورة إنسان. ويذكر أيضاً أن جبريل لم يظهر للرسول على هيئته الأصلية، أي على طبيعته الملائكية، إلا مرات لم تتجاوز ثلاثاً[٦٠].

ودحية الكلبي، هو دحية بن خليفة الكلبي، من الصحابة، وأحد الرسل الذين أرسلهم الرسول إلى الملوك والأمراء، ويقال إن الرسول كلفه الذهاب إلى قيصر[٦١]. أسلم بعد معركة أُحُد في رواية، أو بعد الخندق في رواية أخرى[٦٢]. وكان من الأغنياء الأثرياء، وصاحب تجارة، له قوافل تسير بتجارته، وكان يتاجر مع بلاد الشام، وله صلات وثيقة بالغساسنة وبأعراب بادية الشام، ولعله كان على صلة ببعض الموظفين الروم الذين كانوا يحكمون هذه البلاد في أيام الرسول. وقد كانت له أخت تدعى «شراف»، خطبها الرسول، ولكنها هلكت قبل دخولها عليه[٦٣].

ولما كان إسلام «دحية» قد وقع بعد الهجرة، فالمعقول أن يكون ظهور «جبريل» في هيئة «دحية» بعد الهجرة، إذا لا يعقل تمثل الوحي برجل ما زال على الشرك ولم يجد الإسلام سبيلاً إلى قلبه بعد[٦٤].

---

(٦٠) (المصدر نفسه ١/ ٢٦٨ وما بعدها)، «باب بدء الوحي صلّى الله عليه وسلّم»، الموطأ (٧٠)، مسلم (٢/ ٤٣٠)، الترمذي (٢/ ٢٠٤)، Noldeke, I, S. 22, f. Sprenger, I, S. 272.

(٦١) البلاذري (١/ ٥٣١).

(٦٢) Ency. of Islam, I. P. 974.

(٦٣) البلاذري (١/ ٤٦٠)، الاستيعاب ص ١٧٢، الأغاني (٦/ ٩٥)، السمعاني ورقة ٨٥؛ الإصابة (١/ ٢٣٧٨)، Ency. of Islam, I, S. 973, Noldeke, Geschichte des Qorans, I, S. 22. ff., Lammens, Etudes, I. p. 292, f.

(٦٤) Noldeke, I, S. 24.

وأما عن وقت نزول الوحي عليه وعلائمه فلم يكن له وقت ثابت معلوم، بل كان يتوقف ذلك على الظروف والمناسبات. ينزل عليه مرات أحياناً في نهار واحد، وينقطع أياماً عنه في بعض الأحايين، ينزل عليه في النهار، كما ينزل عليه في الليل وكان يعاني من نزوله عليه عنتاً شديداً، وتسبق نزول الوحي عليه علائم يشعر بها، توحي إليه أن الوحي مقبل عليه آت، فإذا جاءه، تفصد عرقاً، مع أنه في البرد الشديد[٦٥]، وارتعدت لحيته وأخذته الرعدة[٦٦]، حتى ينتهي الوحي، فيقرأ ما نزل عليه على من كان حاضراً عليه من أصحابه لتدوينه ولحفظه، وتذكر كتب الحديث في «باب كيف كان بدء الوحي»، أنه كان يصاب بـ «البرحاء» أي الحمى الشديدة، عند نزول الوحي عليه. وذلك من شدة نزول الوحي عليه. ففي حديث عن عائشة: «فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات»[٦٧].

والرسول أمي، لم يقرأ ولم يكتب، فإذا أراد كتابة رسالة أو عهد أو تدوين للوحي، أمر كتابه بالتدوين. على ذلك أجمع المسلمون. وقد وردت في القرآن الكريم آيات، مثل: **﴿إقرأ باسم ربك﴾**[٦٨]، وآية: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾**[٦٩]. أخذها المستشرقون على أن

---

(٦٥) تفسير الطبرسي (المجلد العاشر ٣٧٨).
(٦٦) تفسير روح المعاني (٣٠/١٥٦ وما بعدها).
(٦٧) البخاري (٢/ ٥)، كتاب الشهادات: حديث الافك.
(٦٨) سورة إقرأ.
(٦٩) العنكبوت، الآية ٤٨.

فيها دلالة على أن النبي كان يقرأ ويكتب، واستدلوا أيضاً ببعض ما ورد في كتب الحديث والسير، وفيه ما يفيد أنه كان ملماً بالكتابة والقراءة، كالذي ورد في رواية عن صلح «الحديبية» أنه «هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة. وهو ما وقع في البخاري»[٧٠]. وما جاء في السيرة لابن هشام: «فبينا رسول الله (ﷺ) يكتب الكتاب هو وسهيل»[٧١].

وما جاء في البخاري: «وأخذ رسول الله (ﷺ) الكتاب ليكتب، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد»[٧٢]. وقالوا إن في هذا المذكور وفي غيره من مثل ما ورد من أن الرسول «لما اشتد وجعه، قال: ائتوني بالدواة والكتب أكتب لكم كتاباً لا تضلون معه بعدي أبداً»[٧٣]، ومن أنه «دعا في مرضه بدواة ومزبر فكتب اسم الخليفة بعده»[٧٤]. دلالة صريحة على قدرته على الكتابة والقراءة[٧٥].

وللعلماء كلام في الأدلة المذكورة، حتى إن أحد علماء الأندلس هو «أبو الوليد الباجي»، كان قد ذكر أن الرسول كتب بيده،

---

(٧٠) الحلبية (١/ ٢٣ وما بعدها).

(٧١) Noldeke, I, S. 13.

(٧٢) «قال لعلي عليه السلام: امحِ رسول الله. قال: لا والله لا أمحاك أبداً. فأخذه رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وليس يحسن يكتب، فكتب مكان رسول الله: محمد. فكتب هذا ما قاضى عليه محمد لا يدخل بالسلاح...» الطبري (٣/ ٨٠)، السنة السادسة، الحلبية (١/ ٢٤).

(٧٣) البلاذري (١/ ٥٦٢).

(٧٤) شرح القاموس (٣/ ٢٣١)، «ائتوني باللوح والدواة، أو بالكتف والدواة، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده»، الطبري (٣/ ٩٢)، «السنة الحادي عشرة».

(٧٥) Noldeke, I, S. 12. ff.

فرده علماء قومه «في زمانه بأن هذا مخالف للقرآن، فناظرهم، واستظهر عليهم بأن هذا لا ينافي القرآن. وهو قوله تعالى: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾** لأن هذا النفي مقيد بما قبله وورود القرآن. وبعد أن تحققت أميته (ﷺ) وتقررت بذلك معجزته لا مانع من أن يعرف الكتابة من غير معلم، فتكون معجزة أخرى، ولا يخرجه ذلك عن كونه أمياً»[٧٦]. وقد فسّر بعض العلماء ما ورد في البخاري عن قصة كتاب صلح الحديبية، من أنه كتبه بيده، أن لفظة (بيده) زائدة ليست في البخاري، وإنما أدخلت عليه، وفسّر بعض أخر كتابة الرسول للكتاب على أنه كان في تلك الساعة خاصة، عدوه معجزة ولكن أكثر الروايات عن هذا الحادث لا تشير إلى أنه كتب الكتاب بنفسه، وإنما تذكر أنه أمر علي بن أبي طالب بأن يكتبه له. ثم أمر محمد بن مسلمة بأن ينسخ له نسخة أخرى لتعطى للمشركين، وفي رواية أخرى أن النبي لما أمر بمحو جملة «رسول الله»، التي اعترض عليها رسول قريش ومفوضهم، أمر علياً بمحوها. فلما قال علي: «لا أمحوك أو والله لا أمحوك أبداً» فقال: أرنيه، فأراه إياه، فمحاه رسول الله (ﷺ) بيده الشريفة، وقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو»[٧٧].

والأمي في تفسير علماء اللغة من لا يكتب، أو من على خلقة الأمة لم يتعلم الكتابة وهو باق على جبلته. وقد ورد في الحديث: «إنا أمة أمية لا نكتب»[٧٨]. وقد بحث عدد من العلماء في موضوع

---

(٧٦) الحلبية (١/ ٢٣ وما بعدها).

(٧٧) الحلبية (١/ ٢٣).

(٧٨) شرح القاموس (٨/ ١٩١)، المفردات (ص ٢٢).

أمية الرسول كما ذكرت، منهم: أبو الفتح النيسابوري، والباجي، وأبو محمد بن مفوز، والقاضي أبو جعفر السمناني، وآخرون. وقد ادعى بعضهم أن الرسول صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها. «وقد روى ابن أبي شيبه وغيره: ما مات رسول الله (ﷺ)، حتى كتب وقرأ. وذكره مجالد للشعبي، فقال: ليس في الآية ما ينافيه. قال ابن دحية: وإليه ذهب أبو ذر، وأبو الفتح النيسابوري، والباجي وصنف فيه كتاباً، ووافقه عليه بعض علماء أفريقيا وصقلية. وقالوا: إن معرفة الكتابة بعد أميته، لا تنافي المعجزة، بل هي معجزة أخرى بعد معرفة أميته»[٧٩]. «وقال بعضهم: يحتمل أن يراد أنه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف، كما يكتب بعض الملوك علامتهم وهم أميون. وإلى هذا ذهب القاضي أبو جعفر السمناني»[٨٠]. فأنت ترى أنهم مجمعون على أمية الرسول قبل البعث، ولكن من العلماء من يرى أنه كتب وقرأ بعد نزول الوحي عليه، وأن ذلك لا ينافي معجزة الرسالة في الرسول.

وقد وردت في القرآن الكريم ﴿**الأمي**﴾[٨١] و﴿**أميون**﴾[٨٢] و﴿**أميين**﴾[٨٣]، وقد أريد بالأميين قوم الرسول وجماعته الذين كانوا على الوثنية، كالذي يفهم من آية آل عمران: ﴿**وقل للذين أوتوا الكتاب، والأميين**﴾[٨٤]. وآية الجمعة: ﴿**هو الذي بعث في**

---

(٧٩) شرح القاموس (٨/ ١٩١).
(٨٠) شرح القاموس (٨/ ٩١).
(٨١) الأعراف، الآية ٥٦ وما بعدها.
(٨٢) البقرة، الآية ٧٨.
(٨٣) آل عمران، الآيتان ٢٠؛ ٧٥، الجمعة، الآية ٢.
(٨٤) آل عمران، الآية ٢٠.

الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[٨٥]. ونعت الرسول بـ ﴿النبي الأمي﴾. وذكر، علماء اللغة أن الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب. وقال بعض: الأمية الغفلة والجهالة، وذلك هو قلة المعرفة. ومنه: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾، أي إلا أن يتلى عليهم. قال الفراء: هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب. والنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. قيل: منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا، لكونه على عادتهم، كقولك عامي لكونه على عادة العامة. وقيل: سمي بذلك، لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله منه بقوله: سنقرئك فلا تنسى، وقيل: سمي بذلك لنسبته إلى أُم القُرى»[٨٧].

وقد قصد بعض العلماء بالأميين، من لا كتاب لهم من الناس، مثل الوثنيين والمجوس، فورد: «أن النبي، (ﷺ)، كان يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم»[٨٨]. فجعل المجوس أميين، لأنهم ليسوا أهل الكتاب. فيظهر من ذلك أن من معاني الأمية الوثنية وعدم الاعتقاد بالرسل والأنبياء.

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن المقصود من الأميين هنا الوثنيون، ودليلهم على ذلك هو جملة «اموت هاعولام» Ummot ha

---

(٨٥) الجمعة، الآية ٢.

(٨٦) الأعراف، الآية ١٥٦ وما بعدها.

(٨٧) المفردات (ص ٢٢).

(٨٨) روح المعاني (٢١/١٧ وما بعدها).

Olam التي كان يطلقها العبرانيون على غيرهم، ويريدون الوثنيين، أي غير العبرانيين. وذهب بعض آخر إلى أن المراد من «الأمي»، الشخص غير المتعلم. أما لفظة «أمة»، بمعنى جماعة كبيرة وشعب، فإنها «اميثا Ummetha» في السريانية(٨٩).

وقد أطلق العبرانيون على الغرباء وكل من هو غير يهودي، «كوي Goy» الواحد، و«كويم Goyim للجمع» وتقابل هذه اللفظة لفظة «Gentile» في اللاتينية. ويُقال للغريب عنهم «أخريم Ahrim وNochrim» كذلك، تمييزاً لهم عن العبرانيين الذين يذهبون إلى أنهم أمة مقدسة مفضلة على العالمين «kadosh Goy»(٩٠).

وذهب بعض المستشرقين اليهود إلى أن لفظة «الأميين» معربة من أصل (كوي) و(كوييم)، المذكور(٩١).

وقد ذهب «شبرنكر» ـ وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ ـ إلى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو: «أساطير الأولين»(٩٢). والواقف على القرآن الكريم، والمطلع على معنى «أساطير الأولين» الواردة فيه، يرى أن القرآن الكريم قد حكى قول قريش الذين كانوا

---

(٨٩) Shorter, p. 764, Horovitz, Koranische Untersuchungen, 1926, S. 51, ff., Buhl-shaeder, Das Leben Muhammeds, Leipzig, 1930, S. 56, Noldeke, I, S. 14.

(٩٠) The Uni. Jew. Ency., Vol., 4, p. 533.

(٩١) Torrey, The Jewish foundation of Islam, New York, 1933, p. 38, Abraham I. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1954, p. 75.

(٩٢) Noldeke, I, S. 16, Ency, of Islam, Vol., p. 1016.

يستخفون على زعمهم بالقرآن، فقالوا: **﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**[٩٣]. و**﴿قالوا أساطير الأولين﴾**[٩٤]. و**﴿ما هذا إلا أساطير﴾**[٩٥] و**﴿قال أساطير الأولين﴾**[٩٦]. وليس في هذه الآيات أية دلالة على ما ذهب إليه على العكس، فإنك إذا قرأت الآية: **﴿ومنهم من يستمع إليك، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وأن يروا كل آية لا يؤمنون بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك، يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**[٩٧]. فقد قالت قريش هذه المقالة استخفافاً واستهزاء، بمعنى أن ما يتلوه الرسول عليهم هو من هذا القصص الذي يقص عن الأولين، فهو خرافة وكلام هراء، وليس فيه ما يدل على وجود كتاب بالأساطير الأولين ويأخذ الرسول منه، وقد ردّ على هذا الرأي في كتاب «تأريخ القرآن» لنولدكه، وعده قولاً لا أهمية له[٩٨].

ويدل ورود «أساطير الأولين» في مواضع من القرآن الكريم على أن قريشاً كانت تستعمل لفظة «أساطير» وتقصد بها نوعاً معيناً من الكتب، تبحث في قصص الماضين وأحاديثهم وأخبارهم، كانت معروفة في مكة أيام ظهور الإسلام، بدليل ما ورد في هذه الآية من سورة الفرقان: **﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه**

---

(٩٣) الأنعام، الآية ٢٥.
(٩٤) الفرقان، الآية ٥.
(٩٥) الأحقاف، الآية ١٧ز
(٩٦) القلم، الآية ١٥ز
(٩٧) الأنعام، الآية ٢٥.
(٩٨) Noldeke, I, S. 17.

بكرة وأصيلا﴾[٩٩]. وهذه السورة هي من السور المكية. فهي تشير إلى زعم قريش في أن القرآن، هو شيء اكتتبه الرسول، وقد أملي عليه من الأساطير. وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه، كما سأبحث ذلك فيما بعد، ذكروا ذلك في الآية السابقة لهذه الآية من السورة نفسها. وهي تدل دلالة واضحة على معرفة قريش بكتب عرفت عندهم بـ «الأساطير» ووجودها في مكة، وأنهم كانوا يتداولونها ويقرأونها.

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها، وهي جمع أسطار وأسطير وأسطور[١٠٠]. وفي اللاتينية لفظة «Historia» بمعنى الأحاديث والأساطير والتأريخ، ومنها وردت لفظة «History» في الإنكليزية بمعنى التأريخ، وتقابلها إستوريا «Istoriya» في اليونانية، وقد أطلقت عندهم على كتب الأساطير والتاريخ، ويظهر أن الجاهليين قد وقفوا عليها، فأخذوا اللفظة عن اليونانية، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه.

ولا أستبعد وجود هذه الكتب باليونانية وباللاتينية في مكة، فقد كان في مكة وفي غير مكة رقيق من الروم، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون بها إذا تلاقوا، كما كانوا يحتفظون بكتبهم المقدسة، وبكتب أخرى مدونة بلغتهم. وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنه كان هو الذي يعلِّم الرسول ويلقنه القرآن. وإليه الإشارة في الآية الكريمة: **﴿لسان الذي يلحدون إليه**

---

(٩٩) الآية (٥).

(١٠٠) شرح القاموس (٢/ ٢٩٧)، المفردات (ص ٢٣١).

أعجمي﴾[١٠١]. وهي في سورة النحل، وسورة النحل من السور المكية، فرد زعم قريش هذا أن الرجل المذكور الذي كان بياعاً في مبيعة، أي حانوت في مكة، وكان الرسول يجالسه ويأنس إليه، رجل أعجمي، ولسانه أعجمي، وهو غير متمكن من العربية: فكيف يعلِّم الرسول ويلقنه ولسانه على هذه الحال؟ وقد ورد أن هذا الرجل كان يقرأ كتبهم. وقد كان أناس آخرون مثله، كانوا رقيقاً يقرأ ويكتب بلغته، سقط في الأسر وبيع، فجيء به إلى مكة وإلى مواضع أخرى من جزيرة العرب.

ومن يدري؟ فلعلهم كانوا يجالسون أهل مكة، ويقصون عليهم قصصهم، ويقرأون عليهم؛ في أثناء سمرهم من هذا الذي عندهم في كتبهم. فكانوا إذا سألوهم عن هذا القصص، قالوا لهم: إنه (إستوريا) أي تواريخ. فذهبت بين الناس، وصارت لفظة عربية، هي «أسطورة».

وقد بحث المستشرقون في هذا الموضوع، وتعرضوا له، وناقشوا الروايات على اختلافها. ولهم في ذلك كلام لا يخلو بعضه من عاطفة سياسية أو دينية ويا للأسف؛ لأنه لم يناقش من أجل الوقوف على هذه الحقيقة من أجل الحقيقة والعلم.

ولا أهمية ولا معنى كذلك لقول «شبرنكر» إن محمداً قرأ وأخذ من مصدر آخر هو (صحف إبراهيم) المذكورة في القرآن الكريم. وقد ردّ على هذا الرأي (نولدكه) بقوله: لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف، ونسبه لنفسه وادعاه، على أنه وحي أوحى الله به إليه،

---

(١٠١) النحل، الآيتان ٣ و١.

لو فرضنا ذلك، فإن من غير المعقول عندئذ ذكر محمد لتلك الصحف في القرآن لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس إلى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه، ولهذا لا يعقل الأخذ بكلام «شبرنكر»[١٠٢].

أما صحف إبراهيم، فلم يصل إلينا من أمرها شيء. وقد ورد في التلمود أن إبراهيم كان قد وقف على (الهلاخا Halacha) وعمل بها[١٠٣]. وقد نسب المتأخرون إليه كتاب (يزيرا Yezira) من كتب الـ (الكبالا Kabbala) كتاباً آخر عُرف باسم (Liber de Idolatria)[١٠٤].

ويراد بـ (الهلاخا)، ما يقابل مصطلح (الحديث) في عربيتنا. ويشمل كل ما ورد بالرواية من أخبار وحديث من أقوال الأنبياء وأفعالهم. وقد جمع ذلك (يهودا هناسي Jehudah ha-Nasi)، وعرف فيما بعد باسم (المشنا)[١٠٥].

وليس «شبرنكر» أول من قال بهذا القول، فسنرى فيما بعد أن قريشاً قالت به في مبدأ نزول الوحي، بل قالت أكثر من ذلك، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد بشيء من التفصيل.

وسبق الوحي كما يذكر أهل الأخبار وقت ابتدأ رسول الله فيه بالرؤيا. والرؤيا تمهيد للوحي. وقد عدت هذه الرؤيا جزءاً من الوحي ونوعاً منه. وقد عبّر عنها في الحديث بـ (الرؤيا الصادقة)، وبـ (الرؤيا الحسنة)، وبـ (الرؤيا الصالحة)، وقد استغرقت مدة ستة

---

(١٠٢) Noldeke, I, S. 17.

(١٠٣) «عبودا زارا، ١٤ ب»، Aboda Zara, 14 b.

(١٠٤) Noldeke, I, S. 17.

(١٠٥) Hastings, p. 891.

أشهر. وقد عبّر عن الرؤيا بتلك التعابير احتراساً من الرؤيا الاعتيادية التي تظهر لكل إنسان. وقد ورد في الحديث أنه كان لا يرى شيئاً في المنام، إلا كان كما رأى[١٠٦].

وعد بعض العلماء الرؤيا جزءاً من النبوة، ولهذا عدوا رؤيا الرسول قبل نزول جبريل عليه جزءاً من نبوته. وقد ذكروا أن مدتها كانت ستة أشهر، وقد انتهت بنزول الوحي عليه[١٠٧].

وسبق الرؤيا تفكير شغل الرسول أمداً طويلاً: تفكير في حالة قومه، وفي أوضاعهم، وفي تقربهم من الأوثان، وفي الكون والحياة ومصير الإنسان والموت وما بعد الموت، وفيما شاكل ذلك من أمور تطوف برأس المفكر المتصبر في هذه الحياة، فتصرفه إلى النظر فيها، وتبعده عن التفكير في التماس ملذات الحياة من متعة وأنس، يقع في غرامها الإنسان في هذه السن على المعتاد. لم يهن ولم يضعف بل ازداد في التفكير فيها شغفاً وحباً وهياماً كلما تقدمت به السن. وما أخبار عزلته في الغار، وانقطاعه فيه عن الناس، وابتعاده عن قضاء وقته في مجالسة من في سنه وقتل وقته بالعبث واللهو على

---

(١٠٦) «... عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان أول ما ابتدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي، الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، فيتزود مثلها، حتى فجأه الحق». تفسير الطبري (٣٠/ ١٦١)، السيرة الحلبية (١/ ٦٨ وما بعدها).

(١٠٧) «وأول ما بدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة أربعين جزءاً»، زاد المعاد (١/ ١٩).

عادة الناس في ذلك العهد وعادة كل مجتمع فيه فراغ، إلا دلالة على هذه الفترة التي مرّ بها الرسول، وهي فترة كان فيها حائراً مفكراً يريد الوصول فيها إلى شيء، مقنع له مطمئن، يحل له كل هذه الأسئلة والأفكار التي كانت قد تراكمت في فكره. وتوالت عليه.

ولا أجد وصفاً لهذه الفترة القلقة التي مرت بالرسول، فترة التفكير والتأمل غير هذا الوصف البليغ الموجز في سورة الضحى: **﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾**. إنها تتحدث عن ذلك القلق الشديد الذي كان قد أصاب قلب الرسول قبل نزول الوحي عليه، قلق جعله يسهر الليالي، لا سيما في أواخرها مفكراً في تلك المشكلات، وفي أوضاع قومه وما كانوا عليه، إنها أوضاع لم تعجبه، وجدها ضلالاً وجهلاً وحماقة لا بدَّ من تنبيه قومه عليها ومن دلالتهم على فسادها، ولكن كيف وبأية وسيلة، وما طرق الإصلاح وأسبابها، والمناهج اللازمة لذلك، لرفع مستوى الناس من الجهالة والضلالة إلى الهدى والصراط المستقيم؟

وتقول الأخبار إن الرسول كان منذ صغره يحب الخلوة والانزواء. ولكن خلوته هذه لم تكن خلوة الأطفال والشبان والرجال الحيين، الذين يحبون الخلوة عن مرض جسمي، فيقضونها خلوة فارغة جوفاء، لم يشغلها تفكير ولا تأمل، بل كانت خلوة تفكير وتتبع. وإنه كان يختلف بها عن أقرانه ولداته، حتى بانت عليه وعرفت؛ إذ لم يظهر عليه ميل إلى عبث ولهو ولعب وغير ذلك مما يلهي من في سنه، ويجعله يمضي وقته بها، حتى يبلغ رشده، فعرف بين أهل مكة بالهدوء وبعدم الميل إلى المعاكسة والمشاكسة والمرح والتسرع بالكلام، كما عرف بالجد وبكراهيته العدوان وإهانة الناس

والاستخفاف بهم، ليتم وفقر وإملاق. كل ذلك حببه لأهل مكة ولقومه، مما جعلهم ينظرون إليه نظرة تختلف عن نظرتهم إلى الآخرين من الشبان والرجال الطائشين النزقين.

وقد كانت خديجة خير عون لزوجها في تهدئة نفسه في هذه الفترة الشديدة الحرجة، وفي بعث الطمأنينة والراحة إليه. فلم تتدخل كما تتدخل النسوة في العادة في محاولة لصرف رجلها عن هذه الخلوة وذلك التفكير الذي أخذ وقته، وتصرف فيه، فلم يجعل لها منه إلا بعض شيء. بل تركته يتصرف على النحو الذي يحبه ويرضيه، مقدمة له كل أمور الراحة والتسهيل، ليفكر فيما يشغله وصرف نفسه له. بل كانت على ما يظهر تؤيده في نفرته من جهالة قومه، وتذهب معه في الاشمئزاز من تصرفاتهم وأعمالهم، وتقدم إليه كل ما يلزم من عون مادي وروحي يساعده في الانصراف إلى هذه الرياضة، في بيتها أو خارج بيتها في غار حراء أو في أي مكان آخر رأى فيه الهدوء والراحة ومجال التبصر والتفكير.

ذكر أن الرسول كان يسمع أصواتاً تناديه: «يا محمد»، ولا يرى شيئاً، غير أنه يسمع الصوت فيهرب منه في الأرض؛ وأنه كان مرة بأجياد، فرأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء؛ يصيح: يا محمد، أنا جبريل. فذعر رسول الله، ورجع سريعاً إلى خديجة فقال: إني أخشى أن أكون كاهناً، أو خشيت أن يكون قد عرض لي أمر. فقالت: كلا، يا ابن عم، ما كان الله ليفعل بك سوءاً، إنك لتصدق الحديث. وتصل الرحم، وتؤدي الأمانة، وإن خُلُقك لكريم[١٠٨].

---

(١٠٨) البلاذري (١/ ١٠٤ وما بعدها)، عيون الأثر (١/ ٨٢ وما بعدها).

وكان أول ما فعله محمد بعد سماعه الوحي أن ترك الغار ليعود إلى بيته تعباً حائراً من هذا الذي ظهر له، وانطلق يذرع الشعاب مسرعاً، يرتعد فرقاً من شدة ما رأى. وتذكر الأخبار أنه كان كلما مشى إلى بيته ازداد رعبه، لأنه كان يسمع أصواتاً تناديه من كل جانب، ثم أخذه الروع حين رأى رجلاً في السماء يناديه، ولم ينفعه ما فعله من وضع يده على وجهه، ليصرف نظره عما رأى، فلما وصل إلى البيت كان تعباً يكاد يسقط على الأرض من شدة تعبه. وقد أخذته رجفة تشبه الرجفة المتأتية من الحمى. وفزعت خديجة من شدة ما رأت، واستقبلها بقوله زملوني زملوني، فزمتله وصبت على رأسه ماءً بارداً ليهدأ روعه، ثم دثرته.

وتذكر بعض الروايات أن الرسول قال لخديجة: لقد خشيت على نفسي، وفي رواية: على عقلي. فلما سمعت منه هذا الكلام، هدأت روعه، وطيبت خاطره، قائلة له: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[١٠٩].

وورد في رواية أن خديجة قالت له: أوجه إليك من يرقيك؟ فقال: أما الآن، فلا. وذكر أنه كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن، فلما نزل عليه القرآن، أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك من الإغماء بعد حصول الرعدة، ومن تغميض عينيه وتربد وجهه، ومن غط كغطيط البكر[١١٠].

وتذكر الروايات أن خديجة ذهبت وحدها أو معه إلى ابن عمها

---

(١٠٩) السيرة الحلبية (١/ ٢٧٧).

(١١٠) السيرة الحلبية (١/ ٢٨٧).

ورقة بن نوفل، وقصت عليه القصة، أو أن الرسول هو الذي قص عليه ما شاهده وظهر له، فطمأنه ورقة، وقال: «قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت»[١١١]. وفي رواية أن ورقة قال للرسول: «يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله، (ﷺ)، خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، وهو جبريل، يا ليتني فيها جذعاً شاباً، حتى أبالغ في نصرتها، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، قال رسول الله، (ﷺ): أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأتِ رجل بما جئت به إلا عودي. قال ورقة: وإن أدركت يومك «وإن يدركني ذلك»، «أنصرك نصراً مؤزراً..». وفي رواية أنه قال لخديجة «إن ابن عمك لصادق، وإن هذا البدء نبوة». وفي لفظ: «إنه لنبي هذه الأمة»[١١٢].

وفي بعض الروايات أن خديجة حينما عادت من ورقة، وجدت محمداً وقد تصبب العرق من جبينه، وقد نزل عليه الوحي بيا أيها المدثر، أو يا أيها المزمل، فأخبرت الرسول بما سمعته ووعته من ورقة[١١٣].

وتذكر روايات أخرى أن الشخص الذي ذهبت خديجة إليه،

---

(١١١) «فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى صلّى الله عليه وسلّم، ليتني فيها جذع ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قلت: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يجئ رجل...»، تفسير الطبري (٣٠/ ١٦٢)، في الروايات الأخرى: «وإن يدركني يومك»، السيرة الحلبية (١/ ٢٧٨).

(١١٢) السيرة الحلبية (١/ ٢٧٨)، تأريخ الطبري (٢/ ٢٠٦ وما بعدها).

(١١٣) السيرة الحلبية (١/ ٢٨٠ وما بعدها).

كان من أهل نينوى، وكان يُقال له عداس. وهو غلام عتبة بن ربيعة، وكان نصرانياً راهباً، وأنه كان شيخاً كبير السن، ثقل سمعه، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر، وأنه لما سمع القصة من خديجة قال: قدوس قدوس، ثم ذكر لها أنه النبي المرسل الذي بشر به موسى وعيسى[114]. وذكر رواة هذا الخبر أن عداساً هذا هو رجل آخر غير عداس الوارد اسمه في خبر ذهاب الرسول إلى الطائف[115]. وهو استدراك لا يمكن قبوله. وقد أخطأ أولئك الرواة في إقحام اسم عداس في هذا الموضوع. لا سيما أنهم نسبوا إليه ما نسبوه إلى ورقة من كلام، وأن ما قالوه عن صاحب عداس المذكور في هذا الخبر هو نفس ما ذكر عن عداس الطائف.

وورقة الذي قصدته خديجة، هو ورقة بن نوفل بن أسد القرشي ابن عم خديجة على ما يذكره أهل الأخبار، أحد الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام، وحرموا الخمر على أنفسهم. وكان كما يقول أهل الأخبار قد تعلم العبرانية، وقرأ التوراة وكتبها بالعبرانية، وقرأ الكتب[116]. ويذكر أن خديجة استشارته في أمر زواجها من الرسول، وأنه رحب به وشجعها عليه.

ولا نعرف من أمره شيئاً واضحاً صريحاً يلقي ضوءاً على حياته وعلى معتقده وآرائه وموقفه من اليهودية والنصرانية غير تلك الروايات المهلهلة الغامضة التي يرويها أهل الأخبار. ولم يذكر أحد منهم أنه أسلم، أو أنه روى حديثاً عن الرسول. وتذكر الأخبار أنه

---

(١١٤) السيرة الحلبية (١/ ٢٧٨).

(١١٥) ابن هشام (٢/ ٦٠ وما بعدها) «سعي الرسول إلى ثقيف يطلب النصرة».

(١١٦) كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧).

عمي في أواخر أيامه، وأنه توفي في السنة الثانية أو الثالثة من نزول الوحي على الرسول[117]. وفي بعض الروايات أنه شاهد تعذيب بلال، فنهى قريشاً من ذلك. فلما لم ينتهوا، قال في ذلك شعراً[118]. وقد نُسب إليه شعر في رثاء عثمان بن الحويرث ابن أسد بن عبد العزى من زعماء قريش قبل الإسلام. وتذكر كتب الأخبار أنه عرف بـ «البطريق»، وأنه ذهب إلى قيصر ليساعده في أن يملكه على قريش. ولكن قريشاً لم توافق على تملكه، ومنعت عثمان مما جاء له، فمات عند ابن جفنة، وقال ورقة الشعر الذي أشرت إليه[119].

وقد وردت هذه الجملة في البخاري عن ورقة بن نوفل: «وكان أمراً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب»[120]. ووردت في كتاب آخر هذه الجملة: «وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله»[121]. وأرى أن المراد بالعبراني هنا السريانية، إذ لا علاقة للعبرانية بالإنجيل. وقد كان بمكة قوم من النصارى يكتبون

---

(١١٧) ابن الأثير، أسد الغابة (٥/ ٨٨) طبقات ابن سعد (١/ ١٣٠، ٥٨١)، الإصابة (٦/ ٣١٧).

Ency., IV, P. 1121, f., Caetani, Annali, p. 129, 155, 180, f., Lammens, In Recherches de Science des Religions, VIII (1918) 18, Sprenger, Leben; I, S. 128, ff.

(١١٨) نسب قريش (ص ٢٠٨).

(١١٩) نسب قريش (ص ٢١٠).

(١٢٠) التجريد «باب كيف كان بدء الوحي»، (١/ ٥)؛ الأغاني (٣/ ١٤)، البلاذري (١/ ١٠٦).

(١٢١) عمدة القارئ (١٩/ ٣٠٤).

بالسريانية، فلا يستبعد تعلمه الكتابة والسريانية منهم. وقد كان القلم الآرمي هو القلم الشائع في بلاد الشام وبين النصارى في هذا العهد. وقد تعلم نفر آخر السريانية والقلم السرياني من نصارى بلاد الشام والساكنين في الحجاز، كما استبعد تعلمه اللغة العبرانية والقلم العبراني من اليهود. فقد كان يهود يثرب يعرفونها ويكتبون بها، ويقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ولغيرهم، وذلك في أيام الرسول(١٢٢). فلا يستبعد تعلم ورقة السريانية والعبرانية والقلمين العبراني والسرياني وتفسير الأناجيل أو بعض أسفار العهد القديم بالعربية لمن يعرف اللغتين.

وقد ورد في كتب السير والأخبار: أن بقية الأحناف، كانت تعرف العبرانية أو السريانية، وأنها كانت قد قرأت كتب أهل الكتاب، حتى قِيل إن أختاً لورقة بن نوفل كانت تقرأ تلك الكتب. وإذا صح ذلك، فإنه يدل أنها كانت تعرف السريانية أو العبرانية، أو أنها وقفت عليها مفسرة بالعربية. وللاحتمالين أهمية كبيرة بالطبع في الوقوف على الحياة الثقافية والعلمية عند الجاهليين.

وقد فسر بعض المستشرقين عدم إسلام ورقة باستنكافه من الإيمان برجل أصغر منه سناً وأحدث منه دعوة في نبذ الشرك والإيمان بإلّه واحد أحد(١٢٣). وقد بني حكمهم هذا على تلك الأخبار التي تشير إلى أنه عاش بعد نزول الوحي على الرسول إلى السنة الثانية أو الثالثة منه، وإلى عدم ورود خبر يفيد أنه دخل في

---

(١٢٢) التجريد (١/ ٩٦)، «باب تفسير القرآن».

(١٢٣) Ency., IV, p. 1122.

الإسلام. وقد ورد في الحديث أنه يحشر يوم القيامة، وهو في ملابس بيض. ولم يرد فيه ما يفيد أنه كان من المسلمين. ولو كان قد أسلم لذكر في طبقات الصحابة ومع المسلمين الأولين.

وذكر أنه كان لورقة أخت اسمها «قتيلة بنت نوفل»، وكانت مثل أخيها تنظر في الكتب[١٢٤]، أي الكتب القديمة، ويريدون بها كتب أهل الكتاب.

وقد ذكر الطبري أن المراد بـ «الناموس الأكبر» جبريل[١٢٥]. ولفظة «ناموس» من الألفاظ التي ترد في اليهودية وفي النصرانية، ولذلك يرى بعض المستشرقين أن ورقة إنما تعلمها من النصارى أو اليهود. وهي (نوموس Nomos) في اليونانية. ولها معان عديدة، منها الشريعة، والكتب المقدسة، وكتب الوحي[١٢٦]. وأن معنى كتب الوحي والكتب المقدسة ينسجم مع خبر ذهاب خديجة إلى ورقة وقوله لها: «لقد جاءه الناموس الأكبر» الذي كان قد جاء موسى. وقد رأى هؤلاء المستشرقون أن المراد بذلك الكتب المقدسة المنزلة على موسى وعلى بقية الأنبياء والرسل بحسب الديانتين اليهودية والنصرانية[١٢٧].

وكانت خديجة لما عرفته عن زوجها من صدق اللهجة ومن أمانته أول من صدق به وآمن، فكانت بإيمانها هذا أول المسلمين. وقد خفف إيمانها به ودخولها في الإسلام من آلام الرسول وأحزانه،

---

(١٢٤) البلاذري (١/ ٨١).

(١٢٥) تاريخ الطبري (٢٠/ ٢٠٧).

(١٢٦) تأريخ الطبري (٢/ ٢٠٧).

(١٢٧) M. Watt, p. 51, Ency. of Islam, Vol., III, p. 844.

وكانت «تثبته وتخفف عليه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس»[١٢٨]. وتقدم إليه كل ما لديها من معونة معنوية ومادية، لم تضن عليه بمالها وبما كان عندها من ثروة، بل لقد أشعرته أن كل ما عندها هو ملك له، وأنه له يتصرف به كيف يشاء. وقد كان لمساعدتها هذه ومعاونتها له قبل الرسالة وبعدها أكثر كبير في الدعوة وفي حياة الرسول.

لقد كانت خديجة في الواقع مؤمنة بالرسول معتقدة بصدقه، لما رأته فيه من الجد في القول والإخلاص في دعوته وفي لوم قومه وفي تفكيره الذي استولى عليه. كانت مؤمنة به قبل رسالته. فطبيعي أن تؤمن بما قاله الرسول لها من نزول الوحي عليه، ومن وجوب تبليغه رسالته هذه للناس. فآمنت به، وساعدت على نشر رسالته في إبلاغ دعوته أبناء قومه. وقد كان لمنزلتها في مكة ولمنزلة قومها أثر ولا شك، في ثني أولئك المتغطرسين ملأ مكة عن الاشتداد في إيذائهم لزوجها ومن إلحاق الأذى والشر به.

وسُرّ الرسول بهذا الصوت الذي سمعه، ملقياً الوحي عليه، وحي الدعوة والرسالة، وابتداء القرآن. وصار كل همه بعد أن هدأ واستقر رؤية صاحب ذلك الصوت، والاستماع إلى صوته، ينزل عليه بالوحي ليبلغه للناس. فخرج ليراه، وليسمع منه شيئاً، وأخذ مذ ذلك الحين ينتظر إتمام الرسالة بعد أن أبلغ بنزولها عليه من دون سائر البشر، وبأنه نبي ورسول من عند الله رب العالمين.

وكان أول من أسلم بعد خديجة، علي بن أبي طالب، آمن به

---

(١٢٨) سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٧) «طبعة البابي».

وهو ابن عشر سنين، أو أقل من ذلك بقليل أو أكثر سنة، وكان في بيت النبي وحجره. أخذه من عمه ليخفف عنه[١٢٩]، فكان بمثابة الوالد الشفيق له. رأى ولا شك الرسول وهو يقص على خديجة خبر رسالته؛ ويحدثها بنبوته، وشاهده وهو راقد في فراشه بعد نزول الوحي عليه في غار حراء، فآمن به كما آمنت به خديجة، واتبعه فكان بذلك أول المسلمين الذكور.

وتذكر بعض الروايات أن علي بن أبي طالب رأى النبي وخديجة تصلي معه. «فقال: ما هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: يا علي، هذا دين الله الذي اصطفاه واختاره، وأنا أدعوك إلى الله وحده، وأن تذر اللات والعزى، فإنهما لا تنفعان ولا تضران. فقال علي: ما سمعت بهذا الدين إلى اليوم، وأنا أستأمر أبي فيه. فكرهَ النبي ﷺ أن يفشي ذلك قبل استعلان أمره. فقال: يا علي، إن فعلت ما قلت لك، وإلا فأكتم ما رأيت. فمضى ليلته. ثم غدا على رسول الله ﷺ، فقال له: أعده عليّ ما قلت. فأعاده. فأسلم، ومكث يأتي رسول الله ﷺ، فيصلي معه على خوف من أبي طالب»[١٣٠].

وبإسلام علي صار الرسول يصلِّي ومعه في صلاته خديجة وعلي، يصلِّي بهما في بيته وفي خارج بيته في ضواحي مكة. وقد ذكر «عفيف الكندي» أنه كان في [منى] عند العباس بن عبد المطلب، فرأى الرسول وخديجة وعلياً وقد جاؤوا إلى هناك وأخذوا يصلون. فعجب «عفيف» من ذلك، وقال لصاحبه وصديقه: «ويحك يا

---

(١٢٩) ابن هشام (١/ ٢٦٢ وما بعدها)، «طبعة البابي».
(١٣٠) البلاذري (١/ ١١٢ وما بعدها).

عباس، ما هذا الدين؟ قال: هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً. وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه»[١٣١].

وكان زيد بن حارثة الكلبي ثاني من آمن برسالة محمد من الذكور، وقد عرف أمداً بـ «زيد بن محمد»، وعاش في بيت الرسول وفي رعايته وكنفه. ذلك أن خيلاً من بني القين بن جسر أصابت زيداً، وعمره يومئذ ثماني سنين، فساقته إلى «سوق حباشة» وباعته هناك، وصار في ملك حكيم بن حزام بن خويلد، ثم رأته خديجة عنده فاختارته وصار لها. ثم وهبته لزوجها محمد قبل الرسالة، فتبناه وأشهد قريشاً على ذلك على عادة العرب، قائلاً لها: اشهدوا أن هذا ابني وارثاً وموروثاً، فعرف فيه. وظل يعرف بزيد بن محمد، إلى أن نزلت الآية: ﴿**أدعوهم لآبائهم**﴾[١٣٢]، وقال: أنا زيد بن حارثة. وكان والده حارثة قد جزع على ولده جزعاً شديداً، وفتش عنه طويلاً حتى سمع أنه عند محمد وذلك قبل الوحي، فجاء إليه ليأخذه منه، وكلّم محمد زيداً في الذهاب مع والده قائلاً له: إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، وتوسل والده إلى ابنه بأن يذهب معه، ولكنه أبى وفضّل البقاء في بيت محمد. فلما نزل الوحي آمن به وصدقه، فكان ثاني المسلمين الذكور[١٣٣].

ولما كانت الآية: ﴿**أدعوهم لآبائهم**﴾ وهي من سورة الأحزاب، آية مدنية، فإن هذا يعني أن حارثة بقي يدعى «زيد بن

---

(١٣١) عيون الأثر (١/ ٩٣).

(١٣٢) الأحزاب، الآية ٥.

(١٣٣) ابن هشام (١/ ٢٦٤، ٢٦٦)، الطبري (٢/ ٢١٥)، إمتاع الأسماع (١/ ١٥).

محمد» إلى ما بعد الهجرة، إلى أن نزل الوحي بنسبته إلى حارثة الكلبي أبيه.

وبإسلام خديجة وعلي وزيد، صار بيت محمد أول بيت دخل أهله في الإسلام، وأول بيت مسلم عرف في التأريخ، وأشرف مكان سكنه إنسان في نظر المسلمين. سكنه الرسول وهو في أشد الأوقات حرجاً. ونزل الوحي عليه وهو فيه، ولم يغادره إلا مضطراً فراراً من قريش، مهاجراً إلى المدينة. وفيه صلّى هو وزوجه وعلي وزيد، فكان بذلك أيضاً أول مسجد في الإسلام.

أما أبو بكر، عتيق بن عثمان بن عامر المعروف بأبي قحافة، فكان أول المصدقين برسول الله من غير أهل بيته. كان صديقاً للرسول ومن المتصلين به، وكان تاجراً ذا خُلق معروف. فلما عرض الرسول عليه الإسلام، وحدثه بخبر الوحي ونزول جبريل عليه بالرسالة، استجاب له من غير تردد، وصدق بنبوته، وأعلن إسلامه، فكان من السابقين. وقد ذكر أن الرسول قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام، إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه»[١٣٤].

وموضوع من كان أول الناس إسلاماً، ومن كان أقدم من غيره في الإسلام، من الموضوعات التي استغلتها العواطف والنزاعات السياسية فيما بعد، كما استغلت أموراً أخرى، لم يكن الصحابة من

---

(١٣٤) ابن هشام (١/ ٢٦٨)، جوامع السيرة (ص ٤٥)، ابن سيد الناس (١/ ٩١)، البداية والنهاية (٣/ ٣٧)، تأريخ الخميس (١/ ٢٨٦)، الإمتاع (ص ١٥).

المتقدمين والسابقين في الإسلام يفكرون فيها ويقيمون لها وزناً، روى الطبري عن محمد بن سعد. قال: «قلت لأبي: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ فقال: لا. ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين، ولكن كان أفضلنا إسلاماً»[١٣٥]. لقد كان عمل الإنسان وفعله هو الفضل، أما الترتيب والتقدم والتأخر فلا قيمة لها بالنسبة إلى العاملين المخلصين.

ويوم أسلم أبو بكر، أخذ يعمل على نشر الإسلام بين أصحابه وأصدقائه، ومن يحضرون مجلسه من خاصته. حدث من اطمأن إليه ووثق برجاحة عقله بخبر دخوله في الإسلام وإيمانه بصدق دعوة الرسول وبرسالته في الاعتقاد بإله واحد، وبهجرة الأوثان. وشرح لهم ما تعلمه من الرسول، فآمن بإيمانه نفر، هم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان[١٣٦]، وجاء بهم إلى رسول الله، فأسلموا على يديه، وأخذوا منه قواعد الإسلام وشيئاً مما نزل من القرآن. فكان لهؤلاء النفر مع من سبقهم، وعددهم جميعاً ثمانية، شرف السبق واستحقوا بذلك شهادة السابقين الأولين الذين سبقوا الناس في الإسلام[١٣٧].

وأسلم بعد هؤلاء الثمانية، وبتأثيرهم، جماعة هم: أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد،

---

(١٣٥) تاريخ الطبري (٢/ ٢١٥).

(١٣٦) جوامع السيرة (ص ٤٦).

(١٣٧) عيون الأثر (١/ ٩٥)، ابن هشام (١/ ٢٦٩)، جوامع السيرة (ص ٤٥ وما بعدها).

والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر، وهي يومئذ صغيرة، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص أخو سعد، وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة، وعامر بن ربيعة العنزي، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث بن معمر، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه خطاب، وامرأته فكيهة بنت يسار، ومعمر بن الحارث بن معمر، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحام نعيم بن عبد الله بن أسيد، وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، وخالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أمينة بنت خلف، وحاطب بن عمرو، وأبو حذيفة مهشم بن عتبة، وواقد بن عبد الله، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمّار بن ياسر، وصهيب بن سنان المعروف بالرومي(١٣٨)، أبو ذر الغفاري، وأبو نجيح السلمي، وعتبة بن مسعود أخو عبد الله بن مسعود(١٣٩). هؤلاء كانوا السابقين في الإسلام، والحائزين على شرف التسجيل في قائمة المسلمين الثانية في قوائم قدماء المسلمين من أصحاب العقيدة والإيمان بعد القائمة

---

(١٣٨) ابن هشام (١/ ٢٦٩ وما بعدها)، عيون الأثر (١/ ٩٤ وما بعدها).
(١٣٩) عيون الأثر (١/ ٩٨)، جوامع السيرة (ص ٤٥ وما بعدها).

الأولى، وفي أولها اسم خديجة ثم الثلاثة الأولون، ثم الخمسة المذكورون.

ولا يعني ورود الأسماء المتقدمة على النحو الذي ذكرته أنها رتبت بحسب تواريخ دخول من ذكرت في الإسلام. فبين المؤرخين خلاف في تواريخ إسلام السابقين في الإسلام والمتقدمين فيه. وقد أورد الطبري روايات تفيد أن أبا ذر وعمرو بن عنبسة «كلاهما كان يقول لقد رأيتني ربع الإسلام، ولم يسلم قبلي إلا النبي وأبو بكر وبلال. وكلاهما ـ أي أبو ذر وعمرو بن عنبسة ـ لا يدري متى أسلم الآخر، كما أورد روايات تشير إلى إسلام أشخاص جاء ترتيبهم متأخراً في هذه القائمة[١٤٠]. وسبب هذا الاختلاف هو ما ذكرته مراراً من أن القوم لم يكونوا يومئذ يعنون بموضوع تثبيت الحوادث وتدوين التواريخ، وأن التدوين لم يتم إلا بعد أمد، فلم يكن أمام المدونين إلا الرجوع إلى ذاكرة من تبقى من الصحابة المتأخرين الذين كانوا شباناً في عهد الرسول، أو من التابعين ولم يكن هؤلاء أسهموا في الأحداث وشهدوا مولد الإسلام، والذاكرة لا تعي الأخبار ولا تحافظ عليها أمداً طويلاً. ثم إن المعاصرين لا يهتمون

---

(١٤٠) الطبري (٢/ ٢١٥)؛ «عن عمرو بن عنبسة. قال: أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو بمكة مستخفياً، فقلت من أنت؟ قال نبي، قلت وما النبي؟ قال رسول الله، قلت الله أرسلك؟ قال نعم، قلت بِمَ أرسلك؟ قال بأن نعبد الله ونكسر الأوثان ونصل الأرحام، قلت نِعمَ ما أرسلت به، فمن تبعك؟ قال حر وعبد، يعني أبا بكر وبلالاً. فكان عمرو يقول: لقد رأيتني وأنا رابع أربعة، فأسلمت وقلت أتبعك يا رسول الله. قال: لا، ولكن إلحق بقومك»، تأريخ الإسلام، للذهبي (١/ ٨١)، جوام عالسيرة (ص ٤٥ وما بعدها).

عادة بالأحداث، لأنها في نظرهم أمور اعتيادية، ولم يكن يأتي على بالهم أن شأناً سيكون لها، لهذا لم يعنوا بها، وموضوع حفظ أسماء المتقدمين في الإسلام، بحسب تواريخ إسلامهم باليوم والشهر والسنة، موضوع من تلك الموضوعات التي لم يكن لها كبير أهمية في صدر الإسلام. فهم إذ أسلموا فإنما أسلموا تقرباً إلى الله وعن إيمان وعقيدة. لم يسلموا طمعاً في دنيا سينالونها في ملك أو كسب أو سياسة يستغلونها.

وبين الذين أسلموا أناس عرفوا بالوجاهة في قومهم وبالثراء ويتملكهم المال. ومن بين الأغنياء: أبو بكر، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وكان تاجراً كثير الأسفار بالتجارة. وقد وضع هؤلاء منذ أسلموا كل ما في أيديهم في خدمة دينهم وعقيدتهم، وفي نشر الإسلام ومساعدة المسلمين المحتاجين، وفي شراء رقاب الرقيق لفك أسرهم. وبهذه المساعدات المادية القيّمة قووا الإسلام وثبتوه ونصروه ودعموه. فكان لها ـ بالطبع ـ تأثير كبير في الانتصار على الوثنيين.

كما كان بين المسلمين أناس عرفوا بالشجاعة وبعدم المبالاة في القتال وبإجادتهم الرمي. ومن الرماة المعروفين مسعود بن ربيعة القاري[١٤١]. وأناس عرفوا بتحمل الشدائد والصبر على التعذيب مهما كان شديداً، فصبروا ورابطوا، لم تضعف عزيمتهم، وقد صار تحمل هؤلاء العذاب سبباً في إسلام من قام بتعذيبهم أو شهده. فتراجعوا عن وثنيتهم، واستغفروا وتابوا، ودخلوا في دين من عذبوا في سبيل الله.

---

(١٤١) ابن هشام (١/ ٢٧٠).

وبين الذين ذكرت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كان من السابقين في التوحيد، ومن بيت عرف التوحيد ودعا إليه وحارب الأوثان وكان أبوه زيد بن عمرو من الداعين إلى التوحيد قبل رسول الله، ومن العائبين على قومهم تقربهم إلى حجارة لا تسمع ولا تجيب. وكان من القارئين الكاتبين، الواقفين على كتب اليهود والنصارى، ولكنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وإنما كان يدعو إلى التوحيد الخالص، التوحيد الذي ينادي به الإبراهيميون، أو الحنفاء، فأولع به عمه الخطاب من سفهاء مكة، وسلطهم عليه، فآذوه، ثم أخرجوه من بينهم، ونفوه عن بلده، وهاجر إلى بلاد الشآم وتوفي هناك في زمن غير بعيد عن الإسلام(١٤٢).

وقد أسلمت بإسلام سعيد امرأته فاطمة بنت الخطاب، بنت ذلك الرجل الذي كان السبب في إيذاء زيد بن عمرو بن نفيل وفي هجرته عن مكة، والتي صارت من جملة الأسباب في دخول أخيها عمر بن الخطاب في الإسلام فيما بعد(١٤٣).

وكان بين هؤلاء المسلمين نفر كانوا مملوكين، أسروا أو نهبوا فبيعوا في الأسواق، فصاروا ملكاً لمن اشتراهم. منهم: عامر بن فهيرة، وهو مولد من مولدي الأسد، وكان أسود، اشتراه أبو بكر، وأعتقه. ومنهم: واقد بن عبد الله حليف بني عدي بن كعب، جاءت به باهلة فباعوه من الخطاب بن نفيل، فتبناه. وعرف بواقد بن

---

(١٤٢) مروج الذهب (١/ ٥٦ وما بعدها)، جوامع السيرة (ص ٤٧)، Shorter, p. 817.

(١٤٣) جوامع السيرة (ص ٤٧)، طبقات ابن سعد (٣/ ١ ص ١٧٥ وما بعدها) «طبعة سخو»، Ency. of Islam, Vol., IV, p. 67.

الخطاب، فلما نزلت الآية: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾[١٤٤]. قال: أنا واقد بن عبد الله. ومنهم صهيب بن سنان المعروف بالرومي، مولى عبد الله بن جدعان، ذكر أنه كان أسيراً في أرض الروم، فاشترى منهم، ومنهم عمار بن ياسر[١٤٥]. شاركوا إخوانهم الذين سبقوهم في الإسلام الذي جاء إلى العرب والعجم والغني والفقير، والذي عابت عليه قريش اهتمامه بالفقراء. والتفاف الضعفاء حوله. والعناية بالفقير والضعيف، عيب ومنقصة في نظر زعماء قريش.

ويلاحظ أن معظم من أسلم كان من أحداث الرجال، أو من لدات الرسول أو ممن لا يكبره في السن كثيراً. أما الشيوخ المسنون، فلم يستجيبوا لدعوته استكباراً وأنفة، فللسن عند العرب منزلة، وهي حكمة وتجارب فيقدم المسن على الحدث، ثم إن العرف أرسخ جذوراً وأعمق أصولاً في نفوس المسنين. كان من العار على المسن تغيير ما هو عليه وما ورثه من آبائه وأجداده. وقد كان جواب أبو طالب للرسول حين دعاه إلى الإيمان به وهجر الأوثان وترك عبادة الأصنام: «أما دين آبائي، فإن نفسي غير مشايعة على تركه، وما كنت لأترك ما كان عليه عبد المطلب، ولكن انظر الذي بعثت به فأقم عليه، فوالله لا أسلمتكما ما كنت حياً حتى يتم الذي تريد»[١٤٦]. وهكذا سنة الإنسان في زمن الشيخوخة تكره التطور وتأبى التغيير، ولا تأنس إلا بالمحافظة على القديم، وعلى تراث جمعته الشيخوخة من حكم السنين.

---

(١٤٤) الأحزاب، الآية الخامسة.

(١٤٥) ابن هشام (١/ ٢٧٢ وما بعدها).

(١٤٦) البلاذري (١/ ١١٣).

عثر أبو طالب على ابن أخيه النبي ومعه علي بن أبي طالب، خارج مكة، يصليان في مكان هادئ بعيد عن الناس، فقال للرسول: «يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت، أي عم، أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه. فماذا كان جواب عمه أبو طالب؟ كان جوابه: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه. ولكن والله، لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت»[١٤٧]. أو هو قال: «هذا حسن، ولكن لا أفعله أبداً. إني لا أحب أن تعلوني استي»[١٤٨].

وليست لدينا تواريخ ثابتة مؤكدة لتواريخ ترتيب إسلام من ذكرنا. ومهما يكن من أمر، فقد كان إسلامهم جميعاً في الفترة الأولى من تأريخ الإسلام، ومدتها ثلاث سنين أو أربع من ابتداء نزول الوحي، ولم يكن إسلامهم في زمن واحد، ولكن كان في أزمنة مختلفة انحصرت كلها في المدة المذكورة.

لم يكن عدد المسلمين قد جاوز الأربعين شخصاً في هذا الزمن، هم كل من أسلموا خلال هذه المدة: ثلاث أو أربع سنين. وكل ذخيرته وعدته للمستقبل. وهي مدة طويلة كان من الممكن إسلام أضعاف أضعاف هذا العدد لو أن الرسول قام بالدعوة فيها جهاراً. ولكنه لم يكن يومئذ قد كلف وجوب الجهر بالإسلام

---

(١٤٧) ابن هشام (١/ ٢٦٢ وما بعدها)، عيون الأثر (١/ ٩٣ وما بعدها).
(١٤٨) السيرة الحلبية (١/ ٣٠٦).

وبالتبليغ، إلا لمن وجد في قلبه ميلاً إلى الإسلام، ولهذا لم يتجاوز المسلمون يومئذ العدد المذكور.

والعدد المذكور قليل إذا قيس إلى عدد سكان مكة، الذين كانوا عدة آلاف. لكنه كان في الواقع قوة وكثرة. قوة، لأن المسلمين كانوا كتلة واحدة متحدة، أسلموا عن إيمان وعقيدة، وبذل الغني منهم كل ما ملكه في سبيل الله، وجعل نفسه في خدمة رسوله. يخدمه خدمة المولى لسيده، يرى هذه الخدمة شرفاً له وقربى إلى الله. وقد تنافسوا في ذلك وتباروا، وساووا أنفسهم برقيقهم الذين أعتقوهم في سبيل الله. وعاملوهم معاملة الأخ لأخيه، وكانوا كثرة، لأنهم كانوا يداً واحدة لا يفرقهم طمع ولا حسد، وكلهم سامع مطيع لكل أمر يصدر من الرسول، على حين كان أهل مكة زعماء متفرقين متنافسين متحاسدين، تسيرهم أهواء وعواطف، ليست لهم كلمة واحدة ولا عقيدة واحدة يدينون بها، ويتبارون في البذل من أجلها. ثم إن المسلمين عازمون على المضي في الإسلام ونصره وإعلائه، فأما النصر في الدنيا وإعلاء دين الله، وفي ذلك ثواب الدنيا والآخرة، وإما الاستشهاد ونيل الجنة. أما أهل مكة، فلم يجمع بينهم هدف ومثل أعلى ودين يدينون به، يجعل لهم ثواباً في آخرة وجنة يذهبون إليها إن استشهدوا في سبيل تلك الأصنام والأوثان، وليس لهم رئيس واحد مطاع، فهم قلّة في العمل، وإن كانوا كثرة في العدد، وكلهم كان يتكتم ويتستر ولا يتظاهر بإسلامه، ولا يعلن عنه، خشية استفزاز قريش، وقيامها على المسلمين، وهم بعد قلة، لا قوة لها ولا عدة ولا قبل لها في مقابلة الكفار. وقد كانت أوامر الرسول إليهم أن يلتزموا هذا الكتمان، وأن يتمسكوا بالصبر، وألا

يدعوا أحداً علناً وجهاراً إلى دين الله حتى يأذن الله لهم بذلك. فكونوا امتثالاً لأمر الرسول يأخذون بالحيطة، ولا يجاهرون أحداً بدين الله إلا بعد تثبت وتأكد من استعداده لتقبل الدعوة ومن نفرته من عبادة قومه، ومن سمو مداركه، ولا يقيمون شعاراً يفصح عنهم فيؤدي بهم إلى التهلكة. وبقوا على ذلك مدة ثلاث سنين أو أربع، حتى أذن الله لمحمد بإنذار عشيرته ودعوة قومه، وسمح للمسلمين بالإعلان عن أنفسهم والجهر بالدعوة إلى الإسلام.

وكان الأمر للرسول أن يقتصر في التبليغ على خاصته، وعلى من يجد في قلبه ميلاً إلى الإسلام، لهذا لم يعرض نفسه للناس، ولم يبلغ رسالته لأهل مكة عامة. بقي على ذلك ثلاث سنين أو أربعاً يدعو إلى الله مستخفياً[١٤٩]، ويجتمع بمن آمن به سراً وفي أماكن آمنة داخل مكة في بعض الأحيان، وفي خارجها في الغالب في الشعاب المنزوية التي لا يرتادها الناس، وكذلك كان أمره إلى المسلمين بالتزام الحيطة والحذر والتخفي، وعدم الإعلان عن الإسلام إلى أن يقضي الله أمره. فكانوا إذا أرادوا الصلاة خرجوا فرادى أو مثنى إلى الشعاب والبرية، يصلّون على حذر، ولهم عيون ترى القادم لتنبه المصلين عليه، فلا يؤخذوا على غرة، ويظهر أمرهم للناس، بقوا على ذلك طوال مدة الاستخفاء.

لم تكن قريش في غفلة عن الرسول، فقد عرفته مجانباً أصنامها بعيداً عن أوثانها، لا يشاركها أعيادها وأفراحها، عازفاً عن عبادة قومه، غير راض عنها. ورأته خارجاً أول نهار كل يوم إلى الكعبة

---

(١٤٩) زاد المعاد (١/ ٢٠).

ليصلي صلاة الضحى، وكانت تلك صلاة لا تنكرها قريش. أما في الأوقات الأخرى، فلم يكن من المألوف عندها رؤية شخص يصلي في الكعبة فيها. فكان إذا صلّى في سائر اليوم بعد ذلك، قعد علي أو زيد يرصد له. وسمعت بخبر نزول الوحي عليه وإيمان نفر به من أهله وذوي قرابته، فلم تنكر عليه لما يقول. «فكان إذا مرّ عليهم في مجالسهم، يشيرون إليه، ويقولون: إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء»[١٥٠]. وفقد أبو طالب ابنه علياً، فقالت له فاطمة بنت أسد أمه: قد رأيته يلزم محمداً، وأنا أخاف أن يأتيك من قبل محمد في أمر ابنك ما لا تطيقه. فقال: ما كان ابني ليغتاب علي بأمر. واتبع أبو طالب أثر النبي وأثر علي، فوجدهما ورسول الله يصلي العصر في شعب أبي دب أو غيره، وعلي ينظر له، فقال لرسول الله: ما هذا الدين يا محمد؟ قال: دين الله الذي بعثني به. فدعاه إلى التوحيد، وترك عبادة الأوثان. فقال أبو طالب: أما دين آبائي، فإن نفسي غير مشايعة على تركه؛ وما كنت لأترك ما كان عليه عبد المطلب، ولكن أنظر الذي بعثت به فأقم عليه، فوالله لا أسلمتكما ما كنت حياً، حتى يتم الذي تريد. وقال لعلي: أما أنت يا بني، فما بك رغبة في الدخول فيما دخل فيه ابن عمك، وأتى أبو طالب منزله، فقالت له امرأته: أين ابنك؟ قال: وما تصنعين به؟ قالت: أخبرتني مولاتي أنها رأته مع محمد وهما يصليان في شعب بأجياد؛ أفترى ابنك صبا؟ قال أبو طالب: أسكتي، ودعي عنك هذا، فهو ـ والله ـ أحق من آزر ابن عمه. ولولا أن نفسي لا

---

(١٥٠) ابن سعد (١/ ١٩٩) «طبعة بيروت»، البلاذري (١/ ١١٥).

تطاوعني على ترك دين عبد المطلب لاتبعت محمداً، فإنه الحليم الأمين الطاهر. فسكنت وبلغ قريشاً، فراعهم، وكبر عليهم[١٥١].

ونجد في كتب التفسير والسير والتواريخ أخباراً أخرى على هذه الشاكلة، تفيد علم قريش ووقوفها على دعوة الرسول إلى الإسلام، واخباره بنزول الوحي عليه لبعض الناس، وإيمانهم به وتصديقهم رسالته، وأنه كان يخرج بهم إلى الشعاب خارج مكة، فيصلي بهم صلاة تنكرها قريش، لأنها ليست من مألوفها وعرفهم. وكل ما هو خارج عن عرف أهل مكة ومألوفهم، فإنه منكر في نظرهم لا يرضون به. وهي متفقة على أن قريشاً وإن تنكرت لهذه العبادة الجديدة، وانزعجت منها. ورأت فيها خروجاً على إجماع قريش، لكنها لم تنزعج منها انزعاجاً شديداً دعاها إلى إيذاء الرسول ومن اتبعه ومعاقبتهم. فقد ألفت خروج بعض المكيين بين الفينة والفينة على عبادة قومهم واعتزالهم أصنامهم وأوثانهم، ودعوتهم إلى ديانات غريبة عن مكة لم تكن معروفة فيها. لا سيما أولئك الذين كانوا قد خالطوا اليهود والنصارى، ووقفوا على آرائهم وديانتهم، وسافروا إلى الخارج، فزاروا العراق وبلاد الشام، واختلطوا بالأعاجم، ووقفوا على ثقافاتهم وعلى مختلف الآراء. فلما جاؤوا إلى مكة جاؤوا بآراء جديدة، وبأفكار غريبة عنهم استوردوها فأرادوا نشرها وإدخالها بين قومهم. فلما جوبهوا بالأمر الواقع وبإعراض الناس عنهم، عادوا إلى حظيرة قومهم، ونسوا ما دعوا إليه. أما الذين ثبتوا، ودعوا عن عقيدة وإيمان، وأصروا على رأيهم فقد اضطروا إلى الانزواء والاعتكاف وعلى تجنب قومهم، واعتزالهم

---

(١٥١) البلاذري (١/ ١١٣).

للانصراف إلى عبادة الله، فلم تتحرش بهم قريش أيضاً ولم تؤذهم، بل تركتهم وشأنهم لهم دينهم ولقريش شأنها ودينها، إلا الذين أبوا إلا عيب آلهة قريش والاستخفاف بها، وبعقيدتها وبعرفها ومألوفها، فقد آذتهم بعد محاولات قامت بها لنهيهم عن التعرض بمعتقداتهم وآلهتهم وأخرجتهم من أرضها، وكان آخر من أخرجته، وكان من هذا النوع زيد بن عمرو بن نفيل. فلما كان الإسلام، ظنت أنه حركة من تلك الحركات ودعوة من تلك الدعوات، ثم لا تلبث أن يمل صاحبها ويتغلب عليه اليأس، فيقطع أمله، ويتراجع كما تراجع من ذكرنا. أو يقبع في كهف أو زاوية، متنسكاً تنسك الأحناف.

ثم إن من سجايا العربي وطبائعه، التسامح في الاختلاف في الرأي، وبغض التقاتل والتخاصم على خلافات لا تؤذي الشرف ولا تخدش مكانة الإنسان في مجتمعه. ولذلك هضم مجتمعه اليهودية والنصرانية ومختلف أنواع الوثنية إضافة إلى عقائد أخرى كان أتباعها قلّة، بل أقل من القلة. ولكن أصحابها عاشوا مع ذلك في إخاء ووئام مع المخالفين لهم في عقيدتهم، وكأنهم ذوو أكثرية، لا فرق بينها وبين غيرها في شيء. وما قيل عن اضطهاد نصارى نجران أو يهود يثرب، لم يكن من فعل العرب، بل من صنع وعمل التعصب السياسي العالمي الذي وبأء جزيرة العرب، ودخل عليها من الروم والساسانية، وكانوا قد تباروا في اضطهاد الأقليات، ونقلوا عدوى مرضهم هذا إلى جزيرة العرب لعوامل سياسية بحثت عنها في الأجزاء السابقة من تأريخ العرب قبل الإسلام، ولعوامل أخرى لا مجال للبحث فيها في هذا المكان.

وللعربي سجية أخرى، هي في نظره إيمان ودين. وأريد بها

رابطة الدم، فعلى العربي نصرة من يرتبط به برابطة الدم ومساعدته، ظالماً كان ذلك الشخص المراد نصرته أو مظلوماً. وإلا عرض قريبه المتمكن نفسه للعار والشنار. وقد أثرت هذه الرابطة تأثيراً كبيراً في السياسة العربية في الجاهلية وفي الإسلام. لذلك لم يكن من السهل على قريش إيذاء الرسول في هذا العهد وهو من أسرة كريمة معروفة لها في مكة مركز ومقام، ولم يكن من السهل عليها إيذاء المسلمين وبينهم من كان من أرقى الأسر وأشرفها حسباً ونسباً. ثم لِـمَ تؤذي قريش الرسول والمسلمين ولم يبدر من الرسول ولا من المسلمين ما يستوجب الإيذاء؟ ولم يصدر من النبي ما فيه عيب بعقيدة قريش ودينها، بل كان الرسول كما قلت حريصاً على الدعوة إلى دين الله بسلام وبالتي هي أحسن كما يظهر ذلك من أقدم السور التي نزلت بمكة، وكلها حث وأمر للمسلمين أن يتخلقوا في الدعوة إلى دين الله بالتعقل وبأخلاق الإسلام.

وقد عاد أهل مكة فاستعملوا اللفظة التي سبق أن أطلقوها على كل خارج على عبادة قومه ودينهم هي لفظة «صبأ»، فقالوا: «صبأ محمد»، يريدون بذلك خروجه عن دينهم، وكل خارج عن دينه فهو «صابئ»، ويسمون من يدخل في دين الإسلام مصبواً، وكلهم صباة[١٥٢].

وكانوا إذا أرادوا الإشارة إلى الرسول، قالوا عنه: «هذا الصابئ»[١٥٣]. ولما أسلم عمر بن الخطاب، قالت قريش: صبأ

---

(١٥٢) المفردات (ص ٢٧٥)، شرح القاموس (١/ ٨٦).

(١٥٣) الروض الأنف (١/ ١١٦) «الهامش» «سيرة ابن هشام»، «فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟ فأشار إليّ. فقال: الصابئ... قالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها..»، صحيح مسلم (٧/ ١٥٢ وما بعدها).

عمر[١٥٤]. وكان عمر نفسه قد قال يوماً عن الرسول وذلك قبل دخوله في الإسلام: «أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق قريشاً، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله»[١٥٥].

وإذا صحت العبارة التي نسب أهل الأخبار قولها إلى أبي طالب، وهي: «ما هذا الدين يا محمد؟»، فإنها تدل على أن الجاهليين استعملوا لفظة «الدين» بالمعنى الاصطلاحي المفهوم منها عند أهل الأديان، وبالمعنى الذي يحدده العلماء[١٥٦]، أي في مقابل لفظة «Religion» في الإنكليزية[١٥٧]. وللفظة معنى آخر هو يوم الحشر، وذلك في آية ﴿مالك يوم الدين﴾[١٥٨]. وأما الديّان، فإنها بمعنى: القاضي. وقد مدح الأعشى «الأعشى الحرمازي» الرسول بقوله:

يـا سـيـد الـنـاس وديـان الـعـرب[١٥٩].

وقد زعم بعض المستشرقين أن لفظة «الدين» من أصل أعجمي، وأنها من الألفاظ المعرّبة، أصلها فارسي هو «دينا Daena»[١٦٠]. وقد دخلت في العربية بمدة طويلة قبل الإسلام.

---

(١٥٤) الروض الأنف (١/ ٢١٦) الهامش سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٦).

(١٥٥) المصدر نفسه: الهامش، سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٦).

(١٥٦) المفردات (١٧٥).

(١٥٧) Dictionary of Islam, p. 84.

(١٥٨) سورة الفاتحة، الآية ٣.

(١٥٩) برصوم (ص ٦٠)، الفائق (ص ٤٢٣)، شرح القاموس (٩/ ٢٠٨).

(١٦٠) Handworterbuch des Islam, S. 98, Grundriss der Iran. Philol., I, I, S. 107, 270, I. 2, S. 26, 170, II, S. 644, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gezetzes, S. 40, 58.

وترد لفظة «دين» بمعنى الحشر في الأرمية والعبرانية كذلك. وهي «دينو Dino» في الأرمية، وتقابل لفظة «Daino» الأرمية لفظة الديان في العربية. والله هو الديّان، وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة، وتعني لفظة «دين» القضاء في اللغة البابلية. وتعني «بل-ديني Beldini» معنى سيد القضاء[161].

وسارت الأمور سيراً لا بأس به بين المسلمين وقريش، لم يعكر صفوها نزاع ولا قتال. المسلمون حذرون خائفون. يخشون جهال قريش وحمقاها، وقريش تنظر إلى المسلمين متعجبة، ترى ماذا يفعل هؤلاء الذين يتركون الأرض ويناجون السماء، يبتعدون عن الأصنام وهي قريبة منهم تلمس وتسمع، وينظرون إلى رب في السماء، وهو بعيد عنهم، لا يسمع ولا يجيب. أليس هؤلاء مجانين؟ وظل كل يراقب الآخر، وهو لا يضمر له شراً، ولا يريد أن يقع بينهما شر. وقد كانت قريش تكره الفتن، وتنفر من الخصومة، وتبتعد جهد إمكانها عن الفوضى، لأثرها في الأمن، وفي استقرارها، وعلى الاستقرار تتوقف حياتها، فهي مدينة تجارة ودين. ومن طبيعة التاجر ومصلحته حب الاستقرار والأمن. ومن طبيعة المدن المقدسة ومصلحتها، المحافظة على الأمن وتقديسه، وضمان الراحة والاستقرار للمؤمنين القادمين من مختلف الأنحاء، والمسلمون يكرهون الشر ويبتعدون عنه وينهون عنه ويحاولون جهدهم عدم إثارة قريش. ولكن هل كان من الممكن استمرار الحال على هذا المنوال إلى أجل بعيد؟

---

(١٦١) برصوم (ص ٦٠).

الجواب: لا. فسكوت قريش، إنما كان عن استصغار وعدم مبالاة وعدِّها الإسلام شيئاً غريباً، وحركة طائشة لا خطر لها، لا تلبث أن تذهب كما يذهب الزبد جفاء. ولم تكن لتسكت لو علمت أن الإسلام دين جاء لأهل مكة ولغير مكة، وأنه جاء لاجتثاث الأصنام والأوثان وكل ما يتعارض مع عبادة الله الواحد الأحد، وأنه سيزيل الأصنام البشر وكل من يدين بالِجبروت والطاغوت ويمشي على الأرض مختالاً فخوراً، فكان لا بدَّ من مجيء يوم تظهر فيه الخصومة، ويقع فيه الشر، فإما الوثنية، وإما الإسلام.

وقد جاء ذلك اليوم حين أخذت قريش تقتص آثار النبي والمسلمين، إما على سبيل الاستطلاع للوقوف على حالة هذه الشيعة الغريبة التي اعتزلت عبادة قومها ولجأت إلى ديانة غير معروفة لديها، وإما على سبيل الوقوف على أهدافها وعلى مدى انتشار حركتها والخطر الذي سيتولد منها على قريش. مهما يكن من أمر، فقد أخذ نفر من أهل مكة، وأكثرهم من الجهّال الفحاش، يتعقبون أثر المسلمين، ويتسقطون أخبارهم ويتقصون مواضع اجتماعاتهم وأوقاتها، ليراقبوا حركاتهم وليروا ما هم فاعلون. فكان عملهم هذا الشرارة التي أضرمت نيران الفتن بين المسلمين وقريش. جاء في رواية: بينا طليب بن عمير وحاطب بن عمر يصليان في شعب بأجياد الأصغر، إذ هجم عليهما ابن الأصداء وابن الغيطلة وكانا فاحشين، فباطشوهما، ورموهما بالحجارة ساعة حتى خرجا فانصرفا»[١٦٢].

وفي خبر آخر: خرج جماعة من المسلمين إلى شعب أبي دب

(١٦٢) البلاذري (١/ ١١٧).

للصلاة، فيهم سعد بن أبي وقاص، فظهر عليهم نفر من المشركين، وقد كانوا يرصدونهم ويتبعون آثارهم، وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى بطشوا بهم. فأخذ سعد لحي جمل، فضرب به رجلاً من المشركين، فشجّه شجة أوضحت، وأنكسر المشركون، وقوي أصحاب سعد، فطردوهم حتى خرجوا من الشعب. فكان هذا الدم أول دم أهريق في الإسلام[١٦٣].

هذان الحادثان وأمثالهما وإن بَدَوَا وكأنهما عبث من عبث الصبيان، لكنهما تركا أثراً في نفوس جهال مكة، وحمل الرسول على نصح المسلمين بالتخفي والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأحوال وتهدأ الأعصاب، ودخل هو وجماعة من أصحابه بيت الأرقم بن الأرقم، وبقي فيه مختفياً مع جماعته لا يخرج، إلى أن أذن الله له بالخروج. وقد كان بعض المسلمين الذين بقوا خارج البيت يراجعون دار الأرقم لتلقي أوامر النبي، وتنفيذ ما يحتاج إليه، وفي هذه الدار أيضاً أسلم بعض المسلمين. قال عمار بن ياسر؛ لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم، والنبي ﷺ فيها، فقلت له: ما تريد؟ فقال: ما تريد أنت؟ قلت: أريد أن أدخل على محمد، فأسمع كلامه. قال: وأنا أريد ذلك. فدخلنا عليه، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا. ثم مكثنا يومنا على ذلك، حتى أمسينا، ثم خرجنا مستخفين. فكان إسلام عمار وصهيب بعد إسلام بضعة وثلاثين رجلا[١٦٤].

وتقع دار الأرقم هذه على الصفا، وقد عرفت بدار الخيزران

---

(١٦٣) البلاذري (١/ ١١٦)، ابن هشام (١/ ٢٧٥)، الطبري (٢/ ٢١٦).
(١٦٤) البلاذري (١/ ١٥٨).

أيام العباسيين، إذ اشتراها المنصور، ثم أعطاها ولده المهدي، ثم أعطاها المهدي الخيزران أم ولديه الهادي والرشيد[١٦٥]. أما قبل ذلك، فقد عرفت بدار الأرقم وبدار الإسلام. وقد احتفظ بنو الأرقم بها إلى أن اشتراها منهم المنصور[١٦٦].

وليس في كتب الأخبار والسير والتواريخ تأريخ مضبوط للوقت الذي استخفى فيه الرسول والمسلمون في دار الأرقم. فالروايات في ذلك متضاربة مضطربة، ولكن المرجح، على ما يبدو من غربلتها ونخلها، أنه كان في أواخر السنة الثالثة من النبوة أو في السنة الرابعة، أي في أواخر العهد الذي تحدثت عنه، بمعنى المدة التي أخفى الرسول فيها أمره، وصار يدعو الناس فيها خفية بعد نزول ﴿**يا أيها المدثر**﴾، ولم يكن الرسول فيها قد أنذر قومه علانية بالدخول في الإسلام[١٦٧].

وقد اتخذ المسلمون الأولون استخفاء الرسول في دار الأرقم حادثاً أرّخوا به. فقالوا: «أسلم فلان قبل دخول دار الأرقم»[١٦٨]، وقالوا: «إسلام فلان في دار الأرقم»[١٦٩]، وقالوا مثل ذلك في توقيت إسلام الطبقة الأولى من الصحابة.

والروايات متضاربة في مدة الاستخفاء في دار الأرقم، فهناك

---

(١٦٥) الحلبية (١/ ٣١٩)، أخبار مكة (ص ٤٢٤)، «طبعة لايبزك»، إمتاع الأسماع (١/ ١٨).

(١٦٦) Ency. of Islam, Vol. I, p. 435.

(١٦٧) الحلبية (١/ ٣١٩)، الطبري (٢/ ٢١٦).

(١٦٨) البلاذري (١/ ١٧٦).

(١٦٩) البلاذري (١/ ١٨٠).

من يجعل مدتها شهراً فقط[١٧٠]. ثم إنها متضاربة كذلك في كيفية الاستخفاء، هل كان استخفاءً تاماً عن الناس في تلك الدار فلا يخرج منها أحد من المسلمين ولا يظهرون لأحد، أو كان استخفاء في أوقات قصيرة من النهار، وذلك في أوقات اجتماعهم بالنبي مثلاً لأجل الصلاة وتوضيح الإسلام، والتبشير بدين الله وقبول أحد فيه؟

والأرقم بن أبي الأرقم، مخزومي من آل مخزوم المعروفين بالثروة والغنى في أيامهم بمكة. وأما أمه، فهي من خزاعة، دخل في الإسلام شاباً، فكان من المسلمين الأولين المكافحين المناضلين عن الإسلام، مع أن أهله كانوا من أشد الناس في وقت إسلامه عداوة للإسلام ولمحمد[١٧١]. ولما وجد حراجة موقف المسلمين بعد تلك الحادثة المذكورة، ووجوب الالتجاء إلى مكان أمين لا تجرؤ قريش على انتهاك حرمته، عرض بيته على الرسول، فكان أول معقل وملجأ أمين له ولأتباعه، وعددهم حتى هذا الوقت لم يكن قد بلغ الأربعين، فكان في ذلك شرف عظيم في الإسلام. وبفضل مكانة الأرقم في بيته، وبحكم العنعنات الاجتماعية وعصبية الدم، تمكن المسلمون من التحصن في هذه الدار بأمان وسلام، بالرغم مما وقع فيما بينهم وبين جماعة المشركين المذكورين.

وإذا استثنينا دار الرسول التي شرفت بسكنى الرسول فيها وبنزول الوحي عليه فيها مراراً وبإسلام أول المسلمين فيها، فصارت بذلك أشرف دار على وجه الأرض في نظر المسلمين، فإن من حق «دار الأرقم» أن تتباهى على سائر الدور الأخرى بكونها «دار

---

(١٧٠) السيرة الحلبية (١/ ٣١٩).

(١٧١) إمتاع الأسماع (١/ ١٨)، Ency. of Islam, Vol. I, p. 434, F.

الإسلام»، والمنزل الأول الذي اختاره الرسول ليكون مقراً ومسكناً له وللمسلمين إلى حين، مكان أدى ما ألقي عليه من واجب خير أداء، فله الحق إذن في أن ينال تلك الدرجة العالية عند المسلمين.

وبخروج الرسول ومن كان معه من دار الأرقم، اختتم عهد، وابتدأ عهد. اختتم عهد الاستخفاء والدعوة إلى الإسلام سراً وتخفياً، وابتدأ عهد الدعوة إليه علناً، دعوة عشيرة الرسول وآله أولاً، ثم دعوة أهل مكة عموماً وغير أهل مكة للدخول في الإسلام، وقد أثارت هذه الدعوة العلنية قريشاً بالطبع، فجاهرت بعداوتها للنبي ولما دعا إليه.

ولا نعلم متى كان خروج الرسول من دار الأرقم، فكتب السير والتواريخ ساكتة عن ذلك. كذلك لا نعلم عن كيفية اختفائه في هذه الدار ولا عن عمله وعمل بقية المسلمين فيها شيئاً، فكتب السير والتواريخ ساكتة عنها أيضاً، لم تذكر هل كان الرسول يخرج من هذه الدار بين الحين والحين فيذهب إلى الكعبة أو إلى بيته، أو أنه كان مختفياً فيها اختفاءً تاماً، فلم يغادرها إلى آخر يوم، وهو اليوم الذي غادرها بأمر نزل عليه، ولم تتحدث تلك الموارد عن الوحي، هل نزل عليه في دار الأرقم أو لا. إن سكوت هذه الموارد عن هذه الأمور شيء مؤسف حقاً، جعلنا في جهل عن هذه الحقبة الأولى من تأريخ الرسالة.

وهكذا اختتمت هذه الفترة، فترة انقطاع الدعوة إلى الإسلام إلا للمختصين بالرسول ومن وجد الرسول فيه استعداداً لتقبل الدعوة والإيمان به، بمرحلة جديدة هي المرحلة التي بدأ فيها الصراع الفعلي بين الرسول وقريش. وفيها أخذ رؤساء مكة يقاومون

الإسلام، ويدركون خطره على كيانهم وعلى عاداتهم الموروثة عن آبائهم وأجدادهم، انتهت مرحلة التخفي بعد أن دامت ثلاث أو أربع سنين[١٧٢]، وبدأت مرحلة الدعوة العلنية والجهر بها رضي المشركون أو غضبوا.

إن علمنا عن مدة الاستخفاء ليس على ما ينبغي ويرام من التحقق، إذ لم تتحدث كتب السير والأخبار عنها كثيراً. مع أنها مهمة، لأنها تكون أول عهد النبوة ومبدأ نزول الوحي على الرسول، والمرحلة الأولى من مراحل انتشار الإسلام، والأساس الذي قام عليه بناء الأمة الإسلامية، ولهذه الأسباب يطمع المؤرخ في الحصول على معلومات مفصلة مسهبة عنها. وقد كان لقلة عدد المسلمين في هذه المدة وضعف حالهم، وتخفيهم، وخشيتهم من افتضاح أمرهم لدى قريش، وعدم مجاهرة الرسول الملأ بالإسلام وانزوائه مع أصحابه للعبادة والتأمل دخل، ولا شك في قلة ما سجل عن هذه المدة في كتب الحديث والسير والتواريخ.

وأود أن أشير إلى خبر ورد في كتب السير يفيد أن الوحي انقطع عن الرسول بعد رجوعه من حراء إلى خديجة، أي في أثناء مدة الاستخفاء هذه، ومكث ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً، وفتر عنه الوحي، فاغتم لذلك، وذهب مراراً ليتردى من رؤوس الجبال شوقاً منه إلى ما عاين أول مرة من حلاوة مشاهدة وحي الله إليه. وقد قِيل: إن فترة الوحي كانت قريباً من سنتين، وقِيل: كانت سنتين ونصفاً، وقِيل: كانت أربعين يوماً، وقِيل خمسة عشر يوماً وقِيل

---

(١٧٢) إمتاع الأسماع (١/ ١٥).

ثلاثة أيام[١٧٣]، ثم تبدى له الملك وثبته، وبشّره أنه رسول الله حقاً. فلما رآه، فرق منه، وذهب إلى خديجة، فقال: زملوني زملوني. فأنزل الله ﴿**يا أيها المدثر قم فأنذر**﴾[١٧٤].

وذكر بعض العلماء أن الرسول لما قلق واغتم وكرب من إبطاء جبريل عليه وانقطاعه عنه، قالت له خديجة: «ما أرى ربك إلا قد قلاك». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿**والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى**﴾[١٧٥]. وذكر بعض آخر أنها نزلت بعد قول المشركين فيه إن ربه قد قلاه وودعه. وذكر بعض الرواة أنها نزلت بعد تبت يدا أبي لهب، ذلك أن الوحي انقطع عنه بعد نزولها، فذهبت العوراء أم جميل إليه، وهي امرأة أبي لهب، فقالت: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك. وذكر أن الرسول رمى بحجر في إصبعه، فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، وقِيل: إن اليهود سألوه عن أصحاب الكهف وعن الروح وعن قصة ذي القرنين، فقال الرسول: سأخبركم غداً، ولم يستثنِ. فاحتبس عنه الوحي. فقال المشركون ما قالوا، فنزلت. وورد غير ذلك[١٧٦].

ورأى أكثر العلماء أن سورة الضحى إنما نزلت تكذيباً لزعم قريش المذكور، ومعنى هذا أن نزولها كان بعد مدة الاستخفاء، لا في أثنائها، أي في المدة التي ظهرت فيها عداوة قريش للرسول،

---

(١٧٣) إمتاع الأسماع (١/ ١٤)، ابن سعد (١/ ١٩٦)، السيرة (١/ ٢٩٦).
(١٧٤) إمتاع الأسماع (١/ ١٤).
(١٧٥) تفسير الطبري (٣٠/ ١٤٨)، الطبري (٢/ ٢٠٦).
(١٧٦) (٣٠/ ١٥٦ وما بعدها)، القسطلاني (٧/ ٤٢٥ وما بعدها).

ومعنى هذا أن مدة انقطاع الوحي إنما كانت في هذهِ المدة أيضاً؛ في هذه المدة التي اشتدت فيها خصومة الكفار له، فأثر هذا الانقطاع عنه وأحزنه، فقالت قولها، فنزل الوحي بعد مقالتهم هذه تكذيباً لها، وأفرج عنه.

أما ما ورد من أن نزول سورة «الضحى» كان جواباً لقول خديجة من أن «ربه قد قلاه»، فإنه يخالف ما عرف عنها من تشجيعها له، وتهدئتها له وتثبيته، وتصديقها به وبكل ما كان يقوله لها، فلا يعقل صدور هذا القول منها، لما فيه من تشكيك وإثارة. وقد ورد في خبر آخر أن الرسول قال لخديجة لما أبطأ الوحي عليه: «إن ربي ودعني وقلاني»، يشكو إليها، فقالت: «كلا، والذي بعثك بالحق، ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة إلا وهو سبحانه يريد أن يتمها لك» فنزلت[177]. وهو خبر شاذ في نظر كثير من العلماء يضعفونه، ولا يأخذون به. وأكثرهم على ما ذكرت من أن نزول سورة الضحى كان بسبب تهكم المشركين بالرسول، وادعائهم أن ربه قد ودعه وقلاه على سبيل السخرية الهزء. ويعني هذا نزول هذه السورة بعد الاستخفاء.

لقد كان الإيمان بإلّه واحد وبوجود رب واحد وبنزول الوحي على الرسول، أول علامة فارقة ميّزت المسلمين عن الكفار. ولهذا كانت الشهادتان شهادة: لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، هما أول ما فرض في الإسلام.

وإذا سألتني عن أهم ما شرع وفرض من أحكام في هذه المدة،

---

(١٧٧) روح المعاني (١٥٨/٣٠).

فسيكون جوابي: الصلاة ولا شك، والصلاة كما هي معلومة ركن من الأركان الخمسة في الإسلام. وقد ذكرت كتب السير والتواريخ أن الصلاة كانت هي التي تجمع بين المسلمين، فكان المسلمون في هذه المدة إذا حان وقت الصلاة خرجوا إلى الشعاب خارج مكة متخفين ليصلوا فيها، كما كانوا يصلون متخفين في بعض البيوت خشية وقوف قريش عليهم. وترجع كتب الحديث والسير تأريخ فرض الصلاة إلى المرة الأولى التي نزل فيها الوحي، فتذكر أن جبريل كان أول ما فعله يوم نزل في غار حراء هو أن علم الرسول كيفية الوضوء وأصوله ثم الصلاة، فصلّى الرسول بصلاة جبريل[١٧٨].

بل يظهر من بعض الأخبار أن قريشاً كانت لا تنكر الصلاة وقت الضحى، فذكر أن الرسول كان يخرج إلى الكعبة أول النهار، ويصلي صلاة الضحى. وكانت تلك صلاة لا تنكرها قريش. أما في الأوقات الأخرى، فلم تكن قريش ترضى بها[١٧٩]. ولم يفصح هذا الخبر عن كيفية تلك الصلاة وشكلها، وماذا كان يقال فيها، ومن كان يصليها، قريش كلها أو نفر منها؟ وهل كانت بركوع وسجود، أم كانت مجرد وقوف؟ ولست أستبعد صلاة قريش في وقت آخر في البيت الحرام أو في معابد العرب الأخرى.

وقد ورد في خبر عن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر الغفاري قال له: «يا ابن أخي، صلّيت سنتين قبل مبعث النبي، صلّى الله عليه وسلم. قال: قلت فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهني الله»[١٨٠].

---

(١٧٨) البلاذري (١/ ١١١)، الطبري (٢/ ٢١٠).

(١٧٩) البلاذري (١/ ١١٣)، إمتاع الأسماع (١/ ١٦ وما بعدها).

(١٨٠) صحيح مسلم (٧/ ١٥٣) «باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه».

وهذا إن صح يدل بالطبع على أن العرب كانت تعرف الصلاة قبل الإسلام.

أما الصلاة في هذه المدة، فكانت أول ما فرضت على الرسول ركعتين ركعتين كل صلاة[١٨١]. ولما رجع الرسول بعد نزول الوحي عليه وأخبر خديجة بنزوله عليه، صلى بها ركعتين على نحو ما علمه جبريل[١٨٢]. وكانوا يصلون الضحى والعصر، ثم نزلت الصلوات الخمس قبل الهجرة. وكانت الصلاة ركعتين ركعتين، ثم نزل تمامها بالمدينة للمقيم، وبقيت صلاة المسافر ركعتين[١٨٣]. هكذا كانت الصلاة في بادئ الأمر صلاتين: صلاة في الضحى وصلاة في العصر، وكل صلاة بركعتين.

وقد كانت الصلاة في هذه المدة صلاة من غير أذان، ثم أمر به في السنة الأولى أو الثانية من الهجرة، أي في المدينة، حينما ائتمر رسول الله وأصحابه أن يجعلوا شيئاً للاجتماع للصلاة[١٨٤]. ولم تكن الحكمة تشريع الأذان بمكة، فالأذان إعلان وقوع وقت الصلاة، ولم يكن من الممكن إعلانها في مكة، فالمسلمون قلة، وكانوا يتخفون من قريش، والأذان هو ضد الأمر بالتخفي والابتعاد عن كل ما يثير غضب قريش، ولهذا لم يكن من الممكن الأمر به في هذا العهد بمكة.

والصلاة من العبادات المعروفة المستعملة في كل الأديان، وهي

---

(١٨١) ابن هشام (١/ ٢٦٢ وما بعدها).

(١٨٢) البلاذري (١/ ١١١).

(١٨٣) البلاذري (١/ ١١٧).

(١٨٤) البلاذري (١/ ٢٧٣).

من أركان الدين في معظمها تقريباً، وإن اختلفت في شكلها ومفهومها. ويرى المستشرقون أن لفظة «الصلاة» من الألفاظ المعربة. عربت عن الأرمية قبل الإسلام بأمد، وقد وردت لفظة «صلوات» في القرآن الكريم بمعنى المصلى والمعبد[١٨٥]. وقد كان السريان يطلقون على كنيستهم «صلوتا»، فـ «صلوات» جمع مصلى ومعبد. وما زال نصارى شرقي الأردن يطلقون على كنائسهم «صلوات»[١٨٦]. والظاهر أن أهل الحجاز استعملوا هذه اللفظة استعمال نصارى العرب لها. وقد ذكر «الجواليقي»، أن «صلوات» الواردة في القرآن الكريم، هي كنائس اليهود. وهي بالعبرانية «صلوتا»[١٨٧]. وتقابل لفظة «صلوتا» جملة: «بيت صلوتو Beth Sloutho» في السريانية، ومعناها «بيت الصلاة». وقد أطلق العبرانيون على كنيستهم «صلوتا» أي موضع الصلاة. أخذوا ذلك من السريان[١٨٨]. والصلاة بالمعنى المفهوم منها عند المسلمين هي «صلوتا» «Selota» في الإرمية[١٨٩]. و«صلوت» في الحبشية و«صليتو» في الأكدية[١٩٠]. أما في العبرانية، فيقال لها «تفيله Tephillah»[١٩١].

أما القرآن الكريم، فليس في استطاعتنا حصر ما نزل منه في

---

(١٨٥) الحج، الآية ٢٤، الكشاف (٣/ ٣٤ وما بعدها)، المفردات (ص ٢٨٧).
(١٨٦) مرمرجي (ص ١١٩).
(١٨٧) الحج، الآية ٤٠، الجواليقي، المعرب (ص ٢١١).
(١٨٨) برصوم (ص ١٠٥ وما بعدها).
(١٨٩) Shorter, p. 636.
(١٩٠) مرمرجي (ص ١١٤ وما بعدها).
(١٩١) Hastings, p. 444.

أثناء هذه المدة على وجه ثابت مضبوط، إذ اختلف في ذلك العلماء. فذهب فريق منهم إلى أن سورة **﴿إقرأ باسم ربك﴾** هي أول ما نزل من القرآن. وذهب فريق ثان إلى أن سورة **﴿يا أيها المدثر قُم فانذر﴾** كانت أول ما نزل، وذهب فريق ثالث إلى أن (سورة الفاتحة) هي أول ما نزل به الوحي من القرآن الكريم[١٩٢]. وللعلماء في ذلك كلام وبحوث لا مجال للتعرض لها في هذا المكان. على أن أكثرهم يميلون إلى الرأي الأول، مستندين إلى خبر مروى عن عائشة زوج الرسول[١٩٣].

والذين يذكرون أن سورة **﴿يا أيها المدثر﴾** هي أول ما نزل من الذكر الحكيم، يستندون إلى رواية لا تشير إلى نزول شيء من القرآن الكريم في غار حراء، بل تجعل نزوله بعد ذلك. وتذكر هذه الرواية أن الملك الذي جاء الرسول بحراء، جاءه بعد ذلك فأوحى إليه بـ **﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر﴾**[١٩٤]، فكانت على هذه الرواية أول ما نزل من القرآن.

وقال معظم العلماء إن سورة **﴿ن والقلم وما يسطرون﴾** هي أول ما نزل بعد **﴿إقرأ﴾**، وإن (المزمل) نزلت بعد (ن)، ثم نزلت (المدثر) بعد (المزمل)، ثم نزلت (تبت) بعد (المدثر)، وقدم بعضهم (الفاتحة) على (تبت)[١٩٥]. ولا يعني قولهم هذا نزول

---

(١٩٢) السيوطي: الإتقان (١/ ٢٩ وما بعدها)، البلاذري (١/ ١٠٧).

(١٩٣) راجع المراجع المذكورة.

(١٩٤) الإتقان (١/ ٤٠).

(١٩٥) الفهرست (ص ٣٧)، الإتقان (١/ ٤٢ وما بعدها)، روح المعاني (٣٠/ ١٧٨).

السورة كلها من أول آية فيها إلى آخر آية على هذا الترتيب؛ ففي بعض السور آيات متأخرة ألحقت بالآيات القديمة المذكورة، وقد عيّنها ونص عليها العلماء، وأشاروا إليها في أسباب النزول[١٩٦].

على أن هناك من قال إن سورة (الضحى) هي أول ما نزل بعد سورة (إقرأ). نزلت بعد إبطاء التنزيل على الرسول بعد نزول (إقرأ) عليه، فقال كفار قريش: ودعه ربه وقلاه، فنزلت (والضحى). ومنهم من قال: إن أول ما نزل ﴿**إقرأ باسم ربك**﴾؛ ثم (نون)، ثم (المدثر)، ثم (المزمل). ومنهم من قال: أول ما نزل من القرآن ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾، حتى بلغ إلى (الرجعي)، ثم نزلت ﴿**يا أيها المدثر**﴾، ثم ثلاث آيات من (ن)[١٩٧].

ولم يدوّن العلماء ـ وا أسفاه ـ تواريخ نزول الوحي، بالشهور والسنين. وإنما اكتفوا بذكر أسباب النزول، أي المناسبات التي نزلت فيها الآيات، وذلك باستثناء سورة (إقرأ) التي نص أكثر العلماء على أنها نزلت في اليوم الأول من نزول الوحي وفي غار حراء. ومعنى ذلك أنها نزلت في السنة الأولى من النبوة، فهي إذن أقدم السور والآي. أما (ن)، فقد ذكر العلماء أنها نزلت في كفار قريش، وعلى رأسهم أبو جعل الوليد بن المغيرة وقد كانوا ينسبون إلى الرسول الشعر مرة والسحر مرة ثانية، والجنون مرة ثالثة. فبدأ جل شأنه هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون، وتعظيم أجره على

---

(١٩٦) راجع كتب التفاسير ومباحث أسباب النزول وما كتب في ترتيب نزول السور، البلاذري (١٠٨/١).

(١٩٧) البلاذري (١٠٧/١ وما بعدها).

صبره على أذاهم، وبالثناء على خلقه[198]. وأما المزمل فذكر بعض العلماء أنها نزلت بعد يا أيها المدثر[199]، وذلك حينما ذهب الرسول فزعاً إلى خديجة ليخبرها بخبر الوحي، فقال: زملوني زملوني. فنزلت ﴿**يا أيها المدثر**﴾. وعلى أثرها نزلت يا أيها المزمل[200]. وذكر بعض آخر أنها نزلت لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: «سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر. قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه. فتفرق المشركون على ذلك. فبلغ ذلك النبي، صلّى الله تعالى عليه وسلّم، فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال «يا أيها المزمل يا أيها المدثر»[201]. وذكر في سبب نزول (المدثر) ما ذكرته عن نزول (يا أيها المزمل)[202]. وأما (تبت)، فيذكر العلماء، أنها نزلت بعد صعود رسول الله الصفا لإنذار قريش على ما سأتحدث عنه فيما بعد[203]؛ أي أنها نزلت بعد خروج الرسول من دار الأرقم وبعد انتهاء مدة الاستخفاء التي نتحدث عنها.

هذا هو كل ما ذكره العلماء عن أقدم ما ورد من القرآن الكريم. ولكننا لو درسنا أسباب النزول المدونة في كتب التفسير

---

(١٩٨) روح المعاني (٢٩/ ٢٣ وما بعدها).

(١٩٩) البلاذري (١/ ١٠٩)، الطبرسي (١٠/ ٣٧٧).

(٢٠٠) روح المعاني (٢٩/ ١٠١).

(٢٠١) روح المعاني (٢٩/ ١٠١).

(٢٠٢) الطبرسي (١٠/ ٣٨٧).

(٢٠٣) الطبرسي (١٠/ ٥٩٩)، روح المعاني (٣٠/ ٢٦٠).

والحديث بعناية ودقة، نجد أنها باستثناء «إقرأ» تشير في الواقع إلى أن نزولها كان بعد مدة الاستخفاء وبعد تحرش قريش به وتعرضها بالإسلام. إذ لا يعقل نزولها في تلك المدة؛ ولم تكن العلاقات قد ساءت بعد بين الرسول وقريش في هذا العهد. ولعل هذا هو الذي جعل بعض العلماء يذهبون إلى أن النبوة أتت الرسول وهو ابن أربعين سنة، ثم استمرت على رأيهم ثلاث سنوات، حتى بلغ الرسول الثالثة والأربعين، فانتهت بنزول جبريل بالقرآن عليه. أما في السنين الثلاث المذكورة سني النبوة، فقد قرن به إسرافيل، كان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، لأن ذلك لم يكن من واجب إسرافيل. ثم إن هذه المدة كانت تمهيداً للرسالة. وهذا الخبر ضعيف على رأي أكثر علماء السيرة والتواريخ[٢٠٤].

ولا بد لي هنا من التنبيه على أهمية دراسة موضوع ترتيب نزول الآي والسور في تدوين السيرة، فإن الوقوف على أسباب النزول ووقته ومكانه يساعدنا مساعدة قيمة في تثبيت الحوادث وتوضيح ما ورد مجملاً أو غامضاً في كتب السير والتواريخ. ويقتضي ذلك بالطبع الرجوع إلى كتب التفاسير وإلى كتب أسباب النزول وإلى كتب الحديث، لتكوين رأي واضح موحد في الموضوع. وهذا يوجب على العلماء المختصين المحدثين دراسة الموارد القديمة المذكورة ونشرها بأسلوب حديث، وترتيبها وتبويبها، ليتمكن المؤرخ من الاستفادة منها أكبر فائدة، ومن التوفيق بين الروايات العديدة التي ترد

---

(٢٠٤) الإتقان (١/ ٧٧)، ابن سعد (١/ ١٩١).

عن حادث واحد، ليكون له بذلك رأياً علمياً عميقاً في البحوث التي يتطرق إليها في هذا الباب.

هذا كل ما بلغه علمي من أمر هذه السنين الثلاث أو الأربع الأولى من النبوة، سني التحفظ والاستخفاء. إن مرت هادئة ناعمة لم يتخللها عنف ولا اعتداء، فقد كانت ولا شك شديدة عنيفة على الرسول. لا يعرف شدتها وعنفها إلا أصحاب الرسالات والرأي. الرسول في شوق شديد إلى سماع الوحي ورؤية الملك الموكل به، ليتلقى منه أوامر الله ونواهيه، متلهفاً إلى سماع الأمر الذي سيصدر إليه بتبليغ الرسالة لعشيرته ولقومه. كل لحظة بالنسبة إليه هي سنة أو قرن، يريد إبلاغ رسالته وإتمام كلمة الله في أقرب وقت وأقصره. والوحي لم يصدر إليه فيها إلا بالتريث والانتظار والصبر، ثم هو قليل. بين النزول والنزول مدة طويلة هي دهور في نظر المتيم المشتاق الشاعر بعظم رسالته وبوجوب إبلاغها للناس. ثم هو قلق حائر كيف يبلغ رسالته لقومه، وهم على هذا الحال من التمسك بالأصنام والأوثان وبسنّة الآباء والأجداد، وليس له قوة ولا مال، يتغلب بهما على عدوه وعدو الله. إن الله قد اختاره لرسالته وهو ملزم مكلف أداءها ونشرها بين الناس حتى يقولوا نشهد ألا إله إلا الله ونشهد أن محمداً رسول الله. إنه لا يرضى ولا يقنع ولا يقبل إلا بالإيمان بالله وبالقول بالشهادتين، أما المال والملك، فليس لها مكانة عنده. وليس للمشركين من سبيل إلا الإيمان والدخول في الإسلام. قضى الرسول وقته هذا وهو بين التفكير في الله والتهجد والتعبد له، وبين التفكير فيما ذكرت وفي حال من بايعه وصدق به، وهم كلهم جماعة لم تتجاوز في خلال هذه المدة الأربعين شخصاً.

ثم نزل عليه الوحي فجأة يأمره بإنذار قومه وبتبليغهم رسالة رب العالمين، لا يبالي ولا يداري ولا يفكِّر في خطر، فإنها رسالة، ومن شرفه الله باختياره رسولاً، فعليه ألا يبالي ولا يخشى من الناس أحداً، وأن يعتمد عليه، ولا يخيب من اعتمد عليه. أما كيفية ذلك، وكيف أبلغ الرسول قومه رسالة الله إليه، فهذا ما ستراه في الفصول التالية من هذا الكتاب.

المحتويات